ربيع جابر

يوسف الإنجليزي

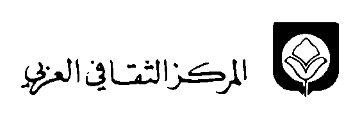
رواية



ربيع جابر

يوسف الانجليزي

رواية



يوسف الانجليزي

* **يوسف الإنجليزي** (رواية)

* تأليف: ربيع جابر

* الطبعة الأولى 1999

* الناشر: **المركز الثقافي العربي**.

العنوان:

□ **الدار البيضاء**/ • 42 الشارع الملكي (الأحباس) • فاكس /305726/ • هاتف/ 303339 - 307651/.
• 28 شارع 2 مارس • هاتف /271753 - 276838/ • ص.ب./ 4006/ درب سيدنا.

□ **بيروت**/ الحمراء - شارع جان دارك - بناية المقدسي - الطابق الثالث.
• ص.ب/ 113-5158/ • هاتف/ 352826 - 343701/ • فاكس/ 00961-1-343701/.

هذه الرواية من نسج الخيال. وأي شبه بين أشخاصها وأحداثها مع أشخاص حقيقيين وأحداث حقيقية هو محض مصادفة ومن الغرائب ومجرد عن أي قصد.

الجزء الأول

الجبل اللبناني

- 1 -

لا نعرف اليوم الذي وُلد فيه بطل قصتنا. لكننا نستطيع تحديد السنة، والشهر ربما.

السنة نحدّدها عبر هذه المعلومة: كانت سارة في الأشهر الأخيرة من حملها حين ذاع خبر ظهور «رجال سود» في الجبل اللبناني. سمعت سارة ذلك من بنات زوجها الغائب، ثم سمعته ثانيةً من خالتها حبوس. وفي المرة الثالثة لم تسمع بل رأت بعينيها الاثنتين رجلاً أسود يطارد أرنباً أبيض بين الأشجار وراء البيت. فزعت من المنظر وأغمضت عينيها مسرعةً لئلا تنجب طفلاً بلون الفحم.

هؤلاء «الرجال السود» الذين أفزعوا أهل الجبل كانوا الفرقة السودانية في جيش الفتح المصري. جنّدهم إبراهيم باشا بقوّة السلاح: ساقهم بالسياط من أدغال السودان وقادهم عبر الصحراء صاعداً في مراكب النيل حتى الخلاء تحت أسوار القاهرة. هناك، بمعونة الكولونيل سيف*، حوّلهم إلى «جيش أوروبي صغير». استخدمهم في الحرب ضد ثوار المورة (اليونان). وحين قرر محمد علي الخروج على السلطان، في خريف 1831، جعلهم ابنه إبراهيم

---

* Séve. عُرف بسليمان باشا الفرنساوي.

باشا الفرقة السادسة في جيشه الجديد. في مطلع 1832 حلّوا ضيوفاً على الأمير بشير الشهابي الثاني الكبير في قصره في بيت الدين.

من هذا نعرف أن بطل قصتنا، يوسف إبراهيم خاطر جابر، الابن الأكبر لسارة حمزة نور الدين السعدي، قد ولد في سنة 1832 ميلادية (1248 هجرية) خلال فصل الشتاء، أو الربيع.

نأتي إلى شهر ميلاده، وإلى معلومة أخرى: بينما سارة تلد كانت القرية كلّها مشغولة بقطف الحرير.

حسب طقس الجبل يفقس القزّ من بزره في مطلع نيسان، ويتسلق شيح الوزال والغبري في أواخر أيار، غازلاً شرانقه البيضاوية ذات لون الذهب والغيوم. وبعد عشرة أيام تتصلب الشرانق في وسطها ويبدأ قطف الحرير: يُقشر عنها «الليسيني»، وهي الخيطان التي تعلقها بالشيح، ثم تُفرد على أطباق نظيفة باردة، بانتظار حلّها.

يعني هذا أن يوسف خرج من بطن سارة في منتصف حزيران 1832، قبل ذلك أو بعده بأيام قليلة. (قد يُبكّر موسم الحرير أو يتأخر، حسب درجة الحرارة، التي تتحكم بوقت تفقيس بزر القزّ، كما وتتحكم أيضاً بـ «نفسية»* الدود وإقباله على الطعام).

يوم زائد أو ناقص لا يهم. وُلد يوسف جابر، الابن السادس عشر لإبراهيم خاطر جابر، في حزيران 1832.

---

* إذا جاءت «شلهوبة» (موجة حر) في أيار مثلاً تذبل الديدان وتتوقف عن التهام ورق التوت، فيتأخر إكتمال نموها أياماً.

ـ 2 ـ

لا بد أن نسمّيه يوسف الثالث. فهو جاء بعد «يوسفين».

أنجبت زهية حسين، لإبراهيم خاطر، بين سنة 1801 و 1823، عشرة صبيان (يوسف، خير الله، حسن، قاسم، يوسف الثاني، عمر، بشير، خاطر، أحمد، جمال الدين)، وخمس بنات (نسب، شمس، سكينة، سعاد، سعود). كانت تُكنى بأم يوسف، وأحياناً بأم نسب، ذلك أن زوجها إبراهيم فضّل من البداية أن يكنى بأبي نسب لشغفه بابنته الكبرى*.

نلاحظ في تلك الفترة (النصف الثاني من القرن الثامن عشر، والأول من القرن التاسع عشر) تكرار اسم يوسف تكراراً لافتاً في أشجار العائلات في الجبل، درزية ومسيحية. ذلك عائد في أغلب الظن إلى إسمين مؤثّرين في تاريخ الجبل، وإلى صراع بدأ آنذاك: الأول الأمير يوسف الشهابي حاكم إمارة جبل لبنان مَن 1770 إلى 1788 ميلادية. الثاني الشيخ يوسف أبو شقرا (شيخ ذلك العصر الروحاني) الذي أوصى قبل موته ألا يُنعى في مأتمه وأن يُدفن في

---

* هذه القصة تُذكّرنا بالأمير بشير، حاكم الجبل من 1788 إلى 1840 م، الذي كُني بأبي سعدى، وهي ابنته من زوجته الثانية الجارية الشركسية حسن جهان، رغم أن زوجته الأولى شمس أنجبت له قاسم وأمين وخليل.

أرض تُحرث وتُفلح فلا يكون له قبرٌ ظاهر. ولكن الوصية لم تُنفذ*.

فرض الأمير يوسف خلال فترة من العداء للشيخ يوسف رسماً على العمامات أو «الشاشيات». الدروز كانوا آنذاك أكثر لابسي الشاشيات في الجبل. سمّوا الضريبة «قرش الشاشة». واجتمعوا في مرج بعقلين بالأسلحة والذخائر لقتال الأمير. الشيخ كان قد ذهب بنفسه إلى قصر دير القمر وأصرّ على الأمير بإلغاء رسم العمامة. قال الأمير:

ـ هذه البلاد لا تسع يوسفين.

أجابه الشيخ:

ـ فليرحل «المتضايق».

بعد ذلك تدخّل آل نكد، مشايخ الدروز في دير القمر، وحصلت مصالحة: رُفع الرسم عن العمامات، وتبعثرت حشود مرج بعقلين. إبراهيم كان فتى آنذاك لكنه لن ينسى أبداً وقوفه مع أبيه خاطر عند حافة المرج، ومنظر الخلّة تحتهما، وبيوت الدير الغارقة في الشمس قبالتهما، في القاطع المغطى بالتوت والزيتون.

بعد سنوات من تلك الحادثة دسّ أحدهم سماً في طعام الشيخ يوسف فمات. إبراهيم ذهب إلى المأتم. وحتّى موته، بعد نصف قرن تقريباً، ظل يتذكر الحشود المتدافعة لحمل الجثمان، ووابل زهر الكرز المتساقط من الشجر فوق الجميع.

---

* وصية نُسبت أيضاً إلى الشيخ الفاضل محمد هلال من عين عطا وقد عاصر الأمير فخر الدين المعني الثاني. (القرن السابع عشر للميلاد).

- 3 -

وُلد يوسف بأذنين معقوفتين. لفّت الخالة حبوس رأسه بفوطة لتُصلح من شكل أذنيه.

أمّه سارة، بعد الولادة بساعات، استمر نزيفها. كانت الروح تخرج من جسمها في خيوط حمراء وسوداء. تحوّل لونها إلى أصفر الكَوْرَبا، وتشكلت دوائر زرقاء حول عينيها وفمها. قالت الخالة لكبرى البنات نسب:

- اصعدي بالطفل إلى بيت أم سليم، لن نتركه هنا.

خرجت نسب إلى صحنِ البيت. كانت شمس حزيران تغمر دار البحص بشعاع أبيض. مشت والطفل ملفوف وصامت في الشال الأسود الرقيق. صعدت الطريق الترابية بين جلول التوت عن اليمين، وخط أشجار السرو الذي يسوّر المقبرة عن اليسار، حتى بلغت «دار المير»*. من هناك ظهرت بيوت القرية تنحدر مع الجلول حتى «النهر الشتوي».

أمام باب بيت أم سليم الأبيض الجدران، رأت أطباق القش

* دار صيفية ابتناها الأمير بشير الثاني في كفربُرك، سنة 1805، قبل سنة واحدة من بدء بناء قصر بيت الدين.

مغسولة ومتروكة في الشمس. على بعد خطوات تراكضت صيصان صفراء تتقاذف بمناقيرها شرنقة حرير معطوبة سوداء انفلت طرف خيطها متحركاً كالدودة. كانت الرائحة المتصاعدة من بقايا الأطباق (هذه قاذورات القزّ الذي مرض ومات قبل أن يلفّ أكفانه الحريرية) كريهةً. دون أن تنتبه ضغطت يوسف الصغير بين ساعديها بقوة، فاستيقظ باكياً. لم تكن تريد أن يرضع حليب امرأة تعيش في قلب هذه الرائحة. لكن ماذا تفعل غير ذلك؟

تعلق يوسف بثدي المرأة المرضعة. في الزاوية، على فرشة مطوية، قرب طنجرة سوّدها حطب الصنوبر، نام طفل في قماط من «الجنفيص». حدقت نسب إلى بقعة رمادية على الجدار المكلّس. في الأيام التالية ستحفظ عن ظهر قلب تعرجات هذه البقعة، النقاط السوداء والصفراء وسطها، والنتوءات الحجرية عند أطرافها. بعد فترة تصير ترى هذه البقعة في المنامات أيضاً.

ظلت سارة تتقلب بين الموت والحياة فترة طويلة. توقف نزف الدم لكن الحمى هاجت عليها، وحوّلتها كيساً من الجلد مليئاً بالعظام المدببة. كانت نقاط الحليب تسيل من حلمتيها وتضيع في جلدتها. الخالة قالت إن حليب المحمومة يقتل الوليد.

ذات ليلة قالت نسب:

ـ يا خالة، أم سليم تقول: الفوطة المربوطة على أذنيّ يوسف تؤذي سمعه.

قالت الخالة ملتفتة:

ـ لكن ألم تفكيها بعد؟

فكّت نسب الفوطة عن رأس يوسف. صار يبكي. ربطتها من

جديد. في اليوم التالي، بينما يرضع ثدي أم سليم، اقتربت نسب وفكّت الفوطة، ثم عادت إلى الطراحة قرب الباب، وإلى التحديق بتلك البقعة.

في بيت العقد الطويل، بعد المقبرة، البيت الذي بناه الجد خاطر عند انتصاف القرن الثامن عشر، كانت سارة تلفظ أنفاسها.

قالت الخالة:

ـ سوف تموت.

لكن سارة لم تمت. أغمضت عينيها ونزلت إلى الظلام. حسب الكلّ أنها ماتت. وحين وصل إبراهيم إلى البيت، عائداً مع أولاده الخمسة من رحلته، أخيراً، ارتعشت يدها وتحركت للمسة يده.

جلس إبراهيم على الأرض قرب فرشتها بعد أن نزع ستارة الجنفيص* ورماها خلفه. أخذ يدها بين يديه، ثم أخرج منديلاً من الحرير الأصفر ومسح جبهتها. نظر إلى المنديل: صار لونه رمادياً قاتماً. التفت نحو الخالة حبوس:

ـ أين الصبي؟

(كانت قد تلقفته وهو يترجل عن الحصان قائلة: «صبي يا شيخ، مثل القمر»).

قالت الخالة:

ـ لحظة وأرجع به.

---

* ستارة تفصل قبو العقد الطويل إلى قسمين: داخلي مظلم، وخارجي معرض لنور البوابة والنافذة.

وخطفت قدمها إلى الخارج.

أخرجت سارة من صدرها نفساً ساخناً كالنار. بدا لإبراهيم الذي تجاوز الستين ببضع سنوات، أنها كبرت في غيابه أربعين سنة وصارت من عمره. سقط قلبه داخل قفص أضلاعه. تذكر ذبيحة الأضحى. كأنه ذلك الثور، تحت المصطبة الحجرية، بقوائمه الأربع المربوطة في عقدة قاسية واحدة... تذكر عين الثور تستدير وتستدير، وتتضح داخل دائرتها الكبيرة، دوائر أخرى أصغر فأصغر. أسود، أصفر، أبيض، أزرق... وخيط عرق يخرج من مركز الدوائر ويسيل خارجاً نحو الدائرة الكبرى، ثم يكرج على الجلدة السوداء ذات الوبر الملطخ بتراب الدار. حين مرّ النصل على العنق نفض الثور نفسه وهوى على جذع التعريشة ـ البعيدة متراً ـ فكسره.

يد سارة تقبض يده. انغرزت الأظافر في ظاهر كفّه. قال:

ـ سارة، سارة.

يوم ماتت زهية، زوجته وابنة عمه وأم أولاده، لم يكن هنا. كان هارباً من وجه الأمير، تائهاً في سهل البقاع، ومطارداً بذكرى الشيخ علي جنبلاط الذي مات نازفاً بين يديه في مغارة نيحا. طوال الطريق من نيحا إلى السويدا ظل هدير شلال جزين يتردد داخل جمجمته مصحوباً بكلمات الشيخ المحتضر:

ـ انجُ بنفسك يا إبراهيم، انجُ بنفسك!

كانوا ثلاثة في المغارة. هو، والشيخ علي حسن جنبلاط، وغنطوس آغا القهوجي وكيل أراضي الشيخ في بعذران. قال غنطوس آغا:

ـ ماذا نفعل؟

كانت ثيابهم ممزقة، وجرح الشيخ علي يفور بالدم ويمازج تراب المغارة ثم يتسرب داخل شقوق صخرها. ربط إبراهيم جرح الشيخ علي بزناره. قال غنطوس آغا:

ـ يجب أن نحمله، وفي الليل نعبر السهل.

عند المساء بينما الشيخ علي يتفرج عليهما وهما يربطان البواريد بالزنانير ليصنعا له حمالة، حطّ صقرٌ في مدخل المغارة. فكّر الشيخ أنه قادم من فوق سهل السمقانية، قرب مرج بعقلين. فكّر أنه لحق بهم من هناك. فكّر في جيوش الأمير بشير تحاصرهم. فكّر في يوم بعيد، يوم مضى قبل عشرين أو ثلاثين سنة: كان يركض في الوادي حافياً، والندى يدغدغ قدميه، وكان يركض كأنه يطير.

قال غنطوس آغا:

ـ هيا.

والتفت مع إبراهيم نحو الشيخ. طار الصقر فالتفتا نحو مدخل المغارة. (لم ينتبها له قبل ذلك). كان نور النهار قد تلاشى تقريباً. هبّ هواء وصفع جدار الشير الصخري. استدارا نحو الشيخ علي من جديد. بعد أن هزّاه تأكداً: كان ميتاً.

قبل مئة سنة وأكثر، في هذه المغارة عينها، اختبأ الأمير فخر الدين هارباً من وجه أحمد باشا الكوجك.

بلّل إبراهيم زناره في نبع الماء الخارج من عمق المغارة. بعد شهرين، في الصيف، ينزل مستوى الماء، ويتحول النبع بئراً. غسل الزنار من دم الشيخ علي ومسح وجهه. كانت رائحة الدم ما تزال فيه.

أفلت أحمد باشا الكوجك خيلاً قام بتعطيشها فوق الجبل.

صارت الخيل تحفر الأرض بسنابكها وتلطم التراب بأسنانها. حدّد النقاط وأمر بحفر الثقوب، فظهرت المياه. ذبح البهائم وأسال دمها في حُفر الماء. ذلك المساء أنتنت المياه في بئر المغارة. قُضي على فخر الدين.

غمس إبراهيم زناره في الماء مجدّداً. خلفه كان غنطوس آغا ينظر إلى الشلال وأضواء القناديل في القرية تحتهما.

شدّت سارة على يده. فكّر أنها كانت سبع سنوات فقط. ذلك كلّه متى حدث؟ سنة 1824 أم سنة 1825! معركة السمقانية، ولغم ودكّ جامع المختارة بالبارود، والحجارة ينقلها الأمير بشير على جِمال الشيخ زين الدين عبد الباقي (ابن عينبال)، عبر التلال والأودية، من المختارة حيث الدار والجامع الذي بناه الشيخ بشير جنبلاط عمود السماء، إلى بيت الدين حيث يبني الأمير سرايات للجنود قرب قصره. سبع سنوات فقط! وكأنها حياته كلّها!

كيف قَبِل عفو الأمير؟ كيف رجع إلى هذه الأرض والشيخ علي قضى نازفاً بين يديه، والشيخ بشير مات مشنوقاً؟

كيف رجع إلى هذا الجبل وصار خادماً عند الأمير؟ وعند ابن الأمير!

وضع وجهه على يد سارة. الدم ينتفض تحت الجلد. سرى دبيبُ نملٍ في تجاعيد وجهه. خمسة من أولاده في جيش الأمير خليل، وخمسة يبقون معه أينما ذهب، هو الشيخ إبراهيم خاطر جابر، وكيل الأمير خليل على نصف أراضي العرقوب.

أحسّ حركة خلفه. التفت. كان ذلك جمال الدين، بيده اليمنى ذات الأصابع الأربع من ولادته. سأله الشيخ إبراهيم ماذا يريد. هزّ جمال الدين رأسه وتراجع خارجاً إلى المصطبة.

وحده مع زوجته المريضة ظلَّ إبراهيم في قبو العقد الطويل، وقربه ستارة الجنفيص مكومة. (هذه الستارة خاطتها زوجته زهية قبل زمن بعيد ـ بإبرة وخيط حرير ـ من أكياس عديدة فردتها ومزقت درزها ثم أعادت تخييطها بعضها إلى بعض).

كان متعباً ويريد النوم. لكنه يريد أن يرى يوسف الطفل أولاً، ويريد سارة أن تفتح عينيها وتنظر إليه. هذا ما يريده الآن: أن تنظر إليه. . . منذ ترك وادي التيم قبل أيام وهو لا يفكر إلا في اللحظة التي سيبلغ بها النزلة قرب شجرات السرو. كان يراها تحت، واقفة والطفل بين يديها، تنظر إلى فوق، تنتظره كما فعلت دوماً، وحين تراه تركض كأنها طفلة وهو الأب العائد.

هذه المرة عرف قبل أن يلتفت على وقع الصوت أن القادم ليس جمال الدين.

خيَّم الظلّ فوقه وتطاول فوق بطن سارة وحتى الكوة العميقة في الحائط. استدار فرأى الطفل في القماط الكتان الأبيض ينظر إليه بعينين كبيرتين تلتمعان تحت رموش طويلة.

أخذه من الخالة حبوس وأعطاها ظهره. هو والطفل وسارة، ورائحة الوزال والأحصنة تأتي من الخارج. ثم سمع صوت نسب في الباب.

لم يلتفت. أحسّ بها تقترب. تركع على الأرض خلفه. ويدها تلمس كتفه. أحنى رأسه أيضاً. كان يرتجف. لمسة يدها، ونظرة الطفل. . . كان الريق يجف في زلعومه. ماذا لو ماتت سارة؟

فكّر أنه سيموت.

قال:

ـ سارة!

خرج الصوت كصرخة من قعر بئر في أعماق مغارة عتيقة وباردة. هدر الصوت في جوانب العقد، تحطم على الحيطان السميكة، ارتطم بالسقف المقوس العالي، وانهمر كشظايا خشب محترقة فوقهم. للحظة توقف العالم عن الحركة. ساد الصمت الكون. لم يبقَ إلا صدى صرخة إبراهيم تتردد في جوانب العقد القائم هنا من منتصف القرن الثامن عشر*. (حملوا العتبات الصخرية من البيدر البعيد على ظهور الرجال والجِمال).

سقط وجه إبراهيم. لم يعد يرى نظرة الطفل لأن غيمة أبحرت في عينيه. بقي الصوت يتكرر لوقتٍ ثم تلاشى واضمحل هو أيضاً.

بدا أنها النهاية.

---

* حين سأل أهل القرية خاطر جابر لماذا يبني وراء المقبرة أجابهم ضاحكاً: «معاشرة الأشباح تسلي أكثر من معاشرتكم».

ـ 4 ـ

لكن النهاية كانت ما تزال بعيدة.

فتحت سارة عينيها لحظة ونظرت إلى إبراهيم فأعادت الروح إليه. أمر أولاده أن يفرشوا بسطاً وحشايا على سرير الحديد* الكبير على المصطبة. قال:

ـ سنخرجها كي تتنفس. الهواء هنا كهواء المقبرة.

مدّوها على السرير، ووضعوا يوسف الصغير قربها. أرسل الشيخ إبراهيم ولده إلى دير دوريت ليجلب لها ليموناً وبرتقالاً. بدأت شقوق جلدها ترتوي تدريجياً وتنغلق ـ كشقوق الأرض ـ متلاشيةً. مسحتها نسب بالزيت الفاتر. سقاها الشيخ بيده النعناع الأخضر المغلي قطفته الخالة من جنب حائط البركة. وطلب الشيخ من جمال الدين أن يصعد مع نسب ويدعو المرضعة أم سليم للنزول «وإرضاع يوسف هنا».

---

* قد يكون السرير الوحيد من نوعه في الجبل آنذاك. حصل عليه خاطر جابر هديةً من الأمير ملحم شهاب. كان في ذلك الحين مزوّداً بمظلة من القماش الثمين الإيطالي مرفوعة على أربعة أعمدة من النحاس الأصفر. لم يعتد خاطر جابر النوم فوقه. ظل يسقط عنه في نصف الليل وهو يقاتل الأشباح في مناماته. في الختام أخرجه.

خلال الليل كان يدع أولاده يحملونها إلى الداخل. ثم ينتظر نسب حتى تضيء له القنديل، ويكون قد تناول لقمة العشاء* واغتسل، فيجلس قرب فرشة سارة، وفي ضوء الزيت الأصفر، يفتح «كتاب الحكمة» في حضنه، ويُصلّي.

أولاده ينامون في القبو جنب البيت. الأحصنة تهمهم بين حين وآخر، في الزريبة خلف القبو. أصوات الليل. الجنادب. الضفادع. الهواء في الكروم والتوت وصف أشجار السرو عند حائط المقبرة. وعواء الواوية في الوادي.

يبعد نظره عن الكلمات المكتوبة بخط يد جده، اسمه إبراهيم أيضاً، أشهر من نسخ «كتب الحكمة» في الجبل كلّه خلال القرن السابع عشر... ينظر عبر الباب الذي يتركه مفتوحاً من أجل أنفاس سارة المريضة... يرى النجوم لا تُحصى، كثيرة كرمل البحر، مزروعة في السماء، من فوق الدار إلى فوق الوادي وبعيداً حتى القاطع المقابل وقرى المعوش والبيري... ينام وهو جالس هكذا. ينتبه، لعواء ذئاب أو ديك يصيح قبيل الفجر بساعتين، يغلق الكتاب، يعيده إلى البيت القماشي بزواياه الجلدية المبرية من القِدم. يرفعه إلى شفتيه، يقبله. ثم يضعه تحت المخدة قرب رأس سارة.

يُكوّم نفسه قربها. في ضوء النجوم ينظر إلى القنديل الذي انطفأ. ينظر إلى عنكبوت تنسج بيتاً في الزاوية. (حتى في الليل تظل تنسج). ينظر إلى نسب والطفل الغائب في حضنها. ينظر إلى ظل أوراق شجرة على أرض المصطبة. ينظر إلى التجاعيد على ظاهر يده. ينظر إلى

* زيتون ولبنة، أو زيت وصعتر.

البقع البنية، النمش، والشامات السوداء التي تتكاثر كنجوم السماء.

يستدير نحو سارة. ينام. يفتح عينيه. ينعس مجدداً وهو ينظر إليها، فمها مفتوح لأن أنفها مغلق بالسوائل.

في المنام يرى أباه خاطر ينام على الأرض قرب السرير. يرى أمه متحلقة مع الجارات يتلمسن المظلة القماشية بحوافها المطرزة بالدانتيلا. يرى ريش الطيور على السطح وعلى المحدلة وعلى العشب وزهور البابونج. يفتح عينيه. سارة تهمهم في نومها. غداً عليه أن يغلي بابونجاً لها.

ينام ساعة ويفيق مع صياح الديك والضوء الذي أخذ يغزو السماء واهناً ويغطي على لمعان النجوم. فقدت النجوم ذلك النور الليلي المدهش، صارت بيضاء مطفأة، كأن الأرق الطويل قضى عليها. وحدها نجمة الصباح تشع.

يغطي سارة جيداً. ونسب ويوسف أيضاً. بناته الباقيات موزعات على قرى الجبل وحوران. ولا واحدة منهن زوجها من هذه القرية. كل صباح، حين يفتح عينيه، يخطرن على باله. هكذا، للحظة، يراهن صغيرات يلعبن بالتراب في الدار أو يطاردن الدجاجات عند إقبال المساء.

يشرب ماء من إبريق الفخار ثم يغسل رأسه ووجهه في الجرن الحجري عند زاوية المصطبة. تقفز ضفدعة خضراء صغيرة وتختفي في عتمة مدخل القبو القريب.

يجلس منتظراً استيقاظ أحدهم. أحد الأولاد، أو نسب، أو

يوسف، أو . . .

يصلّي أن تستيقظ سارة. ينام هكذا، في ندى الفجر، جالساً على حافة السرير الحديدي.

حين تلمسه تلك اليد على عنقه، يعلم أنها يدها.

ـ 5 ـ

في شهرٍ أو اثنين تدوَّرت سارة من جديد وبَرَقَ البؤبؤ كالنجم في عينها.

توقفت أم سليم عن نزول الطريق بين صفّ السّروات وجلول التوت أربع أو خمس مرات كل يوم، تكرج من فوق كالبرتقالة، وحين تعطيها نسب الطفل تبتسم... لم تعد أم سليم تنزل، لأن الحليب فار كالعسل من صدر سارة.

قالت لإبراهيم:

ـ عرفت أنه صبي من قبل أن يولد. قلت لنفسي يا سارة هذا يوسف وليس سارة*.

ضحك إبراهيم. لمس أذني يوسف. جاءت نسب وأخبرته أنه وُلد بأذنين معقوفتين. ضحك إبراهيم من جديد. رفرفت باشورة (فراشة) وحطّت على كتف عباءته السوداء. بدت كلطخة بيضاء خلَّفها عصفور أو حمامة.

---

* كان قد قال لها: «أول صبي نسميه يوسف، وأول بنت نسميها سارة». قالت: «لا، نسب». قال: «لا، الثانية نسب».

ذات ليلة وصل رسولٌ من قبل مشايخ وادي التيم. استقبله الشيخ في الداخل. سارة خرجت مع نسب وطفلها يوسف لتتمشى تحت أشجار التوت عند طرف دار البحص.

جلس الرسول يدخن. بعد لحظة أطفأ سيجارته مسرعاً.

قال الشيخ إبراهيم:

ـ أبي كان يلف سجائر، جدي كان يحب الأرجيلة. الأمير فخر الدين زرع شتلة تبغ في شباك قصره قبل أن تُزرع شتلة تبغ واحدة في اللاذقية. دخنْ! الباب مفتوح، دخنْ!

رفض الرسول، واعتذر مرة أخرى. كان يُدعى معز الدين الطويل، من قرية صغيرة قرب حاصبيا.

تكلم أخيراً:

ـ خبّأنا السلاح، والمشايخ في حوران الآن. إبراهيم باشا ملأ القلعة بالعساكر. لا بد من الانتظار حتى عودة المشايخ.

راقب الشيخ سارة تمشي في ضوء القمر تحت أشباح التوتات. من بين الجذوع رأى أضواء القناديل البعيدة، توج في القاطع المقابل. عدّها. كانت تسعة قناديل.

نادى على أولاده. كانوا ينتظرون. ظهروا قادمين من جهة القبو. مرة أخرى صافحوا الرسول كل واحد بدوره.

قال معز الدين:

ـ رأيت العزيز خير الله في راشيا مع الأمير خليل، سلَّم عليكم.

قال جمال الدين:

ـ الأمير؟

ضحكوا.

حين هدأ ضجيجهم سُمع بكاء يوسف. كان جائعاً.

ـ 6 ـ

قالت نسب:

ـ لم يكن نهماً هكذا مع أم سليم!

ضحكت سارة وهي تلقمه الثدي الآخر:

ـ الصبي يعرف أمّه ويحبّ أمّه!

قال إبراهيم:

ـ يوسف الثاني كان هكذا. أهلك بنت عمي. كانت تأكل عشر مرات في اليوم، لبنة وجبناً وبيضاً وحليباً، ولا تلحق عليه.

قالت نسب:

ـ رأيته في المنام البارحة. كان مع خير الله ومع بشير وأحمد لكنني لم أرَ قاسم.

قال إبراهيم:

ـ لم تحدث معارك منذ فترة. لا تخافي. وقاسم ليس ولداً.

تابعت نسب:

ـ لم أقل إني خائفة. في المنام رأيت جدي خاطر أيضاً. كان يقف تحت شربينة الدار يأكل عنقود عنب، حبّاته حمراء وبيضاء وسوداء. اقتربت منه فلم يعرفني. قلت أنا نسب يا جدي. ضحك وأعطاني عنباً لكنه لم يعرفني.

قام إبراهيم وخرج إلى المصطبة. الأولاد في الحقول، والمكان هادىء. لا صوت إلا ما يصدر عن الدجاجات أو الأغنام التي ترعى في الجلّ القريب. في السماء الزرقاء العالية تبعثرت بعض غيوم بيضاء رقيقة. كان الحرّ يفتّتها إلى قطعٍ صغيرة، والريح الخفيّة تدفعها إلى فوق القاطع المقابل. حطّ حسّونٌ في الدغل تحت شجرة التوت، صدح صوته عالياً يثقب الهواء. الخراف دارت برؤوسها. بادلها إبراهيم النظرة. صعد هواء رطب من الوادي. شمّ إبراهيم رائحة الماء وشتلات الخضار اليانعة.

استدار وألقى نظرة على القبو. كان حالك الظلمة بعد المدخل بمتر. أمامه تبعثرت أعواد الشعير والتبن. قفزت دجاجة حمراء تطارد شيئاً لم يره. حين نظر إلى داخل البيت ـ بالعتمة الخفيفة تحت سقفه العالي ـ رأى الرأسين كبيضتين كبيرتين معلقتين في الفضاء. التفتت سارة في اللحظة ذاتها. رأته واضحاً في ضوء الشمس. بدا عجوزاً كأنه أقدم من البيت، ومن الضوء ذاته. كان وجهه ممسوحاً بالتجاعيد، لكن أملس أيضاً، كأنه صخرة مصقولة بالوقت وبأثر العناصر. ابتسم لها. أصلحت المنديل على رأسها. هكذا، بلا ضرورة، كي تحرك يديها. الطفل كان نائماً على الطراحة أمام نسب.

انحدر في «الكروسة» نحو الوادي. العصا في يده يضرب بها الحجارة والوزّال بزهره الأصفر. التقى مكارياً من آل عزبي صاعداً مع حماره المحمل بالحطب. ذكّره وجه المكاري بيوم المغارة، والألم والحيرة على وجه غنطوس القهوجي*. تذكر أيضاً يوم رجوعه من

---

* في كتاب «الحركات في لبنان» الذي صدر في بيروت سنة 1951، عن مخطوطة تعود إلى القرن التاسع عشر، ورد هذا الخبر: «كان غنطوس القهوجي مخلصاً لآل جنبلاط لكنه بعد موت الشيخ علي وشنق الشيخ بشير وجور الأمير بشير =

حوران قبل سنوات، ورؤيته لبيت العقد خربةً، وأشجار التوت مقطوعة، وسرير الحديد مقلوباً على المصطبة بلا أعمدة مظلته ذات لون الذهب.

فكر في منام نسب. لماذا رأت أخوتها بلا قاسم؟ هل حدث لقاسم شيء؟ لكن جيش الأمير خليل مرابط قرب طرابلس الآن، ومنذ الفتنة الأخيرة وكل شيء هادىء. الشيخ شبلي العريان ما زال مختفياً في السويدا، وقرى فلسطين رجع إليها سكون الحقول المليئة بالفلاحين. هل يرسل خاطر أو يوسف الأول إلى طرابلس فيهدأ الهاجس الذي ينقر قلبه! (لكن نسب لم تخَفْ في المنام!).

جعل يصلّي، واستدار، وعاد يصعد «الكروسة»* إلى البيت. يريد الجلوس في الداخل، والنظر إلى وجه يوسف.

= على أصدقائهما يئس من أمره فلجأ إلى الأمير مستعطفاً... سأله الأمير: (كيف حال الشيخ علي يا غنطوس). قال: (فداك يا مولاي). قال الأمير: (احكِ الصحيح). قال: (لو لم يمت الشيخ علي لما رأيتني عندك). قال الأمير: (أو تخلص في خدمتي كما أخلصت في خدمته). قال: (أنا عبدك المخلص لك ما حييت). فعهد الأمير إليه بالوكالة على الشوف الحيتي».

* طريق ترابية.

ـ 7 ـ

(موت سارة)

بعد خمس سنوات أنجبت سارة ابنها الثاني. كانت المطرة الأولى قد هطلت قبل يوم. ورائحة التراب والتبن الرطب وسلح الدجاج المبلّل ما تزال تعبق داخل العقد.

إبراهيم سمّى الطفل، نور الدين، من أجلها. فرحت وابتسمت رغم الآلام التي شوهت ملامح وجهها. كان نور الدين اسم جدّها الذي ربّاها بعد موت أبيها خلال حفر «قناة المير»*.

حملت نسب الطفل إليها. كان شبيه يوسف يوم ولد، ولكن بوبرٍ أقل على رأسه، وبلا عقفة الأذنين. قبّلته، والتفتت نحو الستارة. رأت يوسف يطلّ برأسه منها. تأملته لحظة، كأنها ترى عينيها الواسعتين تنظران إليها من وجهه! ثم أغمضت عينيها.

لم يدفنها إبراهيم في المقبرة، حيث دفن من قبل بنت عمه،

* قناة حفرها الأمير بشير بين 1812 و 1815، لجرّ المياه من نبع الصفا البعيد إلى قصره الجديد في بيت الدين. ويُقال إن «أخوت شانيه»، وهو رجل غريب الأطوار من قرية شانيه، اقترح على الأمير خطة حفرها قائلاً: «تجمع رعاياك، كل رجال القرى، وتُلزم كل واحد أن يحفر طول قامته فقط، مساحة قبره».

ووالده، وابنه قاسم. دفنها في الجلّ، تحت شجرات التوت، حيث أحبّت الجلوس في المسايا، لشرب فنجان زهورات أو نعناع، ملتفةً بعباءته السوداء، ولا شيء يظهر منها في الليل غير رأسها الملفوف بالمنديل الثلجي الأبيض.

كان يتأملها من حيث يتمدد على سرير الحديد على المصطبة. أحياناً وحده، أحياناً أحد الأولاد معه، أو زائر ليل، أو رسول مسرع... يسمع الكلمات وهو شاردٌ، ينظر إلى البخار يتصاعد كالغيم، ورأسها يسبح داخله، وحين ترفع الفنجان إلى شفتيها يخيل إليه أن الورق الأخضر فوقها جمد عن الحركة. ذلك الورق الأخضر الطري، يعتم لونه في الليل، يتأمله الآن بعد موتها، يتساقط كالفراشات فوق رِخامة قبرها.

(كيف مات حمزة ابو سارة)

حكى إبراهيم ليوسف عن جدّه لأمه حمزة. قال إنه كان مليئاً بالقوّة الخيّرة.

- تعرف القناة التي نسقي منها، قناة المير...

في نقطة بين بيت الدين وكفرنبرخ، عند سفح تلّة من جلول التوت، اعترضت طريق الحفر صخرة مغروزة عميقاً في التراب. كان الوقت عصراً، ورذاذ الخريف يهمي. قالوا نقتلعها غداً، الوقت تأخر، ولن نلحق. قال حمزة لا، ننتهي منها اليوم، وفي الصباح نبدأ يومنا بحفرٍ سهلٍ.

حفروا حولها بالمعاول والبلطات. اقتلعوها قبيل هبوط المساء. كان المطر قد أخذ يتساقط في خيوط متصلة، ثم متقطعة، ثم متصلة. قالوا ندحرجها إلى تحت. قال حمزة لا، سوف تهدم حيطان الدكّ وتفسد الجلول والأرزاق. قالوا نتركها إلى الصباح والصباح رباح.

قال حمزة بن نور الدين لا. قال أنزل إلى الجلّ وأتلقاها على كتفيّ.

نزل معه اثنان، أحدهما ابن الشيخ سعيد المصفي. الباقون دحرجوا الصخرة حتى الحافة. الاثنان عن جانبيه قالا معاً: «ثقيلة». كانت الكلمة أثقل من الصخرة. قال لا، اصبرا معي لحظة. لم يصبر غيره. في غمضة عين انتهى كل شيء.

الواقفون فوق، قرب طرف القناة التي امتلأت بمياه الخريف، تجمدوا كالحجارة أمام المنظر. مات حمزة بن نور الدين مسحوقاً تحت الصخرة. ثقلها الهائل أغرق جسمه في قلب الأرض. كأنّه دفن نفسه.

ـ 8 ـ

(حُزن إبراهيم)

ماتت سارة فتوقف إبراهيم عن زيارة حقوله أو ركوب حصانه إلى بيت الدين.

في ليالي الجمعة، حين يفرغ البيت من أهله*، يجلس على طراحة، أو على حافة سرير الحديد، ويشرد داخل رأسه. يتذكر أشياء قديمة: كيف سقط أبوه خاطر مرة متعثراً بأصواف خرافٍ منشورة في الشمس، فخبط برأسه حافة السرير، وصار يشتم ويلعن «الهدايا الأميرية»! كيف حوّل العمر والسنّ المتقدم جدّه لأمه إلى عجوز خَرِفٍ صاحب أطوار غريبة يخرج في الليل ليتفقد الدجاجات هل تبيض خلال نومها، أو يصعد إلى السطح على أغصان التينة ويدحرج المحدلة حتى الزاوية لئلا تسقط عليه ـ عبر سطح العقد! ـ في الليل وتقتله، أو يُخرج الصكوك والعقود والرسائل القديمة الحائلة اللون ذات الرائحة العفنة القوية من الصندوق الدمشقي الكبير ويضعها في

* تمرّ جماعة من القرويات عند المساء ليأخذن نسب ويوسف ونور الدين معهن إلى «الخلوة» عند كتف الوادي حيث القراءة والصلاة. هو يقول إنه سيلحق بهن. لكنه يقف تحت أشجار التوت، ويراقبهن في الليل، يبتعدن فوق خط التلال، كأشباح سوداء برؤوس بيضاء، حتى لا يعود يرى شيئاً.

كيس جنفيص ويحملها عبر جلول التوت والتفاح والكرز والدراق إلى الصخرة ـ البلاطة فوق البيدر كي ينشرها هناك في الشمس لتتنفس! كيف قضى البَرَد بحبّاته الأكبر من بيوض الفرّي على نصف قطعانه في سنة ولادة «حسن»* وكيف قالت بنت من بناته كان علينا أن نسميه «سيىء»! أو لا يتذكر شيئاً، ويبقى ساهياً هكذا، وخرير القناة البعيدة يبلغ أذنيه. (يسقون في الليل أيضاً، كي يصل «دور المياه» إلى الجميع).

ينعس ويلتف ببطانية ويفكر في الأولاد. ثم ينساهم ويرى سارة تمشي إليه ملتفةً بعباءته التي تحبّ ثقلها (هكذا كانت تقول له) على جسمها. ينتبه من نعاسه فتتبدد الرؤيا. يرجع وحده قبالة دار البحص وأشجار التوت بأغصانها المتمايلة كالأشباح. يعدّ القناديل في القاطع المقابل. ويقوم وينزل حتى أول «الكروسة» وينظر إلى تحت. يرى نقطة صفراء عميقة، بعد شجرات الجوز. هذا عمر وصل في الريّ إلى جلّ اللوبياء العريضة. في البعيد البعيد، تظهر البيوت عند طرف دير القمر.

يدخل البيت ويتمدد على فرشته.

---

* قد تكون سنة 1809 ميلادية. إذ ذكر الشيخ الشمّاس أنطونيوس أبي خطار العينطوريني (1757 ـ 1821) في مخطوطته الثمينة «مختصر تاريخ الجبل اللبناني» ـ التي نشرتها الرهبنة المارونية، في بيروت، سنة 1953، تحت عنوان «مختصر تاريخ لبنان» ـ في أحداث تلك السنة، التالي: «وفي 1809 (ألف وثمانمائة وتسعة) في 27 آذار صارت ضربة قوية من قرية صليما في المتن ووسط بلاد كسروان لنهر إبراهيم. نزل بردٌ بكثرة في الليل. استقام مقدار ساعتين وكانت ساعة مهولة. خشي على كثيرين إن الله سمح في انهدام العالم. لكونه أعدم الزروع. ونثر أوراق الأشجار الجوي والبري. وأذاب العشب. وقتل جملة طيور برية كبار وصغار. وأصبح البرد في بعض محلات مقدار ذراعين وقيل من أناس صادقين أن في وقت نزوله شاهدوا البرد قريب لبيض النعام».

ـ 9 ـ

(أول جثة رآها يوسف)

قُتل قاسم ـ رابع الصبيان الذين أنجبتهم زهية حسين جابر لابن عمها إبراهيم ـ في منتصف 1837، في الصيف أو الخريف، بعد أربع أو خمس سنوات قصيرة من ذلك المنام الذي رأته أخته الكبرى نسب. وفي الوقت ذاته تقريباً من السنة: طقس مشمس نهاراً، مع رطوبةٍ نديّة في الليل، وقليلٍ من الهواء البارد.

جاء مقتله قُبيل حمل سارة بنور الدين أو خلال ذلك.

مات قاسم ببلطة درزية في صدره. (عَرِفَ، من صرخة صاحب البلطة لرفاقه، أنّه من حوران. كان الرجل يهتف لرفاقه كي يُمسِكوا بالجِمال. عرفه من طريقة لفظه لحرف «الجيم». تردّد لحظة قبل أن يفقس بارودته في وجهه. في تلك اللحظة من التردد انغرزت البلطة في أضلاعه ومزقت لحم قلبه). كان قد وقع، مع عشرين فارساً من جيش الأمير خليل*، في كمينٍ، عند هبوط الليل، في طريق عودتهم إلى معسكر الأمير بمؤنٍ من زحلة. في الصباح، حين لم يرجعوا، أرسل الأمير فرقة استقصاء.

---

* كان تعداد جيشه يقارب الأربعة آلاف رجلٍ. معظمهم نصارى.

وجدوا الجثث مبعثرة في السهل، بين الصخور والأشواك. أحد الأحصنة كان مصاباً في بطنه والغربان تتقافز على المصارين الخارجة منه. لم يكن ميتاً. كان يلطم الغربان بحوافره، وهو يحتضر، والغربان تطير متجنبةً ركلاته، ثم تحطّ فوق المصارين المندلقة، من جديد. أطلق خير الله إبراهيم جابر بارودته في رأس الحصان.

طارت الغربان بصوتها الحاد المشؤوم. حلقت دائرةً.

ـ قَغق... قعق... قعق...

حملوا قاسم عبر السهل. صعدوا جبل الباروك ونزلوا. في غابات الأرز ارتاحوا ساعة ثم تابعوا الطريق. في بريّة عين وزين فَقَسوا بواريدهم (بشير أولاً، ثم أحمد، ثم يوسف الثاني، ثم خير الله) على السماء وأسراب الغربان التي تتبعهم. استمر قاسم يتفسخ رغم أكياس الجنفيص المبلّلة التي لفّوه بها.

مدّوا الجثة على سرير الحديد لغسلها. يوسف وقف تحت شجرات التوت ينظر. رأى الفوطة البيضاء المبلّلة تمرّ على صدر الجثة. كان هذا قاسم، الأخ الطويل الذي يأتي وحده، أو مع أخوته، مرةً كل شهر أو شهرين، ويعطيه الملبس* باللونين الأزرق والأحمر، ويحمله عالياً كي يلمس ـ هو، يوسف الثالث الصغير ـ حدوة الحصان الصدئة المغروزة في العتبة الحجرية فوق باب البيت. حين ينزله عن

* هذا الصنف من الحلوى، اللوز المُلبّس بعجينة سكّرية ملونة، عُرف في الجبل من زمنٍ قديم، كما ولعب دوراً خفياً في تاريخه. يكفي أن نعلم مثلاً أنه تسبّب بموت الأمير بشير الأول في سنة 1707 م، وهو أول الأمراء الشهابيين على الجبل. وقد تمّ ذلك بواسطة الأمير حيدر وخادمه الداهية مخايل غبريل الذي أعدّ من هذا الملبس لونين، فسمّم الأزرق، وترك الأحمر بلا سم، وعلى مائدة الأمير حيدر قدّم للأمير بشير الحبّات الزرقاء.

كتفيه يطلب يوسف أن يلمس البارودة، وشيش الدكّ، وكيس البارود، وكيس الخردق، والقدّاحة، والفتيل، لكن قاسم لا يسمح له إلا بلمس بيت الخنجر الجلدي. هذا قاسم، والفوطة ترتفع عنه ملطخةً بالأسود والأصفر والأحمر، ثم تنزل في سطل الحديد المليء بالماء، وتخرج.

بينما شعره يُغسل بالصابون ينزلق المكعب الأخضر ـ الأصفر من اليد المرتجفة ويتدحرج على تراب الدار.

يريد يوسف أن يتقدم، وأن يلتقط مكعب الصابون، لكنه ثابت كالشجرة في الأرض.

ـ 10 ـ

ترك جمال الدين البيت والتحق بالثوار في وادي التيم. كانت المعارك تتنقل بين الوادي واللجاة وحتى جبل حوران. طلب إبراهيم باشا من الأمير بشير تزويده بالجنود. أرسل الأمير ابنه خليل مع جيشه لمحاربة العُصاة.

قال إبراهيم ليوسف:

ـ تعال.

أجلسه قربه على الطراحة، وجعل يعلّمه الكتابة. وضع القصبة المدبّبة الرأس بين أصابعه الثلاث، ومرّنه على تغطيس رأسها في دواة الحبر الحجرية. كان يوسف يغمسها بقوّة فيعلق رأس القصبة بشرنقة الحرير في قعر الدواة. قال إبراهيم:

ـ لا تحركها في الدواة، أنزلها وأخرجها فقط...

بعد القصبة جلب ريشة النيْص*. استمر يوسف يثقب الورقة السمراء (رأس الريشة حاد مدبب)، حتى أمسك إبراهيم بيده. قال له:

ـ لا تفكر، لا تشدّ يدك، اكتبْ!

تعلَّم يوسف كيف يكتب اسمه. تعلَّم كيف يكتب الأرقام. تعلَّم

---

* من فصيلة القنفذ.

كيف يكتب «الله جلَّ جلاله». تعلَّم كيف يكتب «إبراهيم»، بالألف الطويلة كشجرة في الوسط. تعلَّم كيف يكتب «سارة»، بالراء التي تكرج كالمياه من «هارب قناة المير»، وبالتاء المربوطة التي نلفظها كالألف بعد راء إبراهيم. تعلَّم كيف يكتب «نور الدين»، وأحسّ حين كتب اسم أخيه الصغير أنه يسمع صوت بكائه خارجاً من الحروف. تعلَّم كيف يكتب «نَسب» وانتبه إلى السين في اسمها وقارَنه بالسين في اسم سارة، والسين الأخرى في اسم قاسم، وسين اسمه هو: يوسف.

تعلَّم كيف يكتب «يوسف إبراهيم خاطر جابر»، وحين أخبره أبوه إبراهيم عن جده خاطر الذي كان رجلاً شهيراً وداهية في زمانه، سأله هل يكتب اسم خاطر هكذا أيضاً، خ ا طـ ر، حين يريد كتابة اسم أخيه خاطر، وليس جدّه خاطر!

وحين قال إبراهيم صحيح، سأله يوسف كيف؟

وإبراهيم الشيخ أخبر ابنه يوسف الصغير عن الحروف والأسماء، ثم حكى له عن الأرقام وكيف أنه هو «يوسف الثالث»، وقبل زمن بعيد بعيد كان هناك يوسف آخر بلا رقم بعد اسمه، «لا، ليس يوسف الأول الذي وُلد قبلك وقبل يوسف الثاني، بل يوسف آخر قديم.»، وحين سأله يوسف من هذا، أخبره الشيخ إبراهيم أنه جد العائلة: يوسف علي جابر.

وعلَّم يوسف أن يكتب اسمه القديم.

(يوسف علي جابر)

هو جدّ العائلة الأكبر. لا نعرف أهله، لكننا نعرف أنه عاش في أواخر القرن العاشر للميلاد وأوائل القرن الحادي عشر، زمن إغلاق

باب الدعوة الدرزية.

كان من أهل الشيعة أيام كانت كفربُرك قرية شيعية بكاملها إلا ثلاثة أو أربعة بيوت موارنة. كان راعي خراف. يعيش من حليبها وصوفها. وحين يذبح كبشاً يشوي ثلثيه أمام «جامع راشيا» ويدعو جميع العابرين إلى الطعام. (في أغلب الظن أن الجامع في كفربُرك قد سُمِي هكذا، لعلاقةٍ ما، بين بانيه وبين بلدة راشيا، ربما كان رجلاً فاضلاً من تلك الناحية. أو ربما كان بين أهالي كفربُرك الأوائل من نزح إليها قادماً من هناك ـ هذه كلّها تكهنات ليس أكثر ـ وقد باد هذا الجامع ولم يبقَ منه غير عتبة حجرية عليها نقش الاسم وآية قرآنية، وهي العتبة فوق النافذة الشرقية الكبيرة في دار الأمير الصيفية في كفربُرك. وقد شُوهد عقدٌ حجري مهدم شكّلت هذه العتبة جزءاً منه، في أول القرن الثالث عشر للميلاد، ذكره مطران عكا والمؤرخ الصليبي، يعقوب، في الكتاب الذي ألّفه بين سنة 1210 و 1220 ميلادية).

بعد وصول الدعاة إلى وادي التيم والجبل اللبناني بفترة قصيرة، دخل يوسف علي جابر وعائلته في باب الدعوة. وبعد سنوات معدودة من مقتل نشتكين الدرزي، ترك يوسف علي جابر مهمة رعي الخراف لأولاده، وبنى خلوة في تلال الكروم المطلّة على عين وزين، وانصرف لشؤون العبادة.

هناك، في خلوته إلى ربّه، علّم نفسه الكتابة وصار ناسخاً للكتب المقدسة.

- 11 -

آخر الشتاء، بينما الثلوج تذوب، والنهر الشتوي يتدفق، ساعدوا يوسف الأول على بناء غرفة لصق القبو، إلى جهة بستان الكرز.

أول الربيع، بينما الأشجار تُبرعم، والعشب الأخضر يغطي تراب الجلول، تزوج يوسف الأول بنتاً من آل السعدي من دير القمر. (هذه عائلة أخواله*. الزيجة دبَّرتها الخالة).

وبينما ورق التوت يُفرم، والدود الأزرق الشره يسعى قاضماً وطاحناً في أطباق التبن والقش والعيدان، زرع يوسف الأول بذرته في بطن عروسه.

بناء البيت ـ الغرفة، ثم الانهماك في التحضير لموسم القزّ، أبعدا عن إبراهيم بعض أحزانه. تلهى بالشغل، كأنّ الكون يعزّيه دون أن يخبره.

لكنه في فرح ابنه البكر لم يفرح. ابتسم وضحك أمام الناس، لكنه عبس حين اختلى إلى نفسه. مضى إلى الحقول، ودار حول

---

* أخواله لزوجة أبيه سارة.

البيدر، وعَبَر وسط زواريب القرية الفارغة من ناسها (كانوا كلّهم في داره)، وصعد في الطلعة حتى «دار المير»، وانعطف يميناً قرب جلّ الصبير والأطلال الحجرية القديمة، ودخل إلى المقبرة. وقف لحظة أمام قبر أبيه، ولحظة أمام قبر ابنه، ثم خرج من الجهة البعيدة، وعَبَر بين البلوطات، وانحدر نحو «الرزقات» كأنه ينحدر في منام. صوت الفرح كان يأتيه من بعيد، كأنه من سنوات بعيدة، كأنه من الذاكرة.

تذكر للحظة قميص قاسم المغمس في الدم ثم طرد الصورة بعيداً كأنه يكشح ذبابة تحوم قرب وجهه.

جلس على صخرة في ظلّ جوزة، نظر إلى خنفسة حمراء منقّطة بالأسود تسعى بين حبّات التراب الجافة، واستعاد أيامه الأولى مع سارة.

(يوسف)

من بعيد لحق يوسف الصغير بأبيه.

رآه في البدء حين صعد حائط الجلّ قرب الغرفة الجديدة. تخلص من الإبريق الذي يحمله (كان يوزع الماء على الحاضرين) وأسرع خلفه. صار يتخفّى خلف أشجار الفاكهة، وحين رأى أن أباه الشيخ يتوجه نحو بلاطة البيدر، أخذ طريقاً وعرة مختصرة فسبقه إلى هناك وتسلق الجوزة الكبيرة العالية. كانت الجوزة تظلّل نصف البيدر. من فوق رأى أباه بالعمامة البيضاء يمشي وراء العليق، ويتجنب البيدر، ماضياً من وراء الخلوة القديمة المهجورة نحو الدرب المفضية إلى بيوت القرية. نزل الجوزة مسرعاً، كاد غصن من أغصانها أن ينكسر تحته، وقفز، وتجنب أن يسقط على جذورها الخارجة من التراب

والصخر لئلا يؤذي نفسه، ثم قفز واقفاً في لمح البصر، وركض.

كان الصمت في أزقة القرية كاملاً. سمع بكاء طفل كأنه يخرج من تحت الأرض ثم رجع الصمت. مشى في ظلال الحيطان، والشمس تغمر الأزقة بضوء أبيض قوي. لم يكن يسمع إلا نعيق الغربان. وحين تجاوز بيوت آل عَزْبي تعالى صوت الفرح قادماً من بعد «دار المير»، من تحت، حيث دارهم.

رأى والده يختفي خلف الصُبَّيرات. سمع عصاه تطرطق على الأحجار وحوافي الجلول. رأى عباءته السوداء تجرجر على التراب ولا يرفعها. وفكر يوسف أن أباه يمشي كما يمشي هو في مناماته.

بين شواهد القبور كاد الأب أن يلمحه. تسارع نبض قلبه الصغير، أراد أن يخرج من وراء الشاهد، وأن يلقي التحية على أبيه ويقترب منه ويقف معه. لكنه حين استرق النظر من جديد رأى أباه يبتعد غير منتبهٍ ثم يختفي في ظلال البلوطات.

انتظر قليلاً ثم مشى محاذراً أن يدوس على الأزهار اليابسة والورق المتعفن والقندول الشائك.

من فوق، منبطحاً على بطنه، رأى أباه في «الرزقات» في الأسفل، جالساً على صخرة يبكي، وورق الجوز يرتعش فوق رأسه.

ـ 12 ـ

(جمال الدين)

في أواخر 1834 فرض إبراهيم باشا الخدمة الإجبارية على أبناء الدروز*. طلب واحداً من كل ثلاثة أخوة. الأمير بشير الذي أشرف على جمع المطلوبين استثنى عائلة الشيخ إبراهيم، لأنه وكيل ابنه في العرقوب، ولأن خمسةَ من أولاده في جيش الأمير خليل.

اشترط الدروز على إبراهيم باشا ألا يخدموا في جيشه إلا بفرقة درزية واحدة معزولة عن بقية الجيش. قَبِل شرطهم. كان بحاجة إلى جنود.

بعد سنة واحدة طلب إبراهيم باشا دفعة ثانية من أبناء الدروز. جُمعوا في ساحة بيت الدين. كُتبت الأسماء على أوراق صغيرة. طُويت ووضعت في إناء فخاري عميق. ثم سُحب نصف الوريقات. هكذا، بالقُرعة، فرغت نصف البيوت من رجالها. (هذه المرة جنَّد قائد الجيش المصري واحداً من كل أخوين).

* كان الدروز يُعفَون من الخدمة العسكرية النظامية في الزمن العثماني.

فيِ هذه الجولة أيضاً استُثنيت عائلة الشيخ إبراهيم. لكنه، بصفته وكيلاً (خولي) عند الأمير خليل، كان مضطراً لحضور سحب الأوراق.

بعد سنتين أو ثلاث، حين ترك جمال الدين البيت، ذاهباً مع الشيخ حسن جنبلاط* إلى وادي التيم، ثم إلى اللجاة، تذكر الشيخ إبراهيم مرةً أخرى ذلك اليوم الخريفي الماطر، حين تعلقت مئات العيون بيدٍ تنزل في إناءٍ فخاري عميق لتخرج بتلك الوريقات المطوية المربعة.

وتذكّر الوجوه: الذين تُليت أسماؤهم، والذين نجوا.

وتذّكر الوحل على الصبابيط والعباءات، وحلقة الجنود بالبواريد اللامعة، وحيطان القصر تتلون بالأصفر بسبب المطر.

بعد رحيل جمال الدين صار يراه في المنامات، راكضاً بين شجرٍ كثيرٍ، بطمٍ وسنديان وقطلب وتوتٍ وزيتون، حافي القدمين، والغربان تطارده، مَع صوت الطلقات، ورائحة البارود والأرض وجسمه.

ظلت هذه المنامات تُقلق ليله حتى الصيف**.

كانت نسب في الداخل، مع نور الدين، تنام قيلولتها كالعادة. كان يوسف الثالث الصغير، جالساً على سرير الحديد، يفرط كوز رمانٍ حلوٍ. كانت الشمس تغيب. سمع إبراهيم صهيل أحصنة. رغم سمعه الذي بات ضعيفاً في الفترة الأخيرة، سمع الصهيل.

رفع رأسه فرأى أولاده الأربعة وفي وجوههم الخبر. ترجلوا عن الأحصنة: يوسف الثاني، خير الله، بشير، وأحمد. تقدموا مع

* هذا ابن الشيخ علي جنبلاط الذي مات نازفاً في مغارة نيحا.

** صيف 1838.

البواريد، ثم طرحوا على سرير الحديد، أمام عينيّ الشيخ، قميص جمال الدين مبقَّعاً بالدم المتخثّر.

سألهم أين دفنوه.

قالوا حيث سقط، تحت شبعا، عند سفح جبل الشيخ.

ـ وعلَّمتم القبر؟

قالوا نعم.

ـ 13 ـ

رُزق يوسف الأول*، من زوجته سُهيلة، توأمين. أراد تسمية الأول إبراهيم، لكنه لم يعرف ماذا يُسمّي الثاني. سأل أباه الشيخ. قال إبراهيم:

ـ نُسمّي الأول قاسم، والثاني جمال الدين.

(الرسم على التراب)

قُبيل المساء، وقت رجوع القطعان من الوادي، قعد يوسف ابن السبع سنوات قرب أبيه، يتفرجان على نور الدين ابن السنتين، يركض في دار البحص، ويقع، وينهض باكياً، ثم يمسح دموعه، ويركض من جديد.

ذات لحظة، نزل يوسف عن سرير الحديد، وبدأ يخطّ بقصبة،

* لا بد أن نلاحظ سمتين غريبتين في عائلة الشيخ إبراهيم: الأولى، الميل عن الزواج المبكر وهو الزواج الشائع آنذاك. (لم يتزوج بِكرُه يوسف الأول إلا في آخر الثلاثين!). ربما كان السبب تقليداً عائلياً تتوارثه الأجيال. فخاطر، أبو إبراهيم، تزوج متأخراً أيضاً، وكذلك أخوه حسين، وأبوهما إبراهيم الجد. أو ربما كان السبب حالة الحرب والصراع المتواصل في الجبل خلال تلك الفترة. (وهذا غير مرجح عموماً فيوسف الأول ـ كما رأينا ـ تزوج بعد أشهر معدودة من مقتل أخيه!) أما السمة الثانية فنجاة أطفال هذه العائلة من الموت. (ثلث المواليد كانوا يمرضون ويقضون سريعاً آنذاك!).

رسماً على بقعة تراب قريبة.

انتبهت نسب إلى الرسم: بقرة وثلاثة خراف.

قالت:

ـ كأنها ستحكي! كيف فعلت هذا؟

اقترب الشيخ إبراهيم لينظر. أدهشته الخطوط. رأى البقرة المرسومة كأنها بقرة حقيقية، ولم يتوقف بنظراته عند الخراف. (بقعة التراب عند طرفها، حيث رسم الخراف، مليئة بتحجرات الجذور والحصى الدقيق).

قال ليوسف:

ـ هل تقدر أن ترسم النّاس؟ والوجوه؟

رسم يوسف، في ضوء النهار الأخير، وجه إبراهيم.

قال إبراهيم:

ـ وسارة؟

تعالى ثغاء الخراف ورنين الأجراس الصاعد متقطعاً من الوادي. حلَّ المساء.

(الليل)

صار يوسف يستيقظ في الليل ويخرج إلى المصطبة. يتفرج على النجوم العالية ويجرب عدَّها. أو ينظر إلى شجرات التوت تتمايل في النسيم الطالع من الوادي. أو يراقب بومة تنظر إليه من فوق التينة بعينيها الكبيرتين. لا تنعق، فقط تبادله النظرات.

يُخرج فراشه محاذراً إيقاظ النيام. يمدّه على سرير الحديد. ينظر إلى بحص الدار، أبيض كالثلج في ضوء القمر.

مع بدء الشتاء، وموسم الثلوج، لم يعد قادراً على فتح الباب والخروج.

بات حين توقظه الأصوات في رأسه ليلاً، يقعد وسط فرشته ملتفّاً بالبطانية. يتذكر ما رآه في النهار، ويتخيل ما سيراه عند مجيء الصباح.

بين وقتٍ وآخر، يتناهى إليه، من بعيد، من وراء حيطان البيت والقبو والغرفة الجديدة، صوت بكاء التوأمين.

ـ 14 ـ

أيقظته حبسة البول وصأصأة الفئران وراء بلاطات التبن*. منذ فترة ينام هنا، في القبو، جنب خاطر وعمر وحسن. وكل صباح يسرع إلى فوق، إلى البيت، ليرى هل تحسنت صحة الشيخ أبيه.

تبوّل قرب قن الدجاج. لسعه هواء الفجر. حين استدار رأى الضباب يفور كالحليب متصاعداً من الوادي، ثم يتبدد على السفوح الخضراء. أفلت المداس من قدمه اليمنى وهو يصعد الدرجة الحجرية إلى المصطبة قدام البيت. تبللت قدمه بالندى المثلج.

وجد أباه منقلباً نحو الجدار، والبطانية فوقه تهتز عند سعاله. لم يرَ نسب ولا نور الدين. فكر أنها وراء البيت تشعل ناراً وتضع عليها لَكَنْ الحديد الأسود الكبير.

أخذ كنزة، وغسل وجهه في الجرن الحجري، ثم لبسها.

قطع الدار ماشياً ببطء على البحص، وسط صياح الديكة وقوقأة الدجاجات، في القن الموصد. خَلَّف الدار وضباب الوادي وراءه،

* التبن المحزوم ـ بحبالٍ تُفتل من عشبة النِّيل ـ في مكعبات، تُسمى «بلاطات»، وأحياناً «عتبات». يُحزم هكذا ليسهل نقله وتخزينه بعيداً عن المطر.

وصعد الطلعة نحو «دار المير».

أمام البوابة الضخمة، المنحوتة من جذع جوزة عملاقة، في قطعة واحدة، وقف كالعادة يتأمل النقش. الحروف مرسومة كأشكال حيّة. يحسب وهو ينظر إليها أنها تتنفس. ثلاث كلمات. الأولى في الأعلى.

هو
الخلاّق الباقي

القاف في «الخلاّق» تحضن في بطنها كلمة «الباقي» كلّها. الهاء في «هو» مدوّرة، تشبه السلحفاة، يقترب ويضمّها في قبضته ويغمض عينيه. يسمع الخشب، المبلّل بالطلّ، على باطن كفّه.

يُخربش الدغل خلفه. يلتفت خائفاً. يرى ثعباناً بحلقات خضراء كالعشب، رأسه صفراء كالذهب. يجمده المنظر حيث هو.

يخرج الثعبان من الدغل. الحلقات الخضراء تزين جسمه الطويل، وحبّات الوحل تلتصق به. ينظر يوسف إلى لمعة رأسه الذهبية لكنه لا ينظر إلى عينيه.

يكاد الثعبان في زحفه أن يلمس قدم يوسف. يبقى يوسف بلا حركة. الفحيح يبلغ أذنيه واطئاً. لكن هذا كل ما يسمعه: فحيح الثعبان في صمت كامل.

يختفي الثعبان في جحور الفئران عند طرف الجلّ. يقف يوسف ويركض. لا يتوقف إلا بعد أن يبلغ المصطبة. في الطريق كلّها، من أول النزلة حتى الدار، لا يرى شيئاً، ولا يسمع إلا الهواء يصفر في رأسه. السروات، السماء، الحيطان البيضاء، العصافير، الدجاجات الحمراء التي خرجت من القنّ، القطط البيضاء والسوداء الصغيرة في

الفرن القديم تحت التوتات. . . لا يرى شيئاً. وحين يبلغ المصطبة يقف في الباب، ينظر إلى أبيه ينقلب صوبه، ولا يصدق أنه قد نجا.

يفتح إبراهيم عينيه. يرى ابنه كالشبح في الباب، مؤطراً بضوء الصباح. يقول:

ـ تعال.

يقترب يوسف ويجلس على الفرشة. يبتسم إبراهيم:

ـ ماذا رأيت في الكابوس؟

يقول يوسف:

ـ لم يكن كابوساً.

ثم يثبّت عينيه في الأرض.

بعد قليل يحكي. حين ينتهي يخرج به إبراهيم إلى المصطبة. يتلمس أطرافه وكل جسمه. يقول يوسف طوال الوقت:

ـ لم يلمسني. لم يلمسني.

يظهر حسن، ثم خاطر، خارجين من القبو.

يقول إبراهيم:

ـ يوسف رأى ثعبان جدّكما.

يسألان معاً:

ـ أين؟ متى؟

يخبرهما الأب. يختفيان ثم يظهران، وخلفهما عمر، والبواريد في أيديهم. يدكّونها وهم يركضون في الطلعة إلى «دار المير».

يتكيء الأب على كتف يوسف. يقول:

ـ لن يجدوه.

من وراء البيت يأتي صوت نسب ونور الدين.

(ثعبان خاطر جابر)

بعد أن بنى الجد خاطر هذا البيت، هنا، بعد مقبرة كفربُرك، عاش فيه سنة واحدة، ثم هجره ثلاث سنوات، قبل أن يرجع من جديد.

هجره في ختام السنة الأولى بعد أن ظهر ثعبانٌ بحلقات خضراء ورأس صفراء من فجوة في العقد. حاول الجد قتله. أطلق عليه البارودة. ورمى عليه المحدلة. لم يمت الثعبان. كيف نجا، لا أحد يعلم. كان سريعاً كالخيال. وحين يزحف على التراب، يترك خطاً خلفه. ذات صباح، بينما الجدّ يزيح الستارة المربّعة الصغيرة عن «كوّة القهوة»*، رآه قابعاً في الداخل، ملتفاً على نفسه كالحبل، بعينين هائلتين.

بعد هذه الحادثة هجر الجد خاطر البيت. تحول العقد إلى خربة. دخلت العناكب من حواف النافذة ونسجت بيوتها في الزوايا. تشققت أرضه الطين بعد أن يبست، وخرجت منها الفئران. المطر ثم الشمس ثم المطر أفسدا خشب البوابة والشباك.

في تلك السنوات الثلاث، عاش خاطر في الجهة الأخرى في كفربُرك. وطوال ثلاث سنوات طارده الثعبان. لم يغمض عينيه في الليل مرة إلا غارقاً في الخوف. أحياناً يهجره الثعبان شهراً. ثم فجأة، ذات ليلة، ويكون هو متعباً من الريّ طوال الليل، أو من رحلة انتهت للتو، ينام، فيظهر «ثعبانه» مرة أخرى. يقفز في العتمة، العرق يقطر من أعضائه، ونبضه يضجّ بين الجدران.

---

* حفرة في حائط العقد السميك تُحفظ داخلها علب البنّ والسكر الخاصة بالاستعمال اليومي. لها ستارة قطنية تمنع الغبار.

ثلاث سنوات! من يقدر أن يعدّ أيامها ولياليها! تَعِب الشيخ خاطر وقرر العودة إلى بيته. الهرب لن يفيده، قال.

رجع إلى البيت. بعدئذ لم يظهر الثعبان أبداً. ولا حتّى في المنام.

حتى رآه يوسف الثالث الصغير اليوم.

(الثعبان يختفي)

ظهر مرة، ليوسف، وبعدها اختفى من جديد. كل صباح، صار الأب ينظر إلى ابنه، وينتظر. كلّه خوف أن يستوطن الثعبان رأس ابنه ومناماته. لكن يوسف لا يقول شيئاً.

يتذكر الأب أن يوسف أخبره أنه لم ينظر في عينيّ الثعبان ذلك الصباح.

يتنهد ويقول لهذا نجا. ثم ينتبه ـ هو الشيخ إبراهيم خاطر جابر ـ أن السُعال قد ذهب عنه.

ـ 15 ـ

يحلّ الشتاء.

تتحول البيوت إلى جزر متباعدة وسط سهل أبيض. يهبّ الهواء الشمالي ويلصق رقع الثلج بالحيطان، بجوانب الجرن، بجذوع الأشجار. (نقلوا سرير الحديد، إلى داخل القبو، أول موسم الأمطار. في القبو فركته نسب بحجر الصوان. لكن بقع الصدأ الحمراء ظلّت ملتصقة بزواياه).

تأتي بومة بيضاء وتحطّ في التينة. يوسف الأول يطلق عليها النار من نافذة بيته. تنفتح بطنها، تطير البومة، الريش يتطاير في الفضاء، أبيض كرقع الثلج. الأمعاء حمراء تتدلى من أسفلها.

يستيقظ الشيخ إبراهيم من نوم الظهيرة على صوت الطلقة. يقول خاطر:

ـ بومة، لا شيء، بومة.

ينظر الشيخ إلى خاطر، واقفاً في الباب، ينفض عن كتفيّ عباءته الصوفية، ثلجاً، ويضع مداسه على الأرض قرب العتبة. يسأله:

ـ كيف الزريبة؟

يقول خاطر إنه جرف الثلج عن السطح، وأن عمر وحسن

سيصعدان عند المساء أيضاً.

يجلسون في ضوء القنديل. مع هذه الثلوج، الليل والنهار يتصلان في ظلمة واحدة. لا باب يُفتح، ولا نافذة. حتى الكوّة العالية سدّوا نصفها بفوطٍ ملفوفة داخل كيس جنفيص.

صار جمال الدين، الأقوى بين التوأمين، يقف على ساقين مرتجفتين. أو يدبّ ويتعلق بساقيّ يوسف أو نسب. يستعين بالأشياء على الوقوف ويبتسم. يراقبه الشيخ إبراهيم فيتذكر سارة.

تخبز نسب في القبو. ينزل يوسف معها. ينظر إلى وجهها يحمر من لهب النار تحت الصاج. يشقّ البوابة الخشبية الكبيرة، وينظر إلى الدخان يتعالى من فوق رأسه، ويلطّخ، بخيوطٍ سوداء، الشربينة الملفوفة بطبقة ثلج سميكة.

كل شيء جامد. السماء بيضاء، الأرض بيضاء، والهواء أبيض. مسلات الجليد تتدلى من زاوية سطح غرفة يوسف الأول وعائلته. لا يسمع بكاء التوأمين. الثلج يمتص كل صوت.

(برق)

يتذكر إبراهيم الثلجة القوية المشهورة سنة 1778. يشق الباب وينظر إلى الثلج، يأتي في صفحات عريضة من جهة الشمال، ويلتصق ـ كما هو ـ بطبقات الثلج المتكدسة فوق الدار والمصطبة. حسن وخاطر وعمر ويوسف الأول، يجرفونه بالرفوش لئلا يسدّ باب البيت.

تكسّرت أغصان التوتة فوق قبر سارة. اندفن جذعها إلى نصفه بالأبيض المتراكم. بعيداً، عبر غيوم الثلج المعلقة في الفضاء، بان

القاطع المقابل، أبيض أيضاً، يتعالى بتلاله الثلاث المدببة نحو السماء الواطئة.

جاء يوسف الصغير من القبو، حاملاً الأرغفة ملفوفةً في بطانية، والريح تدفعه إلى خلف. لم يعد الجرن الحجري ظاهراً. ولا طرف قن الدجاج.

في الليل استمروا في جرف الثلج مداورةً. في لحظة، قرابة منتصف الليل، لمع برقٌ ملأ الأرض والسماء بشلالٍ من الضوء الأزرق المخيف. تزلزلت الأرض. انعكس الضوء على صفحة الدار، وعلى الأشجار البيضاء، وعلى البيت. ثم اشتعلت نار الصاعقة خلف غرفة يوسف الأول.

شقت الصاعقة جدار الزريبة. أشعلت ناراً في أكوام القش اليابس. تطايرت الدجاجات* في أنحاء الزريبة، وتعالى ثغاء الخراف وخوار الأبقار.

أطفأوا النار بالثلج. لم تمت دجاجة واحدة. لم يمت أي خروف. الشيخ إبراهيم صلّى واقفاً ورائحة الخشب المحترق والمطفأ بالثلج في أنفه. الأخوة قادوا الخراف والأبقار إلى القبو. قال يوسف الأول:

- نَقود نصفها إلى الوادي. الزريبة تحت واسعة.

قال الشيخ إبراهيم:

- في الصباح، في الصباح.

---

* في الشتاء ينقلونها من القن عند مدخل القبو إلى هنا.

في الصباح استيقظ الشيخ مذعوراً على صراخٍ. قفز هو ونسب في لحظة واحدة إلى الخارج.

رأى يوسف الثالث الصغير واقفاً يصرخ تحت الشربينة البيضاء، وفمه يكبر حتى يحتل مساحة وجهه.

وقبالة يوسف رأى الغرفة الجديدة (بيت يوسف الأول وزوجته سُهيلة والتوأمين) مطمورة بالثلوج، وجوانبها مهدمة.

ـ 16 ـ

وشّح الأبيض رأس يوسف الصغير. صار قليل الكلام. ما عاد يقضي العصر جالساً قرب أبيه الشيخ ولا عاد يلاعب أخاه الأصغر نور الدين. كان يشرد جالساً تحت شجرات التوت، في هذه الفسحة التي تحولت إلى مقبرة. ينظر إلى أصابعه، أو إلى خطوط النمل على التراب، أو إلى الغيوم المتباعدة فوق القاطع المقابل، وحين يقترب أحدهم (الشيخ إبراهيم، أو نسب، أو نور الدين، أو سعاد*) يسارع إلى الوقوف والنزول إلى الوادي، أو الصعود نحو «دار المير».

يمضي في أثر أخوته (خاطر وحسن وعمر) وقطعان الماعز والبقر إلى البرية قبل بيت الدين. أو يسرح في الحقول من الصباح، حتى يبلغ بساتين التفاح قرب قرية «الموشة». يتفرج على المياه كارجة في قنوات التراب، ويقطف لوزاً، ويركض مع التيار المتدفق بالأوراق والعيدان قافزاً كالجدي فوق الصخور. وعند إقبال المساء، يدور حول نفسه، والضوء المتلاشي يغمره بإحساس غريب: يشعر كأنه يستيقظ من نوم عميق، كأنه منذ الصباح وهو نائم، كأن كل هذا الركض والشرود قد حدث في منام.

---

* جاءت من دير القمر بعد أربعين يوماً من الدفن الذي عجزت عن حضوره بسبب الثلوج.

في طريق العودة إلى البيت يسمع عواء الذئاب ونقيق الصفادع وأغاني جنادب الحقول. يرى حشرات الليل تضيء، توجّ فوق صفحات البرك ثم تختفي وسط أدغال الشوك. برك كثيرة حوله، جدرانها من طين وحجارة وقش، المياه تتسرب عبرها وتحوّل الأرض حولها إلى غابات من النعناع الطويل الفوّاح الرائحة. تلمع صفحاتها الملساء بالنور البرتقالي عند الغروب، ثم تعتم عند المساء، تصير سوداء كأنها حفر تراب مليئة بعكر زيت الزيتون وتلك البقايا الخارجة من المعاصر. تظل سوداء هكذا حتى تضيء النجوم سماء الليل. حينئذ يراها تعكس مئات الأضواء الدقيقة البيضاء ـ الزرقاء، تشبه رؤوس الإبر في صندوق نسب الخشبي الصغير، يراها تشع بين بقع الخزّ والسرخسيات التي تطفو على وجه البرك، كما تشع رؤوس الإبر بين قطع القماش وكرات الخيطان المتشابكة. لا يخاف الظلام، ولا وحدته في هذا الظلام. ضجة ضفادع البرك لا تزعج أذنيه. تصله واهنة، بعيدة ومكتومة، كأنها قادمة من وراء التلال. (منذ فترة يخفّ سمعه. لاحظ هذا قبل أيام: صأصأة الفئران ما عادت توقظه، وصياح الديك لا يفزعه من النوم).

رغم العتمة التي تتكاثف بمرور كل لحظة، لا يُسرع الخطى. يتلكأ متفرجاً على الحباحب المضيئة، أو يرفع رأسه ويتأمل مذنّباً يعبر بين النجوم. يظل مبطئاً في السير هكذا، حتى يخطر الشيخ إبراهيم على باله. عندئذٍ فقط ينتبه كم تأخر بعيداً عن البيت، فيقفز كالجندب راكضاً.

بعد منعطف الطريق الضيقة، قبل صفّ شجرات الجوز الخمس، يلوح له ذلك الشبح الطويل، عند كتف الوادي، فوق، واقفاً ينتظره. يراه منتصباً ثم متكئاً إلى عصاه. لحيته بيضاء ظاهرة في الليل، تبدو

كأنها ترتعش في الهواء الربيعي.

(الشيخ)

منذ ذلك الصباح تسللت الرجفة إلى جسم الشيخ إبراهيم. بات يلطخ ثيابه بالطعام، ويعجز عن كتابة الحسابات. بعد أربعين يوماً من الدفن، حين حضرت ابنته سعاد من دير القمر، وانحنت تقبّل يديه، أراد أن ينحني بدوره ليرفعها ويحضنها. حاول الانحناء لكنه أحسّ بظهره يتخشب، وبركبتيه ترتجفان تحت ثقله. تماسك وطلب منها أن تساعده ليبلغ الأفريز الحجري عند طرف المصطبة.

بعدها بيوم حضر زوج سعاد، الشيخ عبد اللطيف القاضي. اعتذر لأنه تأخر وقال إن الجنود صادروا كل دوابه. أخذوها إلى مناجم قرنايل وفالوغا، لنقل الحديد* والفحم الحجري.

المطر المنهمر بلا توقف منذ يوم الدفن زاد من آلام الشيخ إبراهيم. ذابت الثلوج فظهرت بقايا الغرفة.

(النعوة)

كانوا قد انتشلوا يوسف الأول من تحت الأنقاض، ثم ظلوا يرفعون الحطام ساعة قبل أن يجدوا سُهيلة. بحثوا عن التوأمين طويلاً. خاطر كان يرفع جسور الصنوبر المحطمة وهو يبكي. حسن كسر أظافره تحت العتبات الحجرية. عمر صرخ وهو يرى الدم يلطخ كل شيء. إحدى دعامات السقف كانت قد مزقت بطن سهيلة.

أخيراً عثر خاطر على التوأمين مدفونين في الطين تحت عمود

---

* حفر إبراهيم باشا هذه المناجم بناءً على نصيحة المهندسين الفرنسيين. استخرج فحماً سيئاً، وحديداً لا يصلح إلا للمسامير.

الزاوية. للوهلة الأولى فكر أنهما على قيد الحياة. حين لمسهما انتبه إلى قشرة الجليد على بشرتهما.

دفنوا جسور الغرفة بعد أن أذاب المطر الثلوج عنها. بعثروا حجارتها في الجلول. وتركوا لنسب وسعاد مهمة جمع الثياب والبطانيات. (حجارة الزاوية كانت محروقة سوداء مثل حائط الزريبة الذي قصّته الصاعقة).

ذلك الصباح، وقف الشيخ إبراهيم ينظر إلى أولاده من تحت الشربينة. عرف من النظرة الأولى أن يوسف الأول قد مات، هو وسهيلة وقاسم وجمال الدين. لم يقترب. وضع يده على رأس يوسف الصغير وتجمد كمسلة من جليد. بعد وقت ابتعد يوسف لا يعرف إلى أين. لم يتحرك الشيخ من مكانه. ظهراً هبّ الهواء، فتساقطت كتل الثلج عليه. ظل جامداً كالتمثال. بينما يصفّون الجثث الأربع، بالعرض، على سرير الحديد في القبو، بدأت الرجفة تهزّ جسمه. بدأت في ساقيه ثم انتقلت إلى جذعه. أخيراً جعل رأسه يهتز كأنه سيسقط عن كتفيه. رأس الشيخ لم يسقط. سقطت عنه كتل ثلج. لكنه بقي فوق الكتفين. ومن فوق اللحية الثلجية نظرت عينا الشيخ إلى ابنه الأصغر نور الدين يدور حول سرير الحديد فاغر الفاه، ثم يمدّ يده إلى الأجسام الباردة الساكنة.

انطلق عمر إلى بتلون ثم الباروك. وحسن إلى بيت الدين ثم دير القمر. لا بد من أن يُنعى يوسف الأول، حتى في هذا الطقس. رحلة كل منهما تستغرق ساعة مشي عادة، لكنها في هذا الثلج قد تدوم سبع ساعات وأكثر. قد يخوض الواحد في الطبقات البيضاء المتراكمة حتى فخذه، وربما علق في «منسفٍ» وقضى متجمداً.

وصل حسن إلى القصر ليلاً. الحراس أيقظوا أخوته النائمين في السراي، داخل دائرة السرو. بقي حسن في السراي، مرتجفاً أمام النار وداخل بطانية أخيه خير الله، فيما انطلق بشير وأحمد إلى دير القمر لتنفيذ ما تبقى من مهمته. هناه في سراي بيت الدين، وهو يحدق إلى خير الله، ثم إلى يوسف الثاني، تمنى حسن لو أنه لم يولد أبداً، وبكى.

عمر بلغ بتلون قبيل هبوط الظلام. قرع باب الشيخ غفّار أبو صالح، زوج أخته سعود، ودخل. لم يقل شيئاً. نظر إلى العائلة جالسة حول كانون الجمر ثم فتح فمه. أراد أن يقول أخي، أخي يوسف، أخي يوسف الكبير. ثلاث عبارات تشكلت في ذهنه، كلمة أضاف إليها الاسم، ثم كلمة ثالثة. أنجز كل هذا داخل رأسه، والثلج يُجلد قدميه وعنقه، واللون الأزرق يكسو جلده. فكر في الكلمات الثلاث وفتح فمه. سوف يحرك لسانه ويلفظها. هكذا قال لنفسه. لكن الصوت لم يخرج منه. لم يرَ الجمرات في الكانون إلا كنقط حمراء غامضة. وحين نهضت أخته سعود حاملة جسمها ككيس ثقيل لم يرَ اللهفة في وجهها ولا الرعب في عينيها. لم يرَ شيئاً. بعد ذلك انتبه إلى الشيخ غفّار والأولاد، يحيطون به، يلفّونه بعباءة ويجلبون كانون جمر آخر من الزاوية. لكنه طوال هذا الوقت ظل يفتح فمه ويجرب تحريك لسانه: أخي، أخي يوسف، أخي يوسف الكبير. تحرك لسانه لكن الصوت لم يخرج. كان أسير تلك الكلمات الثلاث الصامتة. والعالم كلّه واهن الضوء، وغائم أمام عينيه. أعطته أخته كوباً من الزهورات الساخنة. شربه. لم يستطعم بالكينا ولا بالتيّال ولا بالبابونج. فقط سائل ساخن ينزل في زلعومي، قال لنفسه. وبهذه الكلمات أبعد عن ذهنه للحظة شبح تلك الكلمات الثلاث الأولى: أخي، أخي يوسف، أخي يوسف الكبير.

فركت سعود أطرافه بزيتٍ فاتر. تذكر وجه خاطر وهو يرفع التوأمين ملفوفين في قماطين من الكتّان الأبيض ـ المغبر. سمع صراخاً في أذنيه.

فتح عينيه. لم يغلقهما أصلاً. لكنه فجأة عاد يرى الأشياء، كأنه فتح عينيه للتو. رأى الجمرات ثم الكوب الفخاري بين يديه، ثم وجه الشيخ غفّار زوج أخته سعود. عندئذ أخبرهم بما جرى.

نام مطوياً على نفسه في الزاوية ملتفاً بعباءة الشيخ. الابن الأكبر لسعود، إبراهيم، انطلق مع ضوء الفجر الأول إلى الباروك لإتمام المهمة. لا بدّ أن تُبلَّغ النعوة.

في المنام رأى عمر أباه واقفاً تحت الشربينة البيضاء والظلام يلفّه كالكفن.

في اللحظة ذاتها، في سراي بيت الدين، كان حسن يفكر في أبيه الشيخ، بينما خير الله ويوسف الثاني يسرجان الأحصنة، وهما يحدقان إلى كل شيء، دون أن يتبادلا ـ ولو لمرة واحدة ـ نظرة عابرة يتيمة.

في بيت العقد البعيد، ذلك الفجر، كانت نسب تبكي حاضنةً نور الدين، بينما يوسف الثالث الصغير في القبو، تحت، يساعد أباه إبراهيم على النهوض عن الأرض. أما خاطر فكان وحده، في «زريبة الوادي»، مع الخراف والأبقار التي نجت من الصاعقة.

(رائحة)

من سرير الحديد الذي انغرزت قوائمه في القش والطين تصاعدت رائحة حليب وثلج.

رائحة لن ينساها يوسف أبداً.

(التوابيت)

في اليوم التالي تساعدوا (حسن وعمر وخاطر وبشير وأحمد وخير الله) على صناعة التوابيت. كسَّروا خزانة البيت، ونزعوا ألواح الخشب من قنّ الدجاج. المخازن كلّها (مخازن الخشب) مطمورة في الثلوج. لم يجدوا خشباً لا في القرية، ولا في القرى المجاورة. لم يفتشوا طويلاً أصلاً. كانوا بحاجة لأن يحطموا شيئاً. حطموا الخزانة والقنّ وصنعوا تابوتين طويلين، وتابوتاً واحداً قصيراً. يوسف الثاني لم يشترك في تنجير الأخشاب ومسمرتها. كان مصاباً بالحمى. في فجر اليوم الثالث ـ يوم الدفن ـ نهض مرتجفاً كأبيه، وشعره مبلل بالعرق. لكن الرجفة سرعان ما غادرت جسمه بعد كوب الزهورات الثاني.

(الرجفة)

غادرت الرجفة جسم يوسف الثاني لكنها استوطنت جسم الشيخ إبراهيم حتى مجيء ساعته.

مع طلوع شمس الربيع تضاءل ألم مفاصله وسلسلته الفقرية. صار يجلس لساعات على طراحة تفرشها نسب وسط دار البحص في مركز الأشعة الصفراء ـ البيضاء. يقعد هكذا، معرضاً أطرافه للشمس، متمغطاً كالقطط، حتى ينعس وينام.

عند المغيب يلطشه الهواء البارد. يفتح عينيه. يرى نور الدين، ويرى البنات* في مدخل البيت، أمامهن صينية عدس، أو بعض

* بعد سعاد جاءت سكينة من الباروك لقضاء فترة هنا.

حبّات الكوسى والقرع، يتكلمن. حين ينتبهن إلى قيامه تُسرع إحداهن إليه مع بطانية.

يسألها عن الأولاد، أخوتها. تقول إنهم في الوادي.

يسألها عن يوسف الصغير، أهو معهم؟

تقول إنه معهم.

يلتف بالبطانية. يأكل لقمة أو يشرب شيئاً ساخناً. ينتظر المساء. جرس الكرّاز* وعودة الأولاد. واحد منهم يبقى مع نصف القطعان في «زريبة الوادي».

يأتي الليل. يتعالى ثغاء. ونباح كلب. ورنين جرس. يظهر حسن بين الخراف، ثم يظهر خاطر. عمر في «زريبة الوادي»، لكن أين يوسف الصغير؟

يقترب نور الدين. يتعلق بعباءة الشيخ الواقف قرب قبر سارة**. ينتظر يوسف الصغير معه، ويوسف الصغير لا يصل.

يقول الشيخ لنور الدين:

ـ ادخلْ إلى البيت، الهواء بارد هنا.

ثم ينحدر وحيداً إلى أول «الكروسة». يستند إلى عصاه، ويرفع يده مبسوطةً فوق حاجبيه. يحدق إلى تحت، في الليل، فيرى أشباح شجرات الجوز الخمس، ويرى الحباحب المضيئة توجّ فوق صفحات البرك الراكدة ثم تختفي في دغل النعناع والشوك.

---

* الكبش الذي يقود القطيع، يجعل الراعي في عنقه جرساً.
** دفنوا العائلة الصغيرة على بعد مترين. حفروا في الثلج نصف نهار قبل بلوغ قشرة الأرض المتجمدة.

يظل واقفاً هكذا، والرجفة تهزّ أعضاءه، وهواء الربيع يلعب في لحيته البيضاء الطويلة، حتى يظهر يوسف الصغير، خارجاً من الظلام، كأنه يولد للتو من بطن سارة.

ـ 17 ـ

في ربيع 1840 ترك الأخوة الأربع جيش الأمير خليل واختفوا في حوران.

جاء غنطوس القهوجي مبعوثاً من بيت الدين، إلى الشيخ إبراهيم في بيته العقد.

جلسا يشربان القهوة على المصطبة. أخرج غنطوس القهوجي علبة فضّية. فتحها. فاحت رائحة «العطوس». دعا الشيخ. هزّ الشيخ رأسه وشرب شفّة من فنجان قهوته المرّة. (شدّ أصابعه المرتجفة لئلا يسقط الفنجان).

قال غنطوس القهوجي:

ـ لا يجوز أن يُقال إن أولاد الشيخ إبراهيم جابر قد فرّوا من خدمة المير.

قال الشيخ:

ـ لا أعرف أين هم.

قال غنطوس القهوجي:

ـ نصيحة صديق قديم: اجعل باقي أولادك يختفون أيضاً.

قال الشيخ إبراهيم ملتفتاً:

ـ يختفون؟

ردَّ غنطوس القهوجي:

ـ بعيداً عن أعين المير والمصريين.

(خاطر)

لم يكن خاطر في الجبل يوم جاء غنطوس القهوجي لزيارة صديقه القديم إبراهيم. (جاء مبعوثاً من الأمير ليهدّد الشيخ. وحين شرب القهوة مع الشيخ تحوّل عن التهديد إلى التحذير). لم يكن خاطر في الجبل. كان نزل إلى بيروت بثلاث بغلات لبيع بعض الجلود.

انطلق من كفربُرك فجراً. بلغ الساحل ظهراً. قبل العصر لاحت له سهلات البرج وأسوار المدينة، تعلوها مآذن الجوامع الكبيرة الثلاث كشوكة حديدية.

سمع فرقعة بواريد. في بساتين التوت والصبير رأى رجالاً يركضون. أمام بوابة السراي رأى حشداً من الجنود. تابع طريقه متجاوزاً المقابر، ناظراً إلى الجهة الأخرى. وضع المقابر الثلاث (الخارجة والمصلى والغرباء) بينه وبين الجنود، وأسرع بالبغلات الثلاث الثقيلة الأحمال، نحو باب الدباغة. هنا أيضاً وجد جنوداً. لكنه دخل في زحمة القوافل الداخلة. دفع المكوس* مخرجاً القروش المنطفئة اللون من زناره، ومضى في سوق الدبّاغين حتى دكان الشيخ محمد العود، قريب عائلة الشيخ عبد اللطيف القاضي زوج أخته سعاد.

---

* ضريبة على البضائع الداخلة إلى المدينة.

حين رآه الشيخ قادماً مع بغلاته وهو يزلق على الأرض الملطخة بدماء الذبائح فزع وأسرع يدعوه إلى داخل الدكان.

أجلسه بين كوم الأقمشة ونرابيج الأراكيل. بعد أن سأله عن صحة الأهل، قال:

ـ تجيء إلى هنا في يوم كهذا!

سأله خاطر ماذا يعني، ماذا يحدث؟

قال الشيخ محمد العود إن العسكر المصري وصلته بواخر من القاهرة محملة بالبذات العسكرية والبواريد. انظرْ، قال الشيخ، وأشار عبر بوابة الدكان المؤطرة بالقماش والجلود، إلى صواري السفن الظاهرة فوق سطوح البيوت في الجانب الآخر من الزقاق.

ـ يعني؟ قال خاطر فارغ الصبر، لأن المغيب يقترب وهو لم يبع جلوده بعد ولا قبض ثمنها.

قال الشيخ محمد العود:

ـ يعني أنهم سيباشرون بتجنيد الأهالي من جديد. كما فعلوا قبل شهرين، وفي السنة الماضية، وقبلها.

(في السنة الماضية)

فجأة، عند ظهيرة يوم ربيعي، أقفل الحراس بوابات المدينة كلّها: بوابات الدباغة والسراي والدركاه ويعقوب وإدريس والسنطية.

قبض الجنود المصريون* ـ وبعض الجنود من جيش الأمير بشير ـ على أبناء الجبل الراكضين في الأزقة وقادوهم إلى السراي. أعطوهم بذلات من الكتّان الرمادي، وحوّلوهم في لحظة من فلاحين إلى جنود.

---

* معظمهم جُند بالقوة في مصر. كانوا فلاحين فتحّولوا جنوداً.

في اليوم التالي وضعوهم على متن السفينة المصرية «علي» التي أبحرت للتو إلى اللاذقية. من هناك تبعثروا على قلاع الحدود الشمالية لصدّ هجمات الأتراك.

(الشيخ العود ينقذ خاطر)

بينما الشيخ يحكي، دخل الدكان ثلاثة من جند الأرناؤوط. قام الشيخ واقفاً ودعاهم إلى فنجان قهوة. هم حدقوا إلى خاطر الجالس في ظلال الدكان العميق.

سألوا الشيخ:

ـ من صاحب البغلات؟

قال الشيخ:

ـ أنا.

نظروا مرة أخرى إلى خاطر المتجمد حيث هو، ثم خرجوا.

(النزوح)

نام خاطر ليلته عند الشيخ محمد العود*. عند الفجر تعالى الآذان من الجهتين. نهض على صوت الشيخ ثم خرجا معاً. كانت بوابات المدينة تُفتح للتو. فكر خاطر أنه لن ينجو. عند بوابة الدركاه رأى جنوداً قرب سبيل الماء يضحكون. الشيخ ألقى التحية عليهم وتأبط ذراعه.

عبروا تحت القوس الحجري. قربهم مرَّ بغلٌ محملٌ بالحطب في طريقه إلى الحمام التركي القريب. تبادل خاطر نظرة سريعة مع حارس طويل كالح الوجه ثم خفض عينيه.

* يقع بيته وسط سوق الفشخة. بين جامع السراي والجامع العمري.

في الخارج، وسط الساحة تحت السور*، التفت لحظة، ورأى حوانيت الحياكين**، والمئذنة الخشبية الصغيرة فوق البوابة الحجرية من حيث خرج.

أحسّ أنه يحلم. لم يُصدق أنه قد نجا.

أخذه الشيخ إلى قرية عين المريسة القريبة. هناك زوّده بحصان. أفطرا في بيت أحد أقارب الشيخ ثم انطلق خاطر إلى الجبل.

وجد أباه إبراهيم، واقفاً في ضوء المساء، عند أول القرية.

تلك الليلة حزموا متاعهم، هو وعمر وحسن، بينما نور الدين يحوم حولهم، ويوسف الصغير وحده في الخارج، قرب القبور.

تحت جنح الظلام انطلق الأخوة الثلاثة عبر بساتين التوت وكروم التين والعنب إلى بريّة عين وزين.

عليهم تسلُق جبل الباروك ليلاً. النهار التالي ينامون في غابات سفح الجانب الآخر. وعند هبوط الظلام مجدّداً يقطعون سهل البقاع إلى حاصبيا. من هناك، عبر شِعاب جبل الشيخ، الدرب إلى حوران آمنة.

حسن وعمر في المقدمة. خاطر المتعب من رحلة بيروت الطويلة يتلكأ خلفهما. ولا أحد منهم يعرف هل سيرجع إلى كفربُرك ذات يوم.

---

* ساحة «عالسّور».

** أُقيمت سنة 1826 م، على امتداد سبعين متراً، لصق السور، بين الدركاه ويعقوب.

- 18 -

ظَلَّ الشيخ إبراهيم في البيت الفارغ، وحده مع نسب ونور الدين. قبل أيام جاءت الخالة حبوس لترافق سعاد* في رحلتها إلى بيتها في دير القمر. فطلب منها الشيخ أن تأخذ يوسف الصغير معها. كان يخاف أن يحدث له شيء إذا بقي في كفربُرك.

قالت سعاد:

- يوسف في عيني، لكني خائفة عليك.

قال الشيخ إبراهيم:

- شبعت من الأيام. ولا يحدث إلا المكتوب.

راقبهم يبتعدون. حتى أخفتهم الأشجار. كان نور الدين يتعلق بساقيه كالعادة ويشدّ عباءته. انحنى الشيخ كي يحمله لكن رجفة جسمه أعجزته. اكتفى بتقبيل رأسه ثم استدار ودخل البيت.

تمدّد وسط مستطيل الشمس الداخل من البوابة وأغمض عينيه.

---

* سكينة رجعت إلى زوجها وأولادها - في الباروك - قبلها.

- 19 -

خلال الربيع والصيف اكتشف يوسف عالماً عجيباً ما كان يدري بوجوده من قبل. هنا، في بيت القرميد، بين بنات أخته الصغيرات، عرف لأول مرة متعة اللعب مع الآخرين ومشاركة الغير لذة الاكتشاف. وهنا، في دير القمر بأزقتها وساحاتها وقصورها المعنية* القديمة، طارد مع أبناء الجيران الكلاب الشاردة. قفز فوق سطوح عالية شبه متلاصقة. أحرق بخرقة مشتعلة قفير زراقط ووكر دبابير. ركض هارباً من الطنين وصرخ زاعقاً بأعلى صوته ليخيف رفاقه، بينما ينحدرون على السفوح نحو الوادي ـ تحت قصر بيت الدين ـ حيث البركة الكبيرة. كان يقفز إليها عن الصخرة عارياً تماماً. يقفزون قبله وبعده، صراخهم يثقب الفضاء، وشعاع الشمس يغمرهم ويغمر الأحراج وشجيرات السماق واللوزات. حين يعبر الرعاة، أو أصحاب بساتين البندورة واللوبياء، يلاحقهم مع باقي الأولاد، حتى يسمحوا له بشرب الحليب من ضرع المعزاة الساخن، أو حتى يملأ قميصه بحبّات البندورة القاسية الحمراء.

في بيت الشيخ عبد اللطيف كان يجلس بين الصغيرات. يرسم لهن بجعاً وطواويس ودجاجاً وهررة وماعزاً. يكتب كلمات تحت الرسوم ويشرح لهن معناها. هذا الحرف د، نلفظه دال، يقول لهن،

---

* قصور آل معن.

وينظر إلى أصغرهن (أكبر من نور الدين بسنتين) ويقول: دال مثل دنيا مثل دجاجة. تضحك دنيا وتقول إنها ليست دجاجة. يرسم بطّة ويلتفت إلى بهية (أكبر من دنيا لكن أصغر من زهية) ويقول: ب نلفظها باء، تشبه سطل بنقطة تحتها، ب مثل بهية. تحرد بهية وتقول إنها نحيلة ولا تشبه السطل. يضحك ويخرج إلى المصطبة العالية. يضع يديه على سور الخشب الأبيض، وينظر إلى بيوت دير القمر تحته، وإلى الحمير وعربات* الخيل في الساحة (ثلاث عربات لا يوجد في المنطقة غيرها. تخص مشايخ آل نكد، وقلّما يستخدمونها لضيق طرقات الجبل: ابتاعوها من باخرة في ميناء بيروت، هكذا، للوجاهة)، وإلى الباحة الحجرية أمام قصر فخر الدين، وإلى مدرج الجلول الهابط نحو الوادي، والصاعد من جديد في القاطع المقابل، نحو قصر بيت الدين والسرايات العالية. يظل واقفاً، وهنّ يلكزنه من الخلف ليرسم لهن أيضاً، صورة حيوان يشبه زهية في اسمه، وصورة أخرى تشبه جميلة. يضحك طويلاً. تضحكه أصواتهن الرقيقة المتشابهة وتضحكه أسماؤهن. يُجلس دنيا في حضنه. وعلى أرض المصطبة الحجرية يرسم بالكلس جندباً بجانحين وقائمتين، ويقول ج جيم مثل جميلة، ج ماذا؟

يهتفن معاً: ج جندب جميلة جندب.

تقف زهية على مسافة. جميلة الكبرى بينهما، لا تزعل من رسومه الساخرة. هي تكبره بسنوات وهو بالكاد يصل إلى كتفها. حين يبدأ برسم حيوان غريب الشكل يشبه البقرة أو الغزال لكن عنقه شديدة الطول، لا تفهم جميلة ماذا يرسم. تريد أن تفهم وتعرف قبل أن ينتهي. تريد أن تبتسم لزهية كي لا تغضب، وأن تقول لها عن الرسم

* كرّت أول عربة في برّ الشام سنة 1833 م. استقدمها القنصل الإنجليزي فرن من لندن بحراً. حُملت من بيروت إلى مركزه في دمشق مفككة على ظهور الجِمال.

والحيوان في الصورة قبل أن يكمل وصل خطوطه. لكنها لا تعرف هذا الحيوان. لم ترَ مثله من قبل أبداً.

ينتهي يوسف من الرسم. دنيا تحدق، بهية تحدق، وجميلة تحدق. أمام صمتهن وصمت يوسف المبتسم تقترب زهية أيضاً وتنظر إلى الغزال الغريب الشكل، بعنقه الطويل وتلك القرون القصيرة في رأسه. تعرف أنه رسمها هكذا لأنها طويلة العنق. تحزن وتتراجع. تقول جميلة لا يوجد حيوان كهذا، ما هذا؟

يقول يوسف انظري تحت. ينظرن إلى حيث يشير برأسه وإصبعه. تقول جميلة: ما به القصر؟ يقول الذي بنى هذا القصر كان أمير الجبل، اسمه فخر الدين، وكان عنده في بيروت حديقة كبيرة جمع فيها كل حيوانات العالم. هذا الحيوان جلبه بالسفينة من إفريقيا، هل تعرفين اسمه؟

قالت جميلة هل رأيته أنت كي ترسمه!

قال يوسف رأيته.

قالت جميلة أين؟

قال عند المعلم ناصيف*.

قالت جميلة كذّاب، المعلم ناصيف بيته مثل القبو ولا توجد فيه حتى قطّة.

قال يوسف رأيته في كتاب في صندوق المعلم ناصيف، كتاب مليء بالرسوم، وكلّها رسوم حيوانات.

قالت زهية:

- عنقي ليست طويلة إلى هذا الحد؟

قالت دنيا:

---

* ناصيف كرامة. من مستشاري الأمير بشير، وصديق الشيخ عبد اللطيف.

ـ طويلة طويلة.

قالت بهية:

ـ لكن ما اسمه؟

قال يوسف زرافة، زين مثل زهية.

قالت زهية:

ـ عنقي ليست طويلة هكذا.

كانت تجدل ضفيرتها باصبعها، وقدمها تلبط سور المصطبة الخشبي المطلي بالأبيض. قال يوسف:

ـ لم أرسمها لأن عنقها طويلة ولكن لأنها بحرف الزين. ولأنها تنطح مثلك يا تيسة.

ضحكت دنيا:

ـ تيسة، تيسة.

غضبت زهية (عمرها من عمر يوسف) ودخلت إلى البيت تنادي على أمها لتخبرها بما قاله يوسف: «قال عني تيسة». قفزت دنيا من حضن يوسف تدور بين الرسوم وتلفظ الكلمات: دجاجة جاجة، بطّة بطّة، جميلة جدُب جندب، زرافة زهية.

قالت بهية:

ـ لكن أنا لست سمينة.

قالت جميلة:

ـ وأنت، يا يوسف ماذا تشبه؟

ابتسم يوسف ورسم وجهه بين الرسوم. جهدت جميلة في التفتيش عن اسم حيوان يبدأ بحرف الياء، لم تنجح. تابعت التحديق إلى الرسوم حتى نادتها أمها سعاد من داخل البيت لتساعدها في تقطيع اللوبياء.

(قصة الشيخ عبد اللطيف ووليّ العهد الذي لا يأتي)

يتندر أهل الدير والجوار بحكاية الشيخ عبد اللطيف مع الأولاد. كان مثل أخويه الشيخين قاسم ومحمد ـ أعمدة بيت القاضي الثلاثة ـ رجلاً تقياً كارهاً لملذات الجسد. أقسم يوم تزوج أنه يُرزق بعون الله صبياً واحداً، وليّاً للعهد، ووريثاً لأراضيه وبيوته وطرشه، ثم لا يقرب امرأته جسمانياً بعد ذلك أبداً.

حبلت سعاد وأنجبت بنتاً. غضب. ثم ندم سريعاً. حمل البنت بين يديه. وقال:

ـ الحمد لله على كل شيء. بنت جميلة كالقمر.

وسمّاها جميلة.

كانت ولادتها سنة النكسة، سنة المعركة في عين السمقانية وانهزام الشيخ بشير جنبلاط أمام جيش الأمير بشير شهاب. الشيخ عبد اللطيف شارك في المعركة مع أخويه ومع المشايخ النكديين والتلاحقة. بعد المعركة، تحت جنح الظلام، فرّ معظم هؤلاء إلى حوران والسويدا. الشيخ عبد اللطيف، الذي يموت إذا ترك أرضه وطرشه، حصل على عفو المير بعد أن قدَّم للقصر نصف أملاكه في الوادي حالفاً يمين الولاء. (الجلول من البركة حتى الشربينات الضخمة تحت السراي، كلّها كانت ملكه قبل سنة 1825).

بعد جميلة حبلت سعاد ثانية. صلّى الشيخ عبد اللطيف، ونذر إذا أنجبت امرأته وليّاً للعهد فإنه سيصعد حافياً إلى مزار الست سارة أعلى جبل نيحا.

أنجبت سعاد بنتها الثانية. غضب الشيخ ثم تذكر ربّه وندم سريعاً.

حمل البنت بين يديه. كانت تضحك وتشرق وريقها يفيض من بين شفتيها الكاملتين. قال:

ـ الحمد لله على كل شيء. بنت كالزهرة زهيّة.

وسمّاها زهيّة.

كانت ولادتها سنة الفتح المصري ووصول المدافع الجديدة إلى ساحة القصر وظهور الرجال السود.

بعد زهية حبلت سعاد ثالثةً. هذه المرة تعبت في الحمل. كبر بطنها أكثر من المرتين السابقتين. في الليل كانت تصرخ أحياناً من وجع ظهرها. في شهرها السابع كفّت عن رفع سطول الماء أو تكنيس البيت. حضرت الخالة حبوس للمساعدة.

في نهاية شهرها السابع بلغ وِحَامها درجة خرافية. لم تطلب لبن العصفور لكنها طلبت خوخاً ودراقاً بينما الثلج يتساقط. والدها الشيخ إبراهيم أرسل لها، حين طلبت، تفاحاً من كفربُرك. كان يحفظه في مغارة باردة منذ الصيف.

كل ذلك لم يغضب الشيخ عبد اللطيف. بالعكس استبشر خيراً. قال هذا بالتأكيد صبي. قال الثالثة ثابتة، وهذه المرة الثالثة، وهذا وليّ العهد، بحاجة إلى الغذاء، والصبي دوماً ينفخ بطن الأم أكثر من البنت. الخالة حبوس من جهتها، كانت تتذكر ولادة سارة (أي ولادة يوسف) وكم تعذبت وكيف أشرفت على الموت. بل كيف ماتت ثم عاشت لا أحد إلا الله يعرف كيف. الخالة كانت تتذكر هذا فتنكمش معدتها وتخاف.

أخيراً حلّ التاسع وأنجبت سعاد بنتها الثالثة. الشيخ عبد اللطيف كان واقفاً في الخارج، ملتفاً بعباءته، والبخار الخارج من فمه وأنفه يكاد يتجمد في الفضاء المثلج. خرجت الخالة تقول سليمة ومبروك والحمد لله لم يحدث لسعاد أي شيء. «لم تقلْ: بنت أم صبي»، فكر الشيخ، وعرف معنى ذلك فوراً. لبط الثلج بقدمه، وخطا فوق الصفحة البيضاء المصقولة مبتعداً. كان غاضباً والدم يغلي كربّ البندورة في إناء جسمه. أراد أن يحطم سور المصطبة. أراد أن يحطم المصطبة. ثم تذكّر ربّه، واستغفره، وندم، وعاد إلى الخالة. ابتسم لها (أحياناً الابتسامة صعبة إلى حد لا يصدق) ودخل البيت.

حين رفع الطفلة من مهدها ابتسم. هذه المرة بِكُل سهولة. كانت أجمل من جميلة، وأزهى من زهيّة. بعينيها المغمضتين نصف إغماضة، وبأنفها الناعم كأنف سعاد، وبسكونها الغريب. قال:

ـ الحمد لله دوماً، ما أبهاها!

وسمّاها بهيّة.

في المرة الرابعة، بينما بطن سعاد ينتفخ، نذر أنه لن يصعد إلى أعلى جبل نيحا حافياً فقط، ولكنه سيُقدم أيضاً ربع أملاكه للوقف لبناء خلوة كبيرة قرب الخلوة القديمة.

في الشهر الخامس قالت سعاد إنها عاجزة عن التنفس. داوتها الخالة ببخار النعناع المغلي وبنقيع صُرم الديك*. بعد أيام تنهدت سعاد وقالت «أخيراً، رجع الهواء يدخل صدري». ذلك اليوم ذاته صادرت العساكر المصرية خمسة جِمال تخص الشيخ عبد اللطيف.

---

* نبتة برّية.

قالوا إنهم بحاجة إليها لنقل الكلس*. لم يغضب الشيخ (رغم أنهم أخذوا أقوى جِماله). خاف إذا غضب أن يُرزق ببنتٍ رابعة، ولا يأتي الصبيّ، وليّ العهد.

وضعت سعاد بنتها الرابعة. هذه المرة عضّ الشيخ شفته السفلى ولطم الحائط بقبضته. سال الدم من أصابعه. نظر إلى الأرض وقال:

ـ آخر مرة.

نظر إلى الطفلة وقال:

ـ دنيا!

غادر البيت دون أن يلمس طفلته. مشى في أنحاء البلدة حتى المساء ثم رجع. حملها إلى صدره، هدهدها، ثم قال:

ـ هذا نصيبي. والمكتوب مكتوب.

بعدها لم يقرب زوجته أبداً.

* شاع هذا التدبير سنة 1834 و 1835، خلال أعمال بناء أول محجر صحي (الكرنتينا) في بيروت برعاية القناصل الأجنبية.

ـ 20 ـ

أواخر أيار عجَّ بيت الشيخ عبد اللطيف القاضي بمشايخ الدروز والموارنة. الأمير بشير طلب من أهل دير القمر جميعاً النزول بسلاحهم إلى قصر الإمارة القديم* وتسليمه إلى الجيش المصري.

(الشيخان)

قال الشيخ ملحم البستاني لصديقه الشيخ ربح نكد، الجالس قربه، ومسبحة العنبر بين أصابعه:

ـ سبّخ، سبّخ يا شيخ ربح!

ابتسم الشيخ ربح ساكتاً. قال الشيخ ملحم المعروف بكلامه الواقف:

ـ أفهم أن يسحب المير سلاحكم. منذ فتك بكم في السمقانية ونهب أرضكم وقطع شجركم وأنتم وراء رأسه. لكن نحن المساكين لماذا يريد سلاحنا! ألم نقاتل ثوراتكم في حاصبيا وراشيا واللجاة وحوران من أجل سعادة خاطره! ثم يأتي ويسرق سلاحنا من أيدينا؟

قال الشيخ ربح ضاحكاً:

ـ الله لا يعطيكم عافية!

---

* قصر فخر الدين.

أخذ الشيخ ملحم المسبحة من يد صديقه، قال:

ـ اترك هذه المسبحة معي، وخذْ هذه!

من طيّات عباءته أخرج غدّارة بمقبض من ذهب ودفعها إلى حضن الشيخ ربح. كان زنادها مكسوراً. تابع الشيخ ملحم كلامه:

ـ هكذا إذا تواجهنا يوماً أضربك بالمسبحة العنبر وتفقس عليّ غدّارتك فلا تؤذيني.

(الخلوة)

عند العصر حام الجنود حول البيت. يوسف رآهم عن المصطبة. كانوا في الزقاق قرب المصبنة*. وبينهم رجال سود، بصدريات حمراء وخضراء، وبواريد طويلة. قرّر الشيوخ عندئذ الانتقال فرادى إلى الخلوة عند طرف البلدة لمتابعة التشاور هناك.

ليلاً، وسط عواء الواويّة، اتخذوا القرار: لن يسلّموا السلاح.

(الطواحين... وإبر الشوك)

في الأسابيع التالية اندلعت ثورات صغيرة في أنحاء البلاد. هاجمت فرقة ثوار، الطواحين** على نهر بيروت، وقتلت الحامية المصرية. حاولت فرقة أخرى قطع المياه عن المدينة لتعطيش الجنود. وقامت فرقة ثالثة بهجوم على الكرنتينا فصدّتها مدافع السفن.

قرب بيت الشيخ عبد اللطيف، في دير القمر، تعارك بعض الفتيان مع جندي مصري ورموه في دغل من الأشواك.

أصيب الرجل بخدوشٍ. لم يزعجه ذلك كثيراً. لكن أبر الشوك

---

* معمل الصابون.

** مخازن حبوب العساكر.

مزقت البنطلون الكتّان الذي لا يملك غيره. صعد من الجلّ ووقف قبالة الأولاد. انحنى على ثقوب بنطلونه وصار يهتز كأنه يبكي.

(في تموز تغلي المياه بالكوز)

كان الحرّ يلهب الأرض. وصلت أخبار عن معارك هائلة تدور في الشام بين إبراهيم باشا والعثمانيين. يوسف فكر في أخوته السبعة. تساءل هل التقوا، أم أن حسن وعمر وخاطر ما زالوا وحدهم. كان قد فَهِم من نسب، قبل أن يترك القرية ويأتي إلى هنا، أن خير الله وأحمد وبشير ويوسف الثاني قد لجأوا في أغلب الظن إلى بيت أختهم شمس* في حوران. لكنه ظل يحسّ، في قرارته، بأن ذلك غير صحيح. في داخله شيء يقول له إن أخوته الآن يخوضون المعارك ويقتِلون ويتعرضون للموت. السبعة معاً؟ هذا ما لا يستطيع تحديده.

في الليل كان يتقلب على فراش القطن الناعم دون أن ينام. الحرّ الفظيع يمنعه. يخرج إلى المصطبة. يملأ يديه بحفنة ماء فاترة من سطل الحديد. يغسل عنقه وتحت إبطيه ووجهه. (في النهار يصير السطل حامياً كالفرن. البخار يتعالى فوق صفحة مياهه). يجلس في ضوء النجوم. يتفرج على سقوف القرميد، وأشجار التوت والزيتون. يرى بعض الوطاويط، تخرج من نوافذ المصبنة تحته، تحوم بين حيطان الأزقة ثم تختفي وسط الكرم القريب. هو والأولاد دخلوا مغارة في الشير الصخري، تحت الخلوة، فوجدوا في الداخل كومةً من بزر العنب. هذه الوطاويط، تسرق العنب من الكروم، وتأكله هنا.

في مغارة أخرى وجدوا بقايا تفاح وظروف لوبياء خالية من

* تزوجت ـ بعد شهرين من سعود ـ رجلاً من راشيا. إثر معارك وادي التيم نزحوا إلى قرية «شيخ مسكين» في حوران.

الحبوب وريش نيص مبعثراً فوق التراب. انتقى يوسف أطول الرِيش.

على المصطبة، في ضوء النجوم، أخرج ريشة نيص من ثوبه، وأخذ يتأملها. تذكر الدروس الأولى على يد أبيه. تذكر الحبر ينقط على الورقة السمراء. تذكر أصابع الشيخ إبراهيم تمسك يده.

عاد إلى فرشته. نام ورأى أخوته السبعة (خاطر وحسن وعمر وخير الله وأحمد وبشير ويوسف الثاني) يركضون في الليل، يصطادون الوطاويط، يشوونها في المغاور مع الجذور البريّة، ويأكلونها في الظلام.

بعد قليل رأى أخاه قاسم أيضاً يدخل المغارة ويشارك الأخوة الطعام. كان بأربعة أصابع في يده اليمنى، كأنه ليس قاسم، كأنه جمال الدين.

استيقظ يوسف مذعوراً. جلس وسط الفرشة. في الجهة البعيدة تنام دنيا وبهية وزهية. جميلة تنام في الغرفة المجاورة مع أمها وأبيها. يسمعها في الليل أحياناً، تتكلم في منامها، تحكي أشياء غير مفهومة.

عند الفجر دخل هواء بارد من النوافذ ذات الشبك. رجع إلى النوم. كانت الديكة تصيح.

هذه المرة رأى يوسف الأول أيضاً، والتوأمين وقد كبرا. كانوا كثيرين. كلّ أخوته، حتى نور الدين، والشيخ إبراهيم، وجميعهم يقفون حاملين البواريد والبلطات، ويبتسمون. ثم رأى نفسه يركض لا يعرف أين. هبط الظلام ووجد نفسه بين بُرَكٍ كثيرة وجعل يبحث عن الطريق. تعثر وسقط فوق جبّ قندول ودخلت الزهور الصفراء في فمه وأنفه وكادت تخنقه. قام وركض. بحث عن شجرات الجوز فلم

يجدها. حدّق إلى الأعلى يبحث عن شبح أبيه، عن اللحية البيضاء، فلم يرَ إلا العتمة. أجنحة الوطاويط تخفق غير مرئية. سقط ثم وقف. كان الآن في قبو الشيخ ناصيف يتفرج على كتاب مطبوع على آلة طباعة غير مخطوط باليد. قال الشيخ ناصيف هي آلة فيها حروف حديد وحبر وعجلات كثيرة وتطبع مئة كتاب قبل أن يخطّ الناسخ كتاباً واحداً. لمس الكتاب بأصابعه محاذراً تمزيق أوراقه. قرأ الكلمتين على الغلاف الأسود السميك «سرّ التوبة». استدار نحو المعلم ناصيف فلم يجده. كان وحده من جديد. وللمرة الثانية رأى أخوته السبعة يختفون في النهار داخل المغاور والغابات ويخرجون عند هبوط الليل لاصطياد الوطاويط وجمع الجذور وتوت العليق.

(هامش على منامات يوسف)

مناماته كانت بعيدة عن الحقيقة. عاش الأخوة السبعة من ربيع إلى خريف تلك السنة، أجمل أيام حياتهم. كان منفاهم كأنّه الجنّة. في مزارع السويدا الخضراء، الغنيّة بالينابيع، ووسط القرى الخالية من الجنود، التقوا بناسٍ من قريتهم، نزحوا إلى هنا على مرّ السنوات. بعضهم نزح قبل زمن بعيد، عقب معركة عين دارة الشهيرة سنة 1711. وبعضهم نزح مؤخراً، بعد صيف 1838، أو إثر معارك 1824 و 1825. وأينما حلّوا ضيوفاً كُرّموا بصفتهم أولاد الشيخ إبراهيم وأحفاد الشيخ خاطر جابر. ولائم وضحك وحكايات. وفي تلّ العمارة وقعوا معاً في غرام سبع أخوات هنّ بنات الشيخ علي أبو غنّام ابن قريتهم الذي هجر داره وأرضه ـ هرباً من بطش الأمير ـ قبل سبع عشرة سنة*.

* هو باني الخلوة عند كتف الوادي، آخر كفربُرك. عرض آل حمادة، من بعقلين، التوسط له عند الأمير، فرفض.

(حكاية شبه خرافية)

طلبوا من الشيخ علي أيدي بناته. قال الشيخ علي:

ـ أنتم أبناء أصل. حسبكم ونسبكم لا يُعلى عليه. لكن يلزم أولاً بركة والدكم الشيخ.

انطلقوا فوراً على الأحصنة. بعد ليلة كانوا في حاصبيا. نزلوا خفيةً في ضيافة معز الدين الطويل، الصديق القديم. تذكره عمر يوم جاء ليلاً إلى كفربُرك رسولاً إلى أبيهم من مشايخ وادي التيم. آنذاك كان جمال الدين ما يزال حيًّا. وقاسم أيضاً.

قال معز الدين بعد أن أخبروه الحكاية:

ـ أذهب أنا إلى الشيخ إبراهيم وأعود بالجواب. أنتم انتظروني هنا.

ذهب معز الدين. انتظروه ثلاثة أيام. لم يرجع. قالوا يكون حصل له شيء. صباح اليوم الرابع، بينما يتشاورون في أمر الرحيل، وصل محمّلاً بالليرات الذهبية في زناره.

أطلق ضحكة وهو يفكّ الزنار، وينظر إلى الليرات تتساقط في رنين على الحصيرة والأرض، ثم قال:

ـ بركة الشيخ واجبة.

انطلقوا فوراً إلى تلّ العمارة. وهو معهم. وصلوا في اليوم التالي. وجدوا الشيخ علي قد بَسَط الحُصر وفراء الخراف في الدار، وأعدّ الذبائح، ومَزَج الشربات.

شربوا التوت المبرد بثلوج جبل الشيخ المحفوظة في المغاور منذ

الربيع. رشّوا مياه الزهر والورد على وجوههم. جلسوا في ظلال شجر الرمان وقد امتلأت أكوازه الصيفية بالحبوب والعصير الأحمر.

استمرت الولائم ثلاثة أيام. أهالي السويدا تناسوا الحرب ضد إبراهيم باشا في هذه الأيام الثلاثة، وشبعوا من «مناسف» الخراف والأرز المشبع بالسمن الحموي، واللوز والجوز والفستق المحمّر. كان الصيف يشرف على نهايته. قرروا عقد الزواج السباعي، بعد يوم من المطرة الأولى، للتبرك. الشيخ علي أبو غنّام قال إن هذه عادة قديمة من عادات العرب البائدة. وهم وافقوا: قد صبروا عقوداً قبل أن يجدوا نساءهن، فلينتظروا يوماً أو يومين بعد!

كان آب قد انتهى وأيلول صار في نصفه. جاءت الأخبار أن مدافع الأتراك والإنجليز قصفت بيروت من البحر. سمعوا أيضاً أن «المير بشير قد فرّ من بيت الدين راكباً سفينة فرنسية إلى جزيرة مالطة»*. وأن إبراهيم باشا يحشد الجنود للمعركة الأخيرة.

الأخوات السبع كنّ في دار الأب الشيخ الأخرى في طرف القرية البعيد. ذهب الأب الشيخ إليهن بعد أن سمع هذه الأخبار ثم رجع إلى الأخوة السبعة الضيوف على داره الكبيرة ـ هم وصديقهم الذي من حاصبيا ـ وقال لهم:

ـ بناتي لا يرغبن إلا بالسعادة والعمر الطويل معكم. أنتم لهنّ، وهنّ لكم. وفرحي بكم وبهنّ فرح الوالد بسعادة أولاده.

---

* إشاعة سبقت الحدث، مصدرها المبعوث الإنجليزي الداهية ريتشارد وود. ولن تكون السفينة فرنسية وإنما إنجليزية. ولن يقدم الأمير بشير على الفرار من قصره إلا بعد معركة بحرصاف بيومين.

سكت الشيخ بعد هذا القول. كانوا يتوزعون على حشايا القاعة الفسيحة، تحت أضواء القناديل، وانتظروا كي يتابع كلامه. أخيراً قال:

ـ لا يجوز أن يُقال إن أولاد الشيخ إبراهيم خاطر جابر وأولادي كانوا في الأفراح، وأخوتهم في التوحيد وعساكر سلطانهم المفخّم تخوض في بحار الموت على بعد قدم.

من النافذة والباب المفتوح دخلت أصوات الليل. خرير مياه الينابيع. أغاني حشرات الليل. عواء الواويّة. ومع الأصوات جاءت رائحة الحقول.

لم يكن بحاجة إلى متابعة الكلام. قفز خير الله واقفاً، وخلفه أخوته. كانوا يعرفون أن فلول الثوار تتجمع في قرى المتن بانتظار وصول العساكر العثمانية. ركبوا الأحصنة وانطلقوا. معهم معز الدين الطويل.

بينما يتسلقون الجبال ويهبطون الأودية التقوا جنوداً هاربين والتحموا معهم بالخناجر والبلطات. كان النصر دوماً حليفهم.

حين بلغوا سهل البقاع قال معز الدين:

ـ الشيخ علي رجل مُفوَّه.

التفتوا نحوه غاضبين. قالوا:

ـ هذا عمّنا يا معز!

بعد ذلك لم يأتِ على ذكره.

هطلت المطرة الأولى قبل يومين من المعركة. في سهل

بحرصاف في المتن اشتبكت الجيوش المصرية (ومعها جنود من جيش الأمير خليل) بالجيوش التركية (ومعها جنود من سفن الإنجليز) تحت الرذاذ.

الأخوة السبعة ركبوا معاً للمرة الأولى بالبواريد والبلطات والغدارات والخناجر. كانت الأرض موحلة، لكن أحصنتهم خبّت كأنها تطير. أحسّوا أنهم قد توحدوا في كائن واحدٍ، بسبعة رؤوس، وأطراف لا تُحْصى. كانوا كتلة واحدة مصنوعة من اللحم والحديد. لحمهم ولحم أحصنتهم، وحديد سلاحهم الذي نظفوه طويلاً بالأمس.

لم يركبوا ويهاجموا ضدّ إبراهيم باشا أو ضدّ الأمير خليل أو الأمير بشير. كانت هذه حربهم، لا ضدّ أحد، وإنما من أجل أن يحاربوا معاً أخيراً. كانوا ينتقمون من أنفسهم، ولأنفسهم. كانوا ينتقمون من قاسم ومن جمال الدين، ولأجل قاسم ولأجل جمال الدين. هذه المرة لن يجدوا أخاً لهم في وجه بواريدهم. هذه المرّة، كلّهم في هذه الجهة، كتلة واحدة، تنقض على الجهة الأخرى، كجلمود صخر.

كانت الأحصنة ترتفع بهم فوق الجثث والسيوف والقنابل. أحصنة من سلالة الخيل الزحلاوي الأصيل الذي شارك في معارك القرون الماضية. هذه الأحصنة بالذات، حصلوا عليها من الشيخ حسين جنبلاط، في حوران. أخبرهم أن أسرته لم تركب إلا خيول هذه السلالة منذ زمن الجدّ الأكبر، علي ربح جانبولاد، باني دار المختارة في زمن الإمارة المعنية. قال الشيخ حسين جنبلاط إن جدّه الأكبر علي ربح جنبلاط، شيخ مشايخ العُقال آنذاك، حصل على هذه الخيول

حين نال سهل البقاع ـ بكل أراضيه وقراه ـ هديةً من والي عكا*.

الأخوة السبعة، على الأحصنة الجميلة السبعة، حاملين البواريد السبع، طاروا وسط سحب البارود وفرقعة المدافع، مستجيرين بالحدود الخمسة على العدو، متذكرين الأيام القديمة القديمة في الوادي تحت كفربُرك وهم يطاردون معاً الغزلان، وفي الشتاء يصطادون الخنازير ويربطون للدجاج والحجال في الشِعاب. ها هم الآن يواصلون ذلك الزمن، وأجسامهم تتحوّل جسماً واحداً يتذكر الأجسام الأخرى الغائبة (قاسم، جمال الدين، يوسف الأول) وبينما يتذكرها يحتويها.

من جديد ينطلقون سوياً. الغيم يضمحل في السماء، وصوت معز الدين خلفهم. كانت لحظة جليلة. أبصروا الوجوه السود، وصفّ البواريد، كأنهم يحدّقون في فوهات آبارٍ متلاصقة، أو كأنهم ينظرون إلى جحور فئران متقاربة. كانت مواسير سوداء معتمة، في أيدي رجالٍ سودٍ. وكانوا يطيرون فوق الجثث، ووسط غيوم الدخان، نحوها. هم في مواجهة المواسير المعتمة. وعرفوا أن السماء معهم. وعرفوا أن والدهم الشيخ يصلّي ويذكرهم في صلاته في هذه اللحظة. وعرفوا

* عُرف الشيخ علي ربح جنبلاط بمكره وكرمه. بنى في مزرعة الشوف، وفي المختارة، وفي بعذران، «منازيل يطرقها الغرباء والضيوف والعابرون للأكل والمنامة... واستقل بالنفقة عليها». بلغ خبر كرمه والي عكا، وكان في ورطة يومها، وبحاجة إلى «ثلاثين ألف قرش يستعين بها على سفره العاجل إلى الآستانة العلية». فأرسل إليه يطلب المبلغ ديناً. فوراً بعث الشيخ علي بالمبلغ هديةً إلى الوالي. بذلك المال أعدّ الوالي قافلته وانطلق من عكا نحو القسطنطينية مارّاً بسهل البقاع. في الدرب كان يسأل الدليل أين قرية الشيخ علي. توقف الدليل، أشار إلى الجبال التي تفصل السهل عن الشوف، وقال: «خلف هذه». نظر الوالي إلى الخضرة حوله وسأل: «وقُراه غنية خصبة؟». قال الدليل: «بل فقيرة جافة». عندئذٍ قال الوالي: «سلام عليكم يا شيخ علي. لئن رجعت والياً على الشام لأحيلن هذه السهول إليك».

أنهم قد بلغوا الهدف. من هنا الحياة سهلة. من هنا كلّ شيء في قبضتهم. سوف يعيشون لزمن طويل، يقترنون بالأخوات السبع، ينجبون سلالة من الأبطال، ويملؤون الأرض بنسلهم. سوف يُعمّرون حتى يبلغوا المئة والمئتين من السنين. كالأجداد والأسلاف. وسوف يزحمون البيت حول أبيهم الشيخ بأصواتهم. ويعجقون شيخوخته بضحكات الأطفال اللذيذة.

كانت لحظة جليلة دامت في خيالهم دهراً. حصلوا على زوجات، أنجبوا الأولاد، أبصروا الأحفاد وفرح الشيخ إبراهيم، وعرفوا لذة البقاء، والعيش الهادىء.

كل ذلك وسط المعركة. كانت لحظة جليلة، وصاروا قبالة البواريد. طاروا عالياً كالصقور ثم انكسروا في نصف الوثبة تحت وابل خردقٍ مزّقهم ومزّق الأحصنة.

ـ 21 ـ

رحمت السماء الشيخ إبراهيم، فقضى نائماً قبل أن يبلغه خبر أولاده السبعة.

نسب سمعته في أول الليل يهمهم. ثم غرق في النوم وعلا شخيره. بعد فترة تلاشى الصوت.

ظلَّت تتقلب في فرشتها، والمطر يهطل في الخارج، حتى الفجر.

نهضت. ألقت نظرة على نور الدين. ينام ووجهه إلى الحائط. البطانية كانت ملقاة أسفل ساقيّ الشيخ إبراهيم. اقتربت لتغطيه. تخاف في أول الخريف أن يلطشه الهواء ويمرض في صدره.

عندما لمست كتفه عرفت. كان كتلة جليد. والرجفة قد غادرت جسمه.

ـ 22 ـ

هُزم إبراهيم باشا في بحرصاف. رجع بما تبقى من قواته إلى مصر حارقاً القرى في طريقه. فرَّ الأمير بشير شهاب من الشوف. نزل إلى صيدا للاحتماء في خان الإفرنج مركز القنصلية الفرنسية. وجد الأتراك والإنجليز يطوّقون الخان كالمحبس حول الإصبع. مع أولاده وحاشيته وأكياس الذهب، استقل بارجة بريطانية إلى جزيرة مالطة.

*

المشايخ الدروز الذي تمردوا على الحكم المصري ونَفَاهُم ابن محمد علي إلى سنار ـ جنوبي الخرطوم في السودان ـ رجعوا الآن برّاً وبحراً. والمشايخ الذين نزحوا خلال الحروب الماضية إلى الشام رجع نصفهم أيضاً. وجدوا البيوت مهدمة، والبساتين يابسة، والأشجار مقطوعة.

(لِقــاء)

نسب، بعد جنازة الأب الشيخ، ظلت تنتظر أخوتها يوماً بعد يوم. كلّما رجع أحدٌ من حوران ذهبت إلى بيته تسأل عن أخوتها. هل تزوجوا؟ وإذا كانوا تزوجوا فهل سيرجعون؟ ومتى؟ لا أحد يعطيها جواباً. بعد فترة أخبروها أن أخوتها السبعة خطبوا بنات الشيخ علي أبو غنّام لكنهم أبوا الزواج قبل انتهاء الحرب. وآخر ما سُمع عنهم

ركوبهم الخيل إلى بحرصاف أول تشرين.

هذا الخبر أتعبها. باتت تلقي جسمها بين القبور المتكاثرة*، في ظلال التوت، ملتفةً بالبطانية. تتفرج على ألوان الخريف، وعلى نور الدين يلاعب سلحفاةً بقصبة. نظرتها زائغة لا تتركز إلا عند ظهور شخص على الطريق. تحسب أنه الرسول أتى بخبر أخوتها أخيراً: ماتوا؟ أم هم بخير وسوف يرجعون في الغد؟ لم تكن تعلم.

تحدّق والشخص يقترب. ثم ترى الخراف خلفه. أو المعول على كتفه. أو المقطف في يده. هذا راعي غنم أو فلاّح نازل من القرية إلى الوادي. يلقي التحية. تردُّها. لا يسألها عن أخوتها. وهذا يزيد هواجسها. ماذا لو أن أهل القرية يعرفون ويخشون إخبارها! ذلك المغيب قررت نسب أنها من الصباح ستركب البغلة مع نور الدين إلى دير القمر. لن تعرف شيئاً بالبقاء هنا. سوف تقصد أختها أو الخالة. قبل أن تطُق.

بعد هذا القرار وقفت لتجمع الدجاج. لحق بها نور الدين يركض خلف الدجاجات الحمراء، تاركاً لها جمع الدجاج الأبيض وديوك الحبش.

في ضوء آخر النهار، بينما تُقفل بوابة القبو الثقيلة على الدجاجات والغنمات، سمعت صهيلاً. استدارت فرأت رجلاً تعرف وجهه، لكن أين ومتى رأته من قبل لم تتذكر بالضبط.

ترجل الرجل عن حصانه وسط دار البحص. تقدم نحوها. هي

* دفنتْ الشيخ جنب زوجته سارة. (على بعد خطوة، بين مسكبتين من زهور «تم السمكة»، يرقد يوسف الأول مع عائلته).

جذبت نور الدين إليها.

هذا مُعز الدين الطويل. تذكرته حين رسم ابتسامة على وجهه. نادى الصغير. سألها عن يوسف الثالث. لم يسألْ عن الشيخ إبراهيم. كان عَرِفَ بموته، على الطريق، قبل يومين. نظر إليها وسكت.

- 23 -

كانت تكبره بأكثر من عشر سنوات. لم يكن فقيراً ليطمع بمالٍ أو دارٍ أو أرض. في حاصبيا عُرِف بالقوّة والدهاء. طوال فترة الحكم المصري خبّأ البواريد في المغاور وتحت التراب ملفوفةً بالجنفيص في انتظار ساعة القتال. قطع آلاف الكيلومترات ذهاباً إياباً، ينقل الرسائل الشفهية بين المشايخ في حوران، وبين المشايخ الذين ظلّوا في الجبل اللبناني. كلّهم. المعزولون في الخلوات. الوكلاء عند الأمير وأنجال الأمير. الممدّدون على فراش المرض. الراكضون من قرية نائية إلى مغارة. كالعنكبوت. يشبك خيطاً هنا، ويلحم خيطاً هناك، ويربط كل شيء بكل شيء.

(الأسلاف)

قُتل أبوه وعمه في معركة السمقانية. قبل المعركة، وخلالها، بينما طرح الصوت* يمتد إلى المتن، وبنو هلال يهرعون من قرنايل، وبنو معضاد من بزبدين، مسرعين لنجدة الشيخ بشير، وبينما جنود الأمير بشير يُطبقون على سهل السمقانية من ثلاث جهات مدحرجين الحجارة الضخمة أمامهم في المنحدر، كان الشيخان حمزة وسعيد

* المناداة إلى القتال.

الطويل، يقاتلان كتفاً إلى كتفٍ، وقربهما الشيخان علي جنبلاط وعلي العماد. شكّلوا مربعاً لحماية ظهور بعضهم البعض، وتحركوا في دائرة حول مركز المربع الذي صنعوه بأجسامهم، حتى فرّقتهم الشفرات.

الشيخ علي جنبلاط قضى نازفاً على بعد كيلومترات، في مغارة نيحا، بين يديّ الشيخ إبراهيم جابر وغنطوس آغا القهوجي.

الشيخ علي العماد فرّ مع الشيخ بشير جنبلاط إلى حوران، سالكاً طريق حاصبيا ـ مجدل شمس. طلبهما والي عكا عبد الله باشا. ذهبا لعنده. شنقهما على بوابة القلعة*.

الشيخان القادمان من حاصبيا، حمزة وسعيد الطويل، سقطا في أرض المعركة. نزفا تحت سماء تتلّون بالبرتقالي. صرخا عطشاً. ثم فاضت الروح من حمزة. ظل سعيد وحده ساعةً ثم شهق ومات.

ترك سعيد من بعده ثلاث بنات. حمزة ترك شاباً واحداً هو معز الدين. تكفّل معز الدين بتزويج بنات عمّه. حين انتهى من هذه المهمة انصرف إلى الجهاد.

قيل في وادي التيم إن بنات جاره الأرثوذكسي سليمان نمر تقاتلن عليه.

حدث ذلك أم لا، هذا غير مهم. الإشاعة بحد ذاتها لها معنى. الرجل كان محبوباً. رفاقه اعتادوا الحديث عن شروده، وميله إلى

* في هامشٍ على مخطوطة «الحركات في لبنان» أن الشيخ العمادي الذي شُنق مع الشيخ بشير هو أمين عماد، لا علي.

التنقل وحيداً في شِعاب الجبال. ذلك يُذكّرُ بأجداده ـ مشايخ «خلوات البياضة» الكبار ـ الذين اشتهروا بحُبّ العزلة*.

تزوج نسب.

* هو ـ في المقابل ـ اشتهر بحبّ التبغ.

ـ 24 ـ

رفضت سعاد أن تَرُدَّ يوسف إلى نسب. قالت عندكِ نور الدين، وعندكِ زوجك الآن، اتركي يوسف عندنا، الشيخ عبد اللطيف يموت فيه، وهو سعيد بين البنات ويحبّهن كأخواته.

قالت نسب:

ـ ونُفرّق بينه وبين أخيه الصغير! ونبعده عن بيته!

تدخلت الخالة حبوس:

ـ يا نسب، اسمعي من فمي العجوز، يوسف يعيش في الهناء هنا.

رضخت نسب. ما عادت قادرة على قتال أحد.

(حياة جديدة)

في السنة التالية دخل يوسف عبر باب قصر جرجس باز ـ القريب من بيت الشيخ عبد اللطيف ـ فوجد نفسه يبدأ حياة جديدة.

(قَصر الحياة الجديدة)

لم يكن يوسف إبراهيم خاطر جابر يعلم أن هذا القصر الذي بناه الشيخ جرجس باز سنة 1784 قد بدّل من قبل حياة أكثر من شخص واحد.

يوم انتقل الشيخ جرجس للعيش فيه، قال له الأمير يوسف الشهابي:

ـ بعد أن كنت ضيفي في الليل والنهار صرت جاري يا شيخ جرجس!

من نافذة قصره الجديد كان الشيخ جرجس يرى كل القادمين إلى قصر الإمارة القريب. وهكذا رأى ذات يوم شاباً غريباً قادماً على دابة بيضاء بلون الثلج.

الشاب أيضاً، ويُدعى بشير قاسم شهاب، وعمره آنذاك خمس عشرة سنة، رأى الشيخ الجالس خلف النافذة وتساءل للحظة من يكون. بعدها دخل قصر الإمارة، وطلب مقابلة الأمير يوسف.

سأله الأمير:

ـ ماذا تريد؟

قال الشاب:

ـ أنا ابن ابن عمك. عشت حتى الآن في كوخ في كسروان. أخي الكبير حسن ما زال هناك يعاند صخور الأرض ليزرع شتلة. أنا أريد الخدمة تحت يدك.

منح الأمير، الشاب، غرفة في قصره. قال:

ـ أريدك أن تلازمني يا بشير.

الشيخ جرجس أرسل إلى كسروان من يجمع أخبار هذا الشاب. عادوا يخبرون أنه فتى غريب الأطوار، يحب الجلوس لساعات بين أدغال القندول والشوك، ولا يلعب مع الأقران أبداً.

بعد ثلاث سنوات، من نافذة القصر ذاتها، رأى الشيخ جرجس، الشاب المدعو بشير، خارجاً من قصر الإمارة بلحية سوداء ممشطة. أتوه بحصان. ركبه وانطلق مبتعداً عن دير القمر.

نزل الشيخ جرجس إلى القصر وجلس مع الأمير يدخنان ويتبادلان الكلام.

تلك الليلة، في قاعة القصر الكبرى، قال الشيخ جرجس لأخيه عبد الأحد:

ـ الأمير يوسف أرسل بشير إلى حاصبيا لتقييم إرث المقتول*.

قال عبد الأحد:

ـ إذاً؟

قال جرجس:

ـ الله يستر.

في حاصبيا التقى بشير، ابن الثامنة عشرة، الأميرة شمس، أرملة القتيل. على مائدة العشاء قالت:

ـ عادات الأمراء خبيثة. كيف يقتل الواحد خاله ليأخذ أرضه؟

قال بشير:

ـ لا أعرف. لم أربَ بين الأمراء.

بعد ليلة تزوجها.

الشيخ جرجس، من نافذة القصر ذاتها، رآه عائداً، وحوله رجال على أحصنة، البواريد تعكس الشمس عن أكتافهم، وسيوفهم لامعة.

* كان هذا خال الأمير يوسف. قتله بعد خلاف نشب بينهما.

ترجّل بشير في ساحة دير القمر. رفع رأسه فرأى الشيخ جالساً خلف النافذة. هتف:

ـ انزل وبارك لي بزواجي يا شيخ جرجس.

بعد الزواج ترك بشير قصر الأمير ليسكن في دارٍ قريبة. خلال أشهر عقد صداقة مع الشيخ بشير جنبلاط. معاً خطّطا للقضاء على الأمير يوسف. قدّما ذهباً كثيراً لوالي عكا. والوالي طلب الأمير يوسف إليه.

خلال شهرين انتهى كل شيء. هزم الأمير بشير الأمير يوسف وتسبَّب بشنقه.

الشيخ جرجس أغلق نافذة قصره، وأغلق البوّابة، وفرّ مع أخيه عبد الأحد إلى جبيل، حيث لجأ أنجال الأمير يوسف. كان ذلك سنة 1788. بعد أربع سنوات وحسب من وصول الغريب (بشير) إلى دير القمر.

تعاون الأمير بشير مع حليفه الشيخ بشير على التخلص من أعوان المير يوسف. فتك بالنكديين والعماديين وأرسل السعاة يتقصون أخبار أنجال المير يوسف.

ذات صباح، واقفاً في الباحة أمام قصر الإمارة الذي بناه فخر الدين قبل قرنين، لاحت منه التفاتة إلى نافذة قصر جرجس باز. كانت مقفلة وكالحة اللون. دار برأسه ونظر إلى القاطع المقابل، إلى هضاب بيت الدين، بالأشجار الكثيفة والطيور التي تحوم حولها. في تلك اللحظة قرّر أن يبني قصراً هناك، أضخم من كل هذه القصور هنا.

في ليلة مظلمة تسلل جرجس باز إلى قصره. حفر تحت النافذة.

زاح بلاطة حجرية. أخرج صندوقاً ثقيلاً. فتحه. شعّ أصفر الذهب.

عبد الأحد لم يكن معه. كان في جبيل يجمع مالاً. عندهما خطة: سينتقمان من الأمير بسلاحه ذاته. هو استخدم ذهب الشيخ بشير؛ هما سيستخدمان ذهب العائلة والليرات التي سيجمعانها ـ مع أنجال المير يوسف ـ من المناصرين.

عند الفجر شقَّ جرجس درفة الخشب ونظر من النافذة. منذ سنوات لم ينظر من هذه النافذة. تحته كان قصر الإمارة معتماً. يعرف أن الأمير بشير يبني قصراً في القاطع المقابل.

استمر جمع الذهب سنوات. لكن والي عكا ظلّ يطلب المزيد. يطلب من الجميع، ويضرب الجميع بالجميع، ويطلب أكثر. خلال هذا الوقت بدأ القرن التاسع عشر وظهر القصر الفخم تدريجياً فوق هضبة بيت الدين.

أعلن الأمير بشير العفو عن الفارّين من دير القمر. رجع جرجس باز إلى قصره. في صباح خريفي وُجد مقتولاً في فرشته، تحت النافذة.

في اليوم ذاته ـ قبل وصول الخبر إلى بلاد جبيل ـ تلقى عبد الأحد باز بلطة في صدره قتلته فوراً*.

بعد الجنازة بيومين احترق قصر باز. اسودت جدرانه. تفحم

* نُفِّذ هذا الإعدام المزدوج بأمرٍ من الأمير بشير على يد الشيخين الدرزيين أحمد جنبلاط المعروف بالنعسان ونصيف نكد الملقب بـ «بو نسيم».

خشب مشربياته ونوافذه. لم يُعرف الفاعل. خرجت الثعابين من جورة الذهب الفارغة وسعت بين الفرش المحترق. العناكب توزعت زوايا السقف. مع مرور السنوات نبت الشوك والعشب بين بلاطات الباحة. لون الدرج حال إلى الأسود. الكوّات العالية صارت ملجأً للعصافير.

ظلّ القصر مقفلاً قرابة الثلاثين سنة. الأولاد كانوا يخشون الدخول من نوافذه المشلّعة، بسبب الحكايات عن الأفاعي داخله. بعض أهل الخير طرقوا خشباً بالمسامير في بوابته المثقوبة المتداعية لئلا تقع على عابر سبيل فتقتله.

ظلّ القصر على هذا الحال إلى أواخر 1840. في خريف تلك السنة رحل الأمير بشير عن الجبل، بعد أكثر من خمسين سنة حُكم. عندئذٍ أقدم ورثة الشيخ جرجس على فتح القصر المهجور وإصلاَح نوافذه وسلالمه، وغسل أرضه، ومسح حيطانه بالماء والكلس.

يوسف الصغير راقب كل هذا مع بنات أخته. سأل أحد الأولاد من سيسكن هنا. قالوا ـ الولد الأول، ثم الثاني، ثم الثالث ـ لا نعرف. شتاءً غطى الثلج القصر.

في الربيع وصل المرسلون.

(المرسلون)

جاؤوا من وراء البحار، من وراء الأبيض المتوسط، ومن وراء البحر المحيط*. في رحلة تستغرق شهراً ونصف قطعوا الأتلانتيك،

---

* أحد إسمين قديمين (الآخر: بحر الظلمات) للمحيط الأطلسي. ذكر المسعودي (القرن العاشر للميلاد) في «أخبار الزمان» أنه يمٌ معتمٌ وملىءٌ بجزرٍ مسحورةٍ: جزر تتألق بقصور زجاجية مهجورة، وجزر تسكنها الحوريات، وجزر تحفل بالسمك الطائر.

عبروا مضيق جبل طارق، وبلغوا إزمير على الشاطىء التركي. هناك انتظروا البواخر العاملة على خط الآستانة ـ إزمير ـ بيروت ـ يافا. كل شهر تنطلق سفينة. أخيراً جاءت باخرة نمساوية. ركبوها إلى قبرص ثم إلى بيروت. هذا الجزء من الرحلة سهل ـ البحر ليس المحيط ـ وسريع. (المتوسط تمخره البواخر، أما الأتلانتيك، الذي يستنفذ وقود البواخر، فتعبره السفن الشراعية وحسب). بلغوا بيروت لكن الرحلة لم تنتهِ. حراس المينا رفضوا السماح لهم بالنزول. عليهم البقاء ـ مع كل صناديقهم ـ في الحجر الصحي (الكرنتينا) مدة نصف شهر. (المدّة الرسمية: 40 يوماً*. لكن التسامح موجود). بعد هذه الفترة في الغرف المشققة السطوح التي تدلف منها أمطار الربيع، خرجوا إلى برّ الشام، يكرزون بالإنجيل، ويدعون إلى المذهب البروتستانتي، المسلمين والدروز وأبناء الطوائف المسيحية جميعاً.

رحلاتهم بدأت بعد سنة 1801**. في 1822 أنشأوا أول مدرسة في بيروت. (بليني فسك علّم الإنجليزية. إسحق برد علّم الإيطالية. الأول مات قسيساً، الثاني ترك التبشير بعد فترة، ورجع إلى جبال كولورادو حيث تحوّل إلى مُزارع وراعي أبقار).

سنة 1828، أمام ضغط الكنائس المارونية والكاثوليكية والأرثوذكسية، وإثر وقوف بريطانيا إلى جانب ثوار اليونان، طرد السلطان العثماني المرسلين خارج الإمبراطورية. (حُسبوا بريطانيين بسبب لغتهم).

بعد ثلاث سنوات، بزوال السلطان العثماني عن بلاد الشام،

---

* Quarantaine.

** تاريخ تأسيس «المجمع الأميركي لمندوبي البعثات التبشيرية» في بوسطن.

توافدوا من جديد. استقروا في بيت الصوصة خارج بوابة يعقوب. ثم بنوا مركزاً تحت تلّة البرج الجديد* قبل باب إدريس. من هذه النقطة لصق سور بيروت انطلقوا نحو الجبل. كانوا حتّئذٍ يدخلون بيروت مباشرة بلا قضاء نصف شهر في حبس الكرنتينا. ذلك أن الكرنتينا لن توجد إلا بعد سنة 1834، بفضل الفرنساوي غيز.

المرسلون الذين استأجروا قصر باز في ربيع 1841، جاؤوا في ربيع 1840 من وراء البحر. في الكرنتينا، خلال 14 يوماً، حفظ أحدهم (وكان شاباً في الثانية والعشرين من العمر، وحاملاً للشهادة الطبية من مدرسة جفرسون الأميركية) مئتي كلمة عربية، وهو محشور بين صندوق ثيابه وصندوق كتبه، والرطوبة تملأ صدره بالبلغم.

من ذلك الربيع إلى الربيع التالي تجول هذا الشاب في بيروت ثم سافر إلى القدس. هناك، تعلّم العربية على يد ميخائيل عرمان، أحد تلامذة الدكتور طمسون. (كان عرمان قد تبحّر في العربية على يد راهب مشهور من دير المخلص يُدعى دانيال). من القدس رجع برّاً ـ تحت المطر الغزير ـ إلى بيروت. على الطريق رأى خان القاسمية مقفلاً. رأى القرى تحترق. رأى الجيش العثماني يسيطر على التلال. ورأى فلول القوات المصرية تهرب في الجرود. في بيروت وجد مدرسة المرسلين خالية من التلاميذ (معظمهم أرثوذكس ودروز استأجرهم الضباط الإنجليز** للترجمة بقصد تسهيل سياحتهم في البلاد). لاحظ أن البواخر الإنجليزية والتركية والنمساوية ما تزال راسية قبالة المينا. حين دخل الحديقة خلف بناية المرسلين رأى 40

---

* سوف تُسمى بعد فترة تلّة «القشلاق». (الثكنات العثمانية بُنيت هنا بعد رحيل إبراهيم باشا).

** من سلاح الهندسة البحري.

قنبلة مصفوفة تحت شجرات التين. رتّبها على هذا النحو الياس فواز وامرأته المقيمان هنا لحماية بيت الدكتور عالي سميت خلال فترة غيابه في أميركا. (ذهب إلى هناك، ثم إلى ألمانيا، ثم إلى تركيا، لصنع قوالب حروف جديدة للمطبعة).

هنا، في البناية، خُصَّ الشاب بغرفة المكتبة. بعد أيام التقى شاباً يُدعى بطرس البستاني درس في مدرسة عين ورقة، ثم تخلى عن مارونيته، وجاء للعمل عند المرسلين. تصادقا. علّمه الشيخ بطرس العربية. (كان هذا أستاذه الثالث، بعد عرمان الذي علّمه في القدس، وبعد الكتاب الذي قرأ فيه 200 كلمة عربية في الكرنتينا). وفانديك* علّمه ـ بالمقابل ـ فن الصيدلة.

في يوم من أيام نيسان 1841، أرسل الدكتور طمسون في طلبه، هو والدكتور عالي سميث. (رجع قبل مدّة، ومعه الحروف سبكها له، في لايزبك، رجل أميركي يُدعى هالك «عن أحسن خطوط كتبة زمانه في الاستانة العليا»). على الفور مضى فانديك إلى بيت الدكتور طمسون فوجده مزدحماً بالمشايخ الدروز**.

كانوا قادمين من دير القمر وعين عنوب وعبيه وبتاتر وقرنايل والمختارة وكفرنبرخ وبعقلين. طلبوا من المرسلين أن يفتحوا مدارس في قراهم.

سألهم الدكتور عالي سميث:

ـ متى؟

---

* هذا اسم الشاب الأميركي حامل الشهادة الطبيّة من «جفرسون».

** بدأت العلاقة الطيبة بين الدروز والأميركان خلال فترة الحكم المصري. إذ لجأ بعض دروز بيروت إلى التنصّر وقبول العمادة على يد القساوسة البروتستانت للتهرب من أداء الخدمة العسكرية. هذا بالإضافة إلى مناصبة المير بشير الثاني العداء للطائفتين معاً.

أجابوا:

ـ غداً إذا استطعتم. تستأجرون بيوتاً أو نستأجرها لكم. وتصعدون.

سأل الدكتور سميث، فانديك، رأيه. قال فانديك طبعاً. ابتسم الدكتور طمسون. تمّ الاتفاق. ووُضعت طاولة الطعام. (في مذكراته* كتب فانديك عن ذلك اللقاء ذاكراً بعض أسماء المشايخ في الوفد الدرزي، وبينهم الأخوة مشايخ آل القاضي الثلاثة: قاسم وأحمد وعبد اللطيف).

تأخر المرسلون في الصعود نصف شهر. لكنهم صعدوا. الدكتور طمسون فتح مدرسة في عين عنوب. فانديك والدكتور سميث توجها إلى دير القمر، يصحبهما المستر ولكوت الذي استأجر قصر باز من ورثة المرحوم الشيخ جرجس.

بعد ثلاثة أيام فتحوا المدرسة في قاعة القصر الكبرى.

(المدرسة)

الثلوج لم تذُب بعد في زوايا الجلول ومطارح الظلّ. أعشاش العصافير ما تزال ظاهرة في الكوى العالية للقصر الذي عاد إلى الحياة لتوّه. حين هبّ الهواء الصباحي ـ هواء الساعة العاشرة ـ بدأ الطلاب بالتوافد.

وصل أخوان من آل نكد. أحدهما في التاسعة عشرة، الآخر أصغر بسنة. بعدهما دخل صبي يعرج من ساقه اليسرى الأقصر من اليمنى بقليل. كان من آل تلحوق، ولا نعرف اسمه الأول، ولن يبقى

* نشرتها مجلة «الهلال» المصرية سنة 1906، بعد 11 سنة على موت كاتبها.

طويلاً في المدرسة. الطالب الرابع كان في السابعة - أو الثامنة - عشرة. أكبر من الصبي الأعرج* بسنة أو سنتين لكن أصغر من كبير الأخوين نكد. بعده دخل الطالب الخامس. كان هذا يوسف إبراهيم خاطر جابر.

قَطَعَ العتبة النظيفة تحت قوس البوابة الحجري الذي ما يزال محتفظاً ببعض آثار الحريق. وجد نفسه وسط قاعة فسيحة شبه خالية. رأى في زاوية بعض الأولاد على طراحات. وفي زاوية أخرى ثلاثة رجال في أثواب سوداء طويلة. أحدهم لحيته بيضاء كالثلج.

كانت القاعة غارقة في ضوء الشمس. ضوء أصفر - أبيض ينحدر في عواميد من النوافذ والكوى. داخل العواميد الأسطوانية الشكل تراقصت آلاف ذرّات الغبار. تقدم يوسف خطوة. وقف وسط الظلال.

* وُلد سنة السمقانية.

- 25 -

في أيار، بعد يومه الخامس أو السادس في المدرسة، رجع من قصر جرجس باز إلى البيت فوجد الشيخ عبد اللطيف ممدّداً على جنبه، وعلى وجهه علامات سوداء وزرقاء.

سأل يوسف شاباً واقفاً في الباب ماذا حدث؟

أخبره عن الحجلة.

(الحجلة)

في الخلّة، الوادي بين دير القمر وبعقلين، حصلت مشاجرة بشأن حجلة، بين درزي من بعقلين، ومسيحي من الدير: عند الصباح رشّ البعقليني حبّاً في مطعمة نصبها للحجال عند كعب زيتونة. بعد ذلك صعد إلى بيته في رأس النحل، عند كتف الوادي، كي يأكل لقمة مع زوجته. أكل لقمة، وقعد ساعة، ثم انحدر في الجلول تحت بعقلين نحو الخلّة. بينما يقترب من المطعمة رأى رجلاً ببارودة يقترب من الجهة المقابلة. كان هذا الديري، رأى الحجلة تدخل المطعمة أو تدور حولها لا فرق، المهم فقس بارودته عليها.

في اللحظة التالية، وسط عاصفة الريش الطائر والملطخ بالدم، اشتبك الرجلان.

خرجت الضجة من الوادي، وتسلقت الجلول عن الجانبين، إلى أعلى. نزل من هنا ناسٌ، ومن هناك ناس. الشيخ عبد اللطيف هبط يصالح بين الطرفين فأكلها كذا لكمة. سقط من جلّ إلى جلّ وكاد يكسر وركه.

حلَّها الشيخ ربح بك نكد. جمع المتقاتلين، قرب خلوات رأس النحل، وصالحهم، ثم عاد بالديريين معه إلى دير القمر. انتهت المسألة.

(هل انتهت)

في ديوان الشيخ عبد اللطيف سمع يوسف الصغير القصة تُعاد وتُكرر.

أحد مشايخ آل نكد الذين صالحوا دروز بعقلين وموارنة الدير قال إنه وهو عائد مع الديريين سمعهم يقولون:

ـ بدنا نعملها لهم*. ما عادوا يتهدوا بعد مجيء شيوخهم.

(عودة الشيوخ)

عادوا من حوران. عادوا من سنار. عادوا من أسطنبول، ومن معارك المتن والفرات والأناضول. وجدوا الشجر محتطباً، العشب ينمو في حيطان البيوت، والأراضي موزعة على أتباع المير بشير. بدأت الخلافات.

* «الحركات في لبنان».

الشيخان نعمان بك* وسعيد بك** جنبلاط، ابنا المرحوم الشيخ بشير، باشرا تسليح الرجال.

بعد عودة الشيوخ انتظم شبان جزين وجوارها في فرق مسلحة تحرس القرى ليلاً خوفاً من الدروز.

يوسف كان يسمع هذه الأخبار بأذن ويدعها تخرج من الأذن الأخرى. لم يكن هنا. كان هناك، حيث موسيقى الكلمات الأجنبية، وقصص الكتاب المقدس.

---

* قضى الشيخ نعمان فترة الحكم المصري محارباً في الجيش العثماني في الأناضول ثم ضيفاً على الباب العالي في إسطنبول ثم لاجئاً في حضرة الوالي محمد علي في القاهرة!

** لدى دخول إبراهيم باشا جبل لبنان فرّ الشيخ سعيد إلى فلسطين حيث تخفّى بزيّ فلاح. لكن جواسيس المير بشير عثروا عليه. فجُند في الجيش المصري.

ـ 26 ـ

من أيار إلى أيلول غرق يوسف في موسيقى الكلمات الإنجليزية كأنه يسبح في مياه النهر.

الأحرف الغريبة الشكل والصوت سحرت عينه وأذنه. يرسمها طوال الوقت ويلفظها. خلال الشهر الثاني* حفظ في أسبوع واحد مئة كلمة إنجليزية. قال المستر ولكوت لفاندايك إن الصبي الصغير يكاد يتفوق عليه.

هو ـ يوسف الصغير ـ قال لفاندايك إن الكلمات الإنجليزية تشبه الأشياء أكثر من الكلمات العربية. فاندايك لم يوافقه الرأي. قال له إنه فقط يحسّ هكذا لأنه يتعلم لغة جديدة. قال يوسف:

ـ كلمة Book تشبه الكتاب أكثر من كلمة كتاب.

ابتسم فاندايك قائلاً:

ـ كلمة حمار تشبه الحمار أكثر من Donkey. كلمة سماء تشبه السماء أكثر من Sky.

قال يوسف:

ـ لا. كلمة Donkey تشبه الحمار أكثر.

---

* حزيران.

قال فانذايك:

- هذا ما تقوله أنت. لكنه ليس الحقيقة بالضرورة.

سكت يوسف الصغير.

فانذايك يعلّمهم الإنجليزية. المستر ولكوت «الكتاب المقدس». الدكتور سميث بقي أسبوعاً ثم رحل إلى بيروت. بعد أيام لم يعد الصبي الأعرج يأتي. عرفوا أنه مصاب بالحمى. ذهب الدكتور فانذايك مع المستر ولكوت لزيارته. حاولا معالجته. لكنه مات. في تموز، الشهر الثالث، دخل عند الظهيرة خمسة طلاب جدد يتصببون عرقاً. كانوا قادمين من عينبال، قرية صغيرة بعد بعقلين. أصغرهم في الخامسة عشرة. أكبرهم في الثانية والعشرين تقريباً. في أيديهم سلال مليئة خضاراً وفاكهة.

ظلّ يوسف، الأصغر بين الطلاب، والأكثر تفوقاً، في الوقت ذاته. قال فانذايك للمستر ولكوت إنه يملك ذاكرة مذهلة. سأله المستر ولكوت:

- هل رأيت رسومه؟

قال فانذايك لا.

أخرج المستر ولكوت من كتابٍ أمامه ورقةً مطوية. فَرَدَها ثم بَسَطَها بكفّه فوق الكتاب. (كتاب بغلاف أسود سميك مكتوب عليه بماء الذهب: Leonus) تفرج فانذايك على الرسم بعينين متسعتين دهشةً. رأى القاعة حيث يجلسان، رأى الحيطان وقبب العقد، رأى النوافذ المستطيلة العالية، رأى الطلاب على الطراحات والبسط، ورأى - عبر نافذة من النوافذ - السماء والشجر والطيور في

الخارج. رأى كل ذلك مرسوماً بخطوط حبرٍ أسود على ورقة بمساحة الكفّ.

كان الوقت عصراً. ولا أحد في القصر غيرهما. بينما المستر ولكوت يعيد طيّ الورقة، استدار فاندايك ناظراً إلى الزاوية حيث يجلس الطلاب عادةً. فكّر للحظة أنّه سيجدهم هناك، وعلى رؤوسهم ضوء الشمس، كما في الرسم تماماً.

لكن أحداً لم يكن هناك.

- 27 -

ما عاد يخرج ويلعب مع الأقران. حين يرجع من المدرسة بعد الظهر يأكل لقمة ثم يجلس في غرفته أو على المصطبة ويفتح القاموس الإنجليزي ـ العربي. مكتوب وسط صفحته الأولى «تأليف الدكتور عالي سميث والمعلم بطرس البستاني». في أعلى الصفحة «المختار في الإنجليزي ـ العربي». في الأسفل، بين نجمتين: «مطبعة الأميركان، بيروت، 1841 ميلادية». يحفظ معاني الكلمات متلفظاً بها بصوت عالٍ. تخرج دنيا حاملةً له كوباً من التوت. أو حبّة سفرجل مقشرة. تجلس قربه لتستمع إلى رنين الكلمات العجيبة الخارجة من فمه. يلتفت إليها كلّما قلّب صفحة محاذراً تمزيق طرفها بإصبعه. يبتسم. هي تنظر إلى الكتاب الصغير. أصغر بكثير من «كتاب الحكمة» الذي يضعه أبوها الشيخ تحت مخدته. تتساءل متى ينتهي يوسف من حفظه.

لم يعد يرسم للبنات صور حيوانات، أو يلعب معهن بالتقاط الحصى، إلا فيما ندر. ذات يوم لم تُفتح المدرسة (كان فانديك في بيروت، والمستر ولكوت مصاباً ببحّة في صوته) فنزل مع أبناء الجيران للعب في الوادي. قفزوا في الجلول بحثاً عن مساحة من الحميضة*.

---

* نبتة بساق خضراء رفيعة وبأوراقٍ وزهرة صفراء في أعلاها. طعمها حامض لذيذ. تُصنع بحشوتها فطائر.

يحبّون التمرغ فيها، وجمعها في حزم يصعدون بها إلى الأمهات. يأكلون منها حتى تؤلمهم أضراسهم. بعد ذلك، إذا شربوا جرعة ماء، ذاقوا طعماً مرّاً كريهاً تحت لسانهم. ذلك الطعم كان يُذكّر يوسف بزمن بعيد. قرب جلول التفاح، في كعب الوادي تحت كفربُرك، كانت تنتشر حقول فسيحة مغطاة بأعناق هذه النبتة.

بينما يسبح مع الأولاد في النهر خطر على بال يوسف خاطرٌ مخيف: ماذا لو أن المدرسة لم تفتح بابها غداً أيضاً؟

ماذا لو غادر المرسلون قصر باز؟

عندئذ ماذا يفعل؟

خرج من الماء. لبس ثيابه ومداسه. بصق أرضاً. (طعم الحميضة فظيع الآن). وأسرع يتسلق الجلول إلى البلدة.

قرع باب القصر وانتظر. فتح المستر ولكوت الباب. كان يحمل شَبَقاً (غليوناً تركياً) في يده.

ـ ما بك يوسف؟

قال يوسف:

ـ أريد أن أدرس في الداخل. البيت ضجة.

ابتسم المستر ولكوت وتنحى جانباً. دخل يوسف يقطر ماءً إلى القاعة الغارقة في الضوء البرتقالي. كانت هذه أول مرة يأتي إلى هنا عصراً. أحسّ كأن القاعة ليست هي ذاتها. أحسَّ أنّه يمشي تحت الماء. أحسّ أنّه يدخل إلى صورة في كتاب المستر ولكوت. أحسَّ أنّه يقدر أن يبقى بين هذه الحيطان، في هذه الدار الفسيحة، طوال حياته. أحسَّ أنّه هكذا ـ ومع كتب المرسلين في الخزانة ذات المفتاح ـ يكون كامل السعادة. أحسَّ أنّه يرتجف. خلفه تعالى صوت المستر ولكوت يسأله لماذا يبكي.

ـ 28 ـ

في نصف آب أهداه الدكتور فانديك كتاباً إنجليزياً مليئاً برسوم نباتات برّية لم يرَها من قبل. أهداه أيضاً نسخةً عربية من الكتاب المقدس* مليئة بالتصحيحات. كانت الحروف مطبوعة بالأسود، والتصحيحات مخطوطة بالبنفسجي السائل: يوسف عرف الخط البنفسجي النحيل فوراً. هذا خطّ معلمه فانديك.

خلال هذه الفترة، في الحرّ الفظيع، عادت كفربُرك إلى مناماته. القرية، وجوه الأخوة الموتى، وشبح والده واقفاً عند كتف الوادي بانتظاره عند المساء.

يرى نفسه جالساً وسط بيت العقد في البرودة اللذيذة. فوقه تحوم بعض الحشرات الصامتة، تستمتع بالبرودة أيضاً. يدوم المنام لحظة. ثم يجد نفسه يقع ـ وهو جالس ـ وحين ينظر حوله لا يرى الجدران. تتلاشى قبب العقد فيرى نفسه مغموراً بالشمس الحارقة.

يفتح عينه فيرى أن الشمس قد دخلت من نافذة غرفته وغمرت

---

* هي نسخة «الفولكاتا» في الغالب. طُبعت في الفاتيكان سنة 1671 بعد أن نقّحها مطران الموارنة في دمشق سركيس الرزي. ظلت شائعة في بلادنا حتى صدور الترجمة التي أعدّها المرسلون الأميركان سنة 1865، ثم الترجمة اليسوعية سنة 1881.

الأرض والفرشة وغطّت قرميد دير القمر.

في منام آخر رأى حيوانات غريبة لا يوجد منها في العالم الحقيقي تخرج من تحت سطوح البُرك وتتقدم نحوه عبر غابات نعناع بريّ وزهور قندول توّج كالمصابيح في العتمة. ركض في القفر هارباً لكن الحيوانات لاحقته كالضباع وحاصرته قبل أن يبلغ شجرات الجوز. انحنى ليلتقط حجراً. لم يجد حجارة. تراب وعشب وأوراق لكن لا حجارة. أمام عينيه رأى الحيوانات تقترب متحولة إلى أحصنة. على ظهر الأحصنة ابتسم أخوته العشرة. هو نظر إلى المداسات في أقدامهم ورأى التراب أحمر.

يفتح عينيه في غبشة الفجر. البيت هادىء. شخير الشيخ عبد اللطيف يُسمع عبر البوابات المواربة. البنات ما زلن نائمات. بعد قليل تأتي دنيا راكضة. على الأرض قربه إبريق فخار وقنديل زيت وكتاب.

*

عطّلت المدرسة يوماً ثانياً، فسأله أبناء الشيخ قاسم هل ينزل معهم ويساعدهم في ريّ الجلول.

كانت سعاد جالسة وحولها البنات. قالت:

ـ انزلْ! انزلْ! بدّل عن كتابك لحظة! خذْ نَفَس هواء!

نزل معهم. حدّدوا له جلولاً مزروعة بندورة ولوبياء ـ وبعض مساكب بقدونس وأثلام خيار وكوسى ـ كي يرويها. تركوا له مجرفة ثم صعدوا إلى قناة المير ليفتحوا «الهارب» ويرافقوا المياه عبر القنوات مبعدين من طريقها الشوك والتراب والحجارة والورق اليابس.

قالوا له:

ـ نراك عند المساء. نحن سنروي الجلول تحت القصر.

ظلَّ وحده طوال النهار. عند العصر أحسَّ بكتفيه ينخلعان من الضرب بالمجرفة. لم يكن قد تجاوز التاسعة من عمره إلا بشهرين أو ثلاثة. لكنه شعر بقوّةٍ تفيض من أعماقه. حين وصل إلى الثلم الأخير رفع رأسه إلى السماء المعتمة وبدأ يتكلم بالإنجليزية.

ـ 29 ـ

كان قد أنهى قراءة الأصحاح الأول من «سفر التكوين» بالإنجليزية والعربية حين أقفل قصر باز بوابته ثلاثة أيام متتالية. حدث هذا في مطلع أيلول.

في اليوم الرابع ظهر المرسلون سميث وولكوت وفاندايك في باب بيت الشيخ عبد اللطيف القاضي لتوديعه.

سوف يقفلون المدرسة حتى تهدأ الأحوال في الجبل. أينما توجهوا يرون البواريد والسيوف والبلطات. منذ «حادثة الحجلة»، والأرض تهتز تحت الأقدام، والقلوب ملآنة.

قال الشيخ عبد اللطيف:

ـ الله يستر.

ودّعهم يوسف سائراً حتى طرف البلدة. من هناك رآهم ينحدرون. في البعيد البعيد رأى الشمس تلمع كالذهب على صفحة البحر المصقولة.

رجع إلى بيت الشيخ عبد اللطيف وسقط مريضاً.

ـ 30 ـ

في الحمّى ذاب لحم جسمه. تحوّل ركاماً من عظام. بكت سعاد وهي تراه يتلاشى أمام عينيها. لفّته الخالة حبوس بالشراشف الباردة. فَصَدَه الشيخ سلامة* في ذراعه. سال الدم أحمر ـ أسود، ثم ظهرت فيه خيوط صفراء. بدا للحظة أن هذا العلاج قد نجح: انتفض الجسم المريض وتحركت أطرافه بنزقٍ. لكن هذا دام فترة الألم التي تسبب بها الجرح والنزيف. ثم هوى جسم يوسف إلى ظلماته من جديد.

كان يموت.

أطعموه جزراً مسلوقاً، وتفاحاً مطحوناً وممزوجاً بالعسل. سقوه حساءً من عظام البقر. وحافظوا على الحياة في جسمه إلى بداية تشرين. مع تساقط الأمطار، وغلبة العتمة على الغرف بالنوافذ ذات الشبك، بدا أنه لن ينجو.

أرسلوا في طلب الدكاترة الأميركان من بيروت. بينما الشيخ عبد اللطيف ينتظر عودة الرسول بدأت الحرب في الدير. البلدة سكانها أربعة آلاف. خمسمئة بينهم من الدروز. الهزيمة سوف تكون أكيدة.

---

* الشيخ سلامة المُصفي. تعلّم «الطبّ العربي» على يد بدو حوران. لُقب بـ «الشافي». ذكره الشيخ ناصيف اليازجي في قصيدة من قصائده.

لكن النجدة سرعان ما وصلت من بعقلين والمناصف والعرقوب.

امتلأ الفضاء بالفرقعة (كانوا يطلقون نيران الغدّارات والبواريد من الكوى والشبابيك، من بيت إلى بيت ملاصق، من دكان إلى قبو، من جلّ كاكي* إلى جلّ بوصفير**!). غطّت غيمة بارود البيوت. حاول أحدهم أن يحرق «المصبنة» بكل الزيت القديم المخزن فيها. رجل آخر لغّم الكوخ قرب معصرة الدبس - خاصة الشيخ نجيب البستاني - في بيت الدين ودكّه. (هل نعرف أنه رجل آخر بالتأكيد؟) خلال هذا سقط تسعة قتلى دروز وواحد نصراني.

من خلف حوض ورود أطلقت امرأة نصرانية بارودة زوجها المتوفي قبل سنوات فأصابت ثوراً فالتاً أمام قصر الإمارة. الشيخ عبد اللطيف رأى المرأة في الشّباك ثم وهج البارود وسط شجرة الورد الصغيرة ثم وقوع الثور على حافة الباحة العالية أمام قصر فخر الدين. لم يضحك للمنظر. استدار وتأمل يوسف تحت الغطاء يرتجف بالبرد.

أغلق الشيخ الدرفات الخشبية. أشعل قنديل الزيت. (تساءل أين هو أحمد*** الآن. هل حدث له شيء؟) أخوه الشيخ قاسم محاصر في الجانب الآخ من البلدة، وهو لا يستطيع الوصول إليه بساقه المصابة منذ «حادثة الحجلة». قد يكون أحمد رجع من بيروت، وهو في البيت الآن، مع أبيه وأخوته! من يعلم؟

---

* فاكهة خريفية. تُسمى «خرمة» أيضاً.
** صنف من الليمون المرّ.
*** هذا أحمد ابن الشيخ قاسم، رسوله إلى الدكاترة الأمريكان. يلقبونه بأحمد «التنبل» لأنه يحب التجول في الحقول بدل العمل فيها.

تلمس الشيخ عبد اللطيف بارودته وخرج إلى الغرفة المجاورة. رأى سعاد، بيدها الغدّارة، والبنات في الزاوية. قال:

ـ غرفة يوسف آمنة أكثر. هنا النوافذ كثيرة.

مشوا وزحفوا إلى غرفة يوسف. عند المساء هطل مطرٌ غزيرٌ أوقف المعارك. بين حين وآخر كانت تُسمع فرقعة هنا أو هناك. ليلاً سيطر صمتٌ هائل. داخل هذا الصمت، من أعماق الحمى التي تحرق أعضاءه كالجمر، خرج صوت يوسف نحيلاً كالصفير، واهناً كسراج فرغ زيته للتو.

اقتربت دنيا منه. اقتربت سعاد وباقي البنات. اقترب الشيخ عبد اللطيف. كانت رائحة مرضه تملأ الغرفة. بعد لحظة تبينوا ما يحاول قوله.

كان يسأل عن أبيه.

(الجواب)

سألهم ولم يسألهم. كان تائهاً في أرضٍ يغطيها الضباب. رأى الماء والريح على وجه الماء. تغضن وجه البُرك كشرشف قطن ثم سادت العتمة. في لحظة رأى وجه دنيا، ثم وجهي زهية وبهية. وجه جميلة ظلّ بعيداً خلف كتف أخته سعاد. ولم يرَ من الشيخ إلا لحيته.

لم يسألهم عن أبيه. كان يهذي. لكنه سألهم عن الأصوات. ما هذه الضجة؟ وسألهم عن الرائحة. ما هذه الرائحة؟ وانتظر الجواب.

لم يسمع إلا الصمت. ووشيش المطر على درفات النافذة، وعلى ورق التينة في الخارج. نزل إلى الليل مجدداً. لم يكن يريد النزول. لكن القرار أفلت من يده. الحرارة في عظامه حوّلته إلى كائن عاجز

عن فعل شيء.

لم يبقَ له إلا تلك الصور في رأسه، تُعربش داخل جمجمته كالنبات. صور وأصوات. سمع صوت المستر ولكوت يحكي عن تصريف الأفعال. سمع صوت فاندايك يخبر قصة من «سفر الخروج». سمع صوته، في الحقول في قعر الوادي، يترنم بأغنية إنجليزية، قصيدة فلاّحية تُغنّى في سهول أميركا. سمع صوت المستر ولكوت يغني معه، يعلمه الكلمات كلمة كلمة: لا، لا تلفظ هذا الحرف، يقول له، هذا حرف صامت، لا يُلفظ في هذه الكلمة.

- Silent.

صامت Light.Silent ضوء. سماء Sky.

تكررت الكلمات في رأسه إلى ما لا نهاية.

*

بعد فترة - مضت أيام أو أسابيع - فتح عينيه فرأى وجه الدكتور فاندايك.

سأله:

- رجعتم؟ ستفتحون المدرسة؟

ابتسم الدكتور فاندايك صامتاً.

نظر يوسف من فوق كتف الدكتور. رأى الشيخ عبد اللطيف بعصابة سوداء على عينه اليمنى.

سأل:

- ماذا كانت الأصوات؟ بواريد؟

أجابه الشيخ:

- انتهى ذلك*.

قال يوسف:

- والمدرسة؟

أجابه الدكتور:

- سوف نأخذك معنا إلى مدرستنا في بيروت.

أغمض يوسف عينيه. منذ ذلك اليوم، حين ودعهم وهم ينحدرون نحو البحر المغطى بذهب الشمس، وهو ينتظر هذه اللحظة.

فتح عينيه وسأل الشيخ عبد اللطيف:

- وتسمح لي؟

أجاب الشيخ بابتسامة.

(رحيل)

انطلقوا على البغلات عند الفجر.

في الضوء الأصفر - الأخضر، التفت وتأمل قرميد البيوت الأحمر يبتعد رويداً رويداً ثم يغيب بين أشجار تتمايل في ظلمة شفافة.

كانت الأرض مبلّلة شبه موحلة. طرطقت الحوافر بحدواتها الحديد على الحجارة. حين أشرفوا على «صنوبرات المنشية»، بدأت

* انتهت معركة الدير بسقوط عشرين قتيلاً درزياً ومئة قتيل مسيحي. وكانت خاتمة حرب الجبل سنة 1841 دخول العساكر العثمانية إليه.

الطريق المتعرجة تنحدر. ظهرت صفحة البحر، بعيدة، بيضاء ـ رمادية، وثابتة كالبلاطة، في الصباح الغائم.

استدار مرة أخيرة. كانت البلدة قد اختفت.

هبَّ هواءٌ مثلجٌ. شدَّ الفروة حول جسمه. دخلت رائحة الصوف في أنفه. تذكر بيت العقد في كفربُرك. تذكر وجه الشيخ إبراهيم. تذكر القبر تحت التوتات. تذكر ثعبان «دار المير».

كان ينعس، والبغلة تهدهده. بعد الغابة نام. حين فتح عينيه من جديد رأى الشاطىء أمامه.

الجزء الثاني

بيروت

ـ 31 ـ

وُضع يوسف في رعاية المرسل شافرد. هكذا يَربى بين أولاد بمثل سنّه في كنف الرجل الأربعيني وزوجته المسز شافرد. (كانت تُوزع وقتها بين البيت وبين مدرسة الفتيات، التي أسّستها، مع المسز سميث ـ زوجة الدكتور عالي سميث ـ قبل سنوات، لتعليم بنات البلد الإنجليزية).

هذا بيتٌ مكوّنٌ من دار وغرفتين. يُصعد إليه بدرج بجانب بوابة يعقوب. من نوافذه الخلفية تظهر البساتين حول بيت الصوصة، وبعض البيوت القليلة المتناثرة في بريّة رأس بيروت، وعبر ورق التوت تبينُ قطعٌ من البحر. مع ثلاثة صبيان، أحدهم أصغر منه، اعتاد قضاء الأماسي يدرس في الكتاب المقدس، بينما المسز شافرد تلقن ابنتها الوحيدة دروساً في اللغة الهولندية*. هذا الطقس المسائي كان يتمّ في الدار: عبارة عن غرفة فسيحة، بمقاعد من قش، وطاولة خشب غير مطلية، وعلاّقات نازلة من السقف تتدلى منها القناديل، وكانون من الطين، وخزانة بباب واحد مزوّد بمرآة من داخله، وستارة من قماش أزرق على النافذة المربعة الفخمة** جنب الباب. عبر

---

* مثل الدكتور فانדايك كانت المسز شافرد (الاسم الكامل: هيلدا هاينيكن شافرد) سليلة أسرة هولندية هاجرت إلى أميركا في القرن السادس عشر.

** كانت مزوّدة بلوح زجاجي تفركه ابنة المسز شافرد (هي في السادسة عشرة

الزجاج، حين تُفتح الستارة الزرقاء، كان يَرى ـ على بُعد 300 متر ـ مئذنة جامع النوفرة (جامع الأمير منذر التنوخي)، وهو جالس على كرسي القش بعضلات متوترة والكتاب في حضنه (لم يعتد الجلوس عالياً عن الأرض بعد). في وقت الاستراحة يقف ويتقدم من زجاج النافذة، وينظر إلى الناس تحته يعبرون قرب الثكنات. قُبيل الظهيرة يأسر عينيه منظر قبب الكنائس المتوهجة كالذهب في الشمس.

خشب باب البيت منقوش من الخارج بثلاث كلمات: «الطبيب يعقوب أبيللا»*. يستحيل محو هذا النقش بلا تشويه الباب. لذلك بقي هنا. الدرجات الهابطة من فوق بوابة يعقوب، إلى الساحة الترابية حيث يقف الحراس، مبرية في الوسط، ومسودة اللون عند الزوايا. كل يوم تخرج راحيل بمكنسة وسطل حديد تملؤه بالماء من سبيل الدركاه ثم ترجع. تلتقط المكنسة عن الدرج حيث تركتها، تجثو على كل درجة، وتفرك الزوايا بيديها. لكن اللون الأسود الذي تشرَّبه الحجر الرملي يبقى يعذب عينيها ولا يتلاشى. حين يفرغ السطل من الماء، حين تضمحل الطاقة من جسمها، تصعد الدرجات من جديد، بطرف ثوبها الأسود الثقيل المبلل والملطخ بالتراب، وقطرات العرق تلمع على وجهها. تقف لحظة أمام الباب، تحدق إلى الكلمات العربية الثلاث، وتعضّ شفتها. تكره هذا الرجل أبيللا الذي ترك

وتُدعى راحيل Rachel) بالماء والصابون، ثم بالماء فقط، كل صباح.

* اشتهر خلال الحكم المصري كعضو في مجلس الأعيان الذي أشرف على بناء الكرنتينا وتنظيم أعمال الكنس ورشّ الماء في أزقة بيروت. باع بيته للمرسلين في صيف 1838 وانتقل إلى صيدا حيث صار قنصلاً للإنكليز. فضّل العيش في صيدا لأن والدته صيداوية. أما والده فكان من أوروبا، جاء إلى الشرق مع بونابرت، ونجا من الطاعون تحت أسوار عكا لكنه لم ينجُ من الكآبة: مات مئات المطعونين بين يديه، ففرّ من المعسكر هائماً على وجهه، وانتهى مريضاً ومدمى أمام باب بيت في صيدا. تزوج العذراء صاحبة البيت.

الدرج يَسْوَدّ هكذا!

يوسف يرفع رأسه حين تدخل. تسأله إن كان جائعاً، هل تعمل له نصف رغيف بمربى تين. يهزّ رأسه، لا، لست جائعاً. تسأل باقي أخوتها. لا، لا، لم نجع بعد. يتكلمون بالإنجليزية والعربية معاً. حين تتكلم بالهولندية يضحكون. المسز شافرد لم تجرب تعليمهم لغة أجدادها. (لماذا علّمت راحيل فقط، لا ندري).

كانوا ينادونها رايتشل، وراشيل، وراحيل. يوسف كان يفضل الاسم الأول. أبوها ـ حبّاً بالانخراط في جو الشرق ـ لا يناديها إلا راحيل. أخوتها يتنقلون بين هذه الأسماء حسب مزاجهم ورغباتهم. (إذا غضبوا منها نادوا عليها: «راشيل»، لأنها تكره وقع هذا الاسم). وحدها أمّها ـ ويوسف الذي ليس أخاها، وليس من أميركا، وليس حتى من البروتستانت ـ تناديها على الدوام رايتشل، تماماً كما تُحب أن تُنادى.

قبيل الظهيرة تخرج، والصبيان الأربعة خلفها. تُقفل الباب بالمفتاح. وينزلون الدرج. ترفع رأسها ولا تنظر إلى الزوايا. (الأسود يخفّ مع مرور الأيام لكنه ما يزال هنا). الحراس يلقون التحية بالعربية أو التركية ثم يحدجون المكاريين بنظرات قاسية كي يفتحوا لها درباً. بالكاد تنتبه لهذا. الصبيان الأربعة (وليم الذي يصغرها بسنتين، جورج الذي يصغرها بثلاث سنوات، يوسف السوري* الذي يصغرها بأربع أو خمس سنوات، وحتى مارتن الصغير صاحب الخصل الشقراء المفتولة) كلّهم ينتبهون لحركات الحراس. لكنها هي لا تنتبه. (على

* هكذا تفكر فيه، أحياناً، على أساس أنها تعيش هنا لأن والدها «مرسل في سوريا»، ولأن والدتها فتحت «مدرسة لبنات سوريا».

الأقل هكذا يظهر للصبيان الأربعة). تعبر بين درفتي البوابة الضخمتين المشرعتين، وتخرج من بيروت.

قرب بناية المرسلين تلقي التحية بالإنجليزية على إلياس فواز الجالس يشرب القهوة تحت شجرة الزيزفون. يردّ تحيتها بالعربية ثم بالإنجليزية. لمّا يكون ذهنه صافياً يجيب بالإنجليزية فوراً. هكذا تمنحه إبتسامة.

تترك الأولاد هنا حيث يتعلمون اللغة والكتاب المقدس والعلوم والحساب حتى المغيب. (يتناولون طعام الغذاء في البهو الكبير على مائدة منفصلة عن مائدة المرسلين الأساتذة). تتابع طريقها إلى مدرسة أمّها في بيت الصوصة. (أُقيمت المدرسة في قسم من الطابق السفلي فُصل عن الفسحة حيث المطبعة وآلاتها بعازلٍ مَن ألواح الخشب). يعترض دربها بعض الفتية. هؤلاء أولاد الرعاة والمزارعين. يطرحون أمامها فولاً أخضر، أو حبّات صبير يسيل منها العسل البرتقالي، أو لوزاً وجوزاً. في كل موسم يجلبون شيئاً. لكنها تتجاوزهم بابتسامة صغيرة ولا تلتفت بعد ذلك أبداً.

ذات صباح رآها يوسف تتعثر بسطل الحديد وتسقط متدحرجة على الدرج. كسرت ساقها. خلال قعودها في البيت تحولت إلى شخص آخر. صارت تغضب من يوسف كلّما ناداها رايتشل، وتقول له:

ـ اسمي راحيل.

شفيت ساقها أخيراً لكنها ما عادت تكنس البيت أو تمسح زجاج النافذة إلا مجبرةً. الأتربة تكدست على الدرج. اللون الأسود عاد يقوى. لم تكن تأبه. صارت تفتح باب الخزانة وتقعد تمشط شعرها أمام المرآة ساعات.

ـ 32 ـ

ذات ليلة رأى يوسف الثلج يتساقط على القبور تحت التوتات، ورأى بعض الخراف تمضي متثاقلةً فوق طبقة الثلج ثم تختفي خلف حواف الجلول تحت «دار المير». فتح عينيه مضطرباً، رأى ضوء القنديل تحت الباب، عرف أن المستر شافرد ما يزال ساهراً، ثم أغمض عينيه ونام من جديد.

هذه المرة رأى التوأمين، قاسم وجمال الدين، يدبّان على المصطبة، وحولهما صيصان صغيرة صفراء وبيضاء. تلفت حوله فرأى شيئاً يتحرك في دار البحص. ما هذا؟ حدّق جيداً فرأى الخيط يتحول إلى حبل، ثم ظهر ذلك الثعبان. بالحلقات الخضراء، والرأس اللامع الأصفر. التقط يوسف عصا تستخدمها نسب لتنظيف السقف من نسج العناكيب وأسرع نحو الثعبان. صار يضربه والثعبان يواصل الزحف كأنه لا يشعر بشيء. حين بلغ الثعبان حافة المصطبة (التوأمان يدبّان بين الصيصان ضاحكين) صرخ يوسف صرخة أيقظته من النوم.

(راحيل)

رجعت رايتشل لطيفة معه. بعد قيامه صارخاً، في أكثر من ليلة، باتت تأتي إلى جنب فرشته كل صباح، وتتأمله يقرأ في كتابه، ثم توقظ أخوتها.

بينما الأخوة الثلاثة يهمهمون معترضين على إيقاظهم، تلتفت إلى يوسف وتسأله هل نام جيداً. حين يقول لها «رايتشل»، مرةً، لا تغضب منه. هو في المقابل عوَّد نفسه أن يناديها راحيل.

من الصباح حتى ما قبل الظهيرة بقليل يدرسون في الدار. توقفت مع مرور الأيام عن الجلوس أمام مرآة الخزانة. رجعت تكنس الأرض وتنظف الزجاج وتمسح الغبار عن الطاولة وسطح الخزانة. حين تريد نفض الطراحات تطلب من الصبيان فعل ذلك. خذوها إلى الخارج، تقول لهم. أما هي فلا تخرج.

لم تعد تصطحبهم إلى المدرسة في بناية المرسلين ظهراً. يذهبون وحدهم. تقول إن ساقها ما تزال تؤلمها من نزول الدرج. تدرس في البيت وحدها. وكل مساء تمتحنها أمّها بالهولندية والإنجليزية، ويمتحنها أبوها في القَصَص الديني وفي الحساب. من النافذة البرّاقة ترى الدرج متسخاً أسود. تستدير وتلتقط فوطة. تمسح جوانب الخزانة. وتكنس الدار والغرفتين مرة أخرى.

في الشتاء يقصر النهار. لكنها عندما يترك الصبيان البيت تحسّ بفراغه. تسمع أصوات الحرس تحت الدرج، تسمع ضجة الجنود وطرطقة المعدن وقت الطعام في الثكنات، تسمع عجيج الباعة في أسواق المدينة*، وتنتظر أن تغيب الشمس فيُقرع باب البيت وتدخل الأصوات إليه وتخرج منه.

---

* حين يهطل المطر تخفت الأصوات فتحسّ كأنها مطمورة تحت التراب. وخيوط الماء التي تدلف من زاوية السطح، فتطرطق قطراتها في سطل الحديد، تُساهم في خلق إحساسها هذا.

كي يمرّ الوقت تأكل كثيراً. تلفّ مربى التين أو السفرجل في أرغفة الصاج والتنور. تلتهم ثلاث أو أربع تفاحات من التفاح الكفرسلواني الشهي. تنهي بقايا الكعكة المحلاة. بعد هذا يملؤها إحساسٌ بالبؤس. تنطرح على فرشة، تنظر إلى الضوء الواهن تحت الستارة الزرقاء، وتلتحف ببطانية. تحلم بالبيت في كونكتيكت. تحلم بالشاطىء والسفن الضخمة والحيتان المطروحة على جانبها. تنام. تستيقظ في عتمة. والباب يُقرع بعنف. تنهض متألمة من رأسها وكتفيها. تفتح الباب. حين يبتسم لها يوسف يفرح قلبها.

لا تعرف كيف لم يوقظها آذان العصر. سرقها النوم فنسيت إعداد الطعام. أسرعت إلى الزاوية حيث الخبز والمؤن، وصورة وجه جدها أمامها.

(المستر شافرد سينيور)

«الآذان! هذه الصلاة العالية النبرة الرخيمة الجرس! يكفي سماعها مرة كي لا تنساها بعد ذلك أبداً! فيها سحر ربّاني لا تجده حتى في قرع أجراس الكنائس! على الأقل هذا ما تحسّه وأنت تتذكره! الآذان! خمس مرات يصعد المؤذن إلى قمة برج الجامع. يطلق صلاته عاليةً، داعياً الكلّ إلى السجود لله والابتهال. الفقراء والأغنياء، الكبار والصغار، أهل الصدق وأهل الكذب، الكل يتركون الدنيا لحظة، يغسلون عن أجسامهم رجس الأرض، ويفرشون السجاجيد، في باحات الجوامع أو وسط الحقول، ويركعون! تحسّ وأنت تتفرج عليهم، آه، يا له من إحساس لا يوصف يا بنيّ!».

جاء الكساندر شافرد إلى بيروت في السنة الثانية من القرن التاسع عشر. كان واحداً من سبعة قساوسة أتوا آنذاك للحجّ. من بيروت

ركبوا سفينة شراعية إلى يافا. وصلوا بعد خمسة أيام. في الطريق من يافا إلى القدس أكلوا لبناً حامضاً فتسمموا. ماتوا جميعاً، إلا الكساندر شافرد. تابع طريقه إلى القدس، وكان الطاعون يجتاح قرى فلسطين. الطاعون، والحمى. لكنه لم يمت. ركع وصلى في كنيسة القيامة. مسح وجهه بالمياه المقدسة. ابتاع تذكارات للأقارب في أميركا. حصل على ذخيرة خشب من الصليب المقدس. وبعد شهر انطلق عائداً.

نام في بيروت ليلة ثم ركب سفينة إيطالية إلى الاسكندرية. وصلها عند المغيب. سمع الآذان، ورأى المآذن الخمس تتعالى فوق ركام البيوت. بعد ليلتين ركب سفينة فرنسية إلى ميناء مرسيليا. من هناك انطلق على حصان إلى شاطىء بحر المانش. بالقارب قطع القنال الأنجليزي إلى بريطانيا. نزل في ضيافة أحد الأديرة شهرين. ثم سافر عبر الأطلسي إلى بيته ووطنه.

العائلة استقبلته بعد غياب طال سنة تقريباً. في الأسبوع التالي ركب عربة الخيل إلى بوسطن حيث بناية «المجمع الأميركي لمندوبي البعثات التبشيرية». استقبله القس فسك بابتسامة حزينة. كان قد عَرِف بخبر الحمى التي قضت على القساوسة الستة الآخرين. قال له الكساندر شافرد:

ـ ابني، الكساندر جونيور، يفكر في دراسة اللاهوت.

ابتسم القس فسك. (كان الكساندر جونيور ما يزال في الرابعة أو الخامسة من عمره). تابع الكساندر شافرد بالنبرة الجادة ذاتها:

ـ أنا من جهتي قلت له: ما يزال الوقت باكراً!

بعد شهرٍ فقط سمع القس فسك شائعة غريبة: السيد الكساندر

شافرد أصيب بالجنون: كل يوم ينهض فجراً ويغتسل ثم يفرش سجادة ويبدأ بالصلاة كالمسلمين. يتكرر هذا خمس مرات كل يوم. السيدة شافرد ـ من جهتها ـ أخبرت الكاهن بذلك وهي تبكي. قالت إن زوجها ـ «لا أدري ماذا حدث له هناك»* ـ يريد من الأولاد أن يفعلوا مثله، وأنه صار يصلي بأعلى صوته كل صباح ـ «من قبل طلوع الضوء»** ـ كي ينهضوا ويصلوا معه. «إنه يرعب الكساندر جونيور!»*** قالت السيدة شافرد للكاهن إن زوجها يرعب الأولاد وإنها لا تعرف ماذا تفعل.

الكاهن أيضاً ـ وهو الصديق القديم لزوجها المحترم القسّ والمبشّر ـ لم يكن يعرف ماذا يفعل. ضجّت كونكتيكت بالخبر. خبر إسلام القس شافرد غطّى على أخبار الحيتان وصراع بحارة كونكتيكت معها في البحار الجنوبية وعند تخوم المحيط المتجمد. في الختام اقترح أحد البحارة «خطف القس المجنون ورميه على جزيرة من جزر آكلي البشر في المحيط الهادىء». سمع القس هذه الأخبار. حاول للمرة الأخيرة إقناع ابنه الأكبر. سمّاه الكساندر على اسمه من حبّه له. عليه النجاح في إقناعه (هذه الصلاة جميلة ومُخلِصة يا بنيّ، آه فقط لو سمعت الآذان بأذنيك! فقط لو أتيح لك أن تنام وتسمع صوت المؤذن الرخيم في أحلامك، يناديك من بعيد!).

لم يقتنع الكساندر جونيور. ظلّ يهرب إلى أمه ويختفي وراء فستانها. صار القس غريباً في بيته. حزم أغراضه في كيس وغادر إلى جزيرة نيويورك. هناك عاش في بيت يتوسط حقلاً من الخضار. الكساندر جونيور، بعد أن كبر وصار قسّاً بدوره ومتزوجاً وأباً لأربعة

---

* I don't know what happened to him there!.

** Before sunrise.

*** He's terrifing Alexander Junior!.

أولاد، أخذ العائلة كي تزور الجدّ الذي «أصيب بشيء هناك». بعد تلك الزيارة بسنة طلب من «المجمع» الإذن بالذهاب والتبشير في الأراضي المقدسة.

قال له القس فسك:

ـ وما رأي زوجتك؟ وما رأي والدتك؟

قال الكساندر شافرد جونيور:

ـ خدمة الربّ، وبشارة المسيح، هي المقدس الوحيد.

بعد شهر انطلق مع عائلته نحو مضيق جبل طارق. بين ثيابه ذخيرة الصليب المقدس التي جلبها أبوه.

(الآذان)

من أول يوم في الشرق تذكرت رايتشل ما سمعته عن جدها. في بيته الخشبي في نيويورك فكرت أنه لا يختلف عنهم بشيء. أحبّت وجهه وثيابه والنظرة في عينيه. رأته مرة واحدة. لكن صورته مطبوعة في دماغها. خصوصاً لحيته البيضاء. تراه في المنامات أحياناً.

يوقظها الآذان فجراً. ولا تنتبه له صباحاً وظهراً. لكنها تنتظره عند العصر. (يؤذن المؤذن فيقرع أخوتها الباب عائدين من المدرسة). وتفكر حين يتعالى لخامس وآخر مرة عند العشاء، أن جدها وحده في نيويورك الآن، وحده في أميركا، يركع ويصلّي لربّ المسلمين، في الجانب الآخر من الأرض.

*

ليوسف الصغير، الضعيف السمع* منذ فترة، آذان الفجر هو ذلك

---

* أيكون لهذا الضعف في سمعه علاقة بوِلادته بأذنين معقوفتين، أو بربط الخالة حبوس فوطة حول رأسه؟

الصوت القوي الذي يبلغ أذنه ناعماً ثم يكرج في التجاويف ويدغدغ دماغه النائم، فيستيقظ، ويفتح الكتاب قرب رأسه. قد بلغ الأصحاح الأخير من «سفر الخروج». والدكتور سميث وعده بكتاب جديد هديةً، ما إن يبدأ بالأصحاح الأول من «سفر اللاويين».

(الأساتذة)

توقف فاندايك عن تعليمه. حدث هذا خلال نيسان أو أيار. ترك فاندايك بيروت وصعد إلى عيتات في الجبل. أصلح فوق بيتاً قديماً. فرشه بالطراحات، وفتح مدرسة.

بذهاب فاندايك صار الدكتور بيدل أستاذه. الدكتور ولكوت سافر في الصيف إلى أميركا لجمع التبرعات. ظلَّ الدكتور سميث مديراً، يساعده القس شافرد في التدريس كما في أعمال المطبعة.

مع هؤلاء أستاذان من الجبل لكنهما لا يُدرِّسان يوسف بل الصفوف العليا. في السنة القادمة سوف يدرّسانه. الأول الشيخ ناصيف اليازجي. سمع يوسف عنه في دير القمر. (كان الشيخ شاعراً مشهوراً في بلاط المير بشير في بيت الدين. بعد الحرب الأولى بين الدروز والموارنة في 1841 هرب إلى بيروت حيث أقام صلات بالمرسلين الأميركان). والثاني الشيخ بشارة الخوري*. أيضاً سمع باسمه من قبل.

الاثنان سوف يعلمانه قواعد لغة لا تهمّه: العربية. لا يهمّه من العربية إلا شكل حروفها. في مكتبة المدرسة مخطوطات عربية

* ذكره فاندايك في مذكراته: «الشيخ بشارة الخوري من رشميّا... فرّ من دير القمر حافياً مجروحاً فنزل في بيت المعلم طنوس الحداد وأقام عنده وقد دعيت لمعالجة جراحه فوضعناه في إحدى غرف المدرسة ولما شفي تعين مدرساً...».

بخطوط مختلفة. أحياناً يقضي ساعات في المقارنة بين رسوم حروفها.

في الشتاء عاد فانديك إلى بيروت. سوف يتزوج الآنسة جوليا، ابنة القنصل الإنجليزي السابق بيتر أبوت. كانت الآنسة تأتي وتزور البيت فوق بوابة يعقوب عند ظهيرة كل أحد، عائدةً برفقة المسز شافرد وإبنتها من بيت القنصل الأميركي جاسبر شاسود المشرف على الميناء. هناك، كل أحد قبل الظهر، يعقد المرسلون صلاة إنجليزية. (الرجال يبقون ساعة أخرى للحديث).

بعد أن ذاع الخبر توقفت المسز شافرد عن ذكر الآنسة جوليا. المستر شافرد من جهته ظلَّ يذكر الدكتور فانديك في أحاديثه المسائية. لكن التفاتة سريعة من زوجته كانت تكفي ليُبدل الموضوع. يوسف فهم ماذا يجري من وليم وجورج. يبدو أن المسز شافرد كانت راغبة بالدكتور فانديك (ابن الرابعة والعشرين) زوجاً لابنتها رايتشل*.

(الكتب في الصندوق)

في الغرفة حيث تنام المسز شافرد مع القس وابنتها يوجد صندوق مليء بكتب إنجليزية يُمنع على يوسف قراءتها. كانت المسز شافرد تخرج أحدها من الصندوق كل مساء. ويوسف يسترق النظر إلى عناوينها. (رايتشل قالت له إن أمّها تقرأ هذه الكتب في المدرسة أيضاً، أما المسز سميث فتفضل حياكة كنزات الصوف). وفي بعض الصباحات، بينما المسز شافرد تكتب رسائل إلى أقاربها في أميركا، كان يوسف يراها تفتح تلك الكتب (روايات، قالت له رايتشل، فيها قصص عن نساء ورجال في جزيرة إنجلترة) وتنسخ منها مقاطع كاملة.

* ربما لأصولهما الهولندية المشتركة علاقة بهذه الرغبة!

لم تتح له الفرصة أبداً للقراءة في تلك الكتب الجميلة الطباعة الأنيقة الغلافات. (هذه مطابع لندن، لا مطابع بيروت ومالطة وبولاق). لكن عناوينها ظلّت محفورة في ذهنه. سأل عنها أساتذته عرضاً. الدكتور بيدل مرةً، والدكتور سميث مرة أخرى. لم يعرف هل سمعا بها أم لا. لكنهما لم يهتما فعلاً. فقط رفعا الكتاب المقدس في وجهه. هذا الكتاب يحتوي كل الكتب، أخبراه، انسَ تلك العناوين.

أمر الأستاذان يوسف بنسيان تلك العناوين. (لم يأمراه، نصحاه). لكن يوسف لم يستطع نسيانها. لأنه أحبّ وقع موسيقاها في أذنه. ولأن وجه المسز شافرد ـ المخطوف في ضوء القنديل المنعكس على الصفحات السمراء ـ بات يزوره في المنامات.

ذات ليلة حلم أن رايتشل قد جلبت له تلك الكتب من الصندوق ووضعتها على الفرشة قربه قائلة:

ـ From my mother*.

قفز فرحاً. جعل يتصفحها مسرعاً، ويقرأ العناوين بصوت عالٍ:

Pride and Prejudice

Sense and Sensibility

Northanger Abbey

Emma

MansField Park

Persuasion

كانت العناوين مثبتة على الغلاف الأصفر وعلى الصفحة الأولى أيضاً. لكن يوسف لم يعثر على اسم المؤلف**. «مثل الكتاب

---

* من أمي.

** نشرت جاين أوستن (1775 ـ 1817) في حياتها أربعة كتب فقط، بين 1811 =

المقدس»، فكر. تلمس حواف الكتاب الأليفة. (أليفة لأنه اعتاد تفحص هذه الكتب بعينيه ـ عن بعد مترين ـ طوال الأماسي الماضية، بينما أصابع المسز شافرد تحجب حروفاً ثم تكشفها). ثم فتح أول كتاب.

كان يهمُّ بقراءة الكلمات الأولى حين تعالى آذان الفجر وأيقظه. في تلك اللحظة قرر أن يهرب من المدرسة وقت استراحة الغذاء ويتسلل إلى الغرفة حيث الصندوق ويفتحه. لكنه سرعان ما تذكر رايتشل، وأنها سوف تكون هنا، ولن يقدر. من غضبه في ذلك الصباح لم يفتح «الكتاب المقدس». حين دخلت رايتشل وجدته يحدق إلى السقف، والبطانية مكومة قربه.

(اول كاس نبيذ)

في حفل زفاف فاندايك جلب إلياس فواز جرّةً من النبيذ. حملها على بغلته من الكورة. قال: طوال الطريق وأنا خائف أن تنكسر، لكن الله ستَر.

يوسف تسلل مع وليم إلى حيث الجرّة وملأ منها كأسين.

= و 1816، غُفلاً من اسمها. حتى بعد موتها صدر لها كتابان (في 1818) دون ذكرٍ لاسم المؤلف. عاشت حياتها بين أهلها وأخوتها في ريف بريطانيا. كانت مولعة بكتابة الرسائل، ترتيب البيت، الحياكة بالصنارة، والإلقاء الشعري. كتبت أجمل رواياتها وهي في مطلع العشرينات من العمر. حاولت نشرها ففشلت. أحد الناشرين ابتاع منها Northanger Abbey بعشرة جنيهات ثم دفنها في جارووره سنتين قبل أن تعود وتشتري منه مخطوطتها مجدداً. بعد عشر سنوات من المحاولات نجحت في نشر كتبها (لا تضع إسمي، قالت للناشر). على نافذة من نوافذ كاتدرائية وينشستر رأت قبل موتها بيومين وجهاً ملائكياً يعدها بالخلود بعد الموت. سنة 1870 نشر ابن أختها قصة حياتها.

المرسل شافرد وزوجته قدَّما للعريسين قطعة من المخمل الأخضر هدية.

الدكتور طمسون وزوجته* قدَّما للعريسين مبلغاً من المال وخمس كراسي قش وخزانة صغيرة.

الدكتور سميث وزوجته قدَّما للعريسين مرآة مرسوماً على زواياها الأربع المخلِّص على الصليب.

يوسف أهدى الدكتور فانديك والآنسة جوليا (لم تعد آنسة، قال وليم) رسماً لهما بقلم الفحم.

المعلم بطرس البستاني (الذي شارك فانديك مسكنه قبل سنة) قدَّم للعريسين نسخة نادرة من كتاب المزامير مطبوعة بالكرشوني** سنة 1610 ميلادية في دير مار قزحيا.

والشيخ ناصيف اليازجي قدَّم لهما لوحاً من خشب الجوز نحت عليه عمال المطبعة ـ طنوس الشويري وطانيوس فواز وديمتري فيلبيدس ـ بيتين من الشعر هما تأريخ الشيخ ناصيف اليازجي لهذا الزواج:

كرنيليوس الكريم محله
قد بات مقترناً بأكرم ناهد
هذا قران للمؤرخ جامع
بدراً وشمساً ضمن برج واحد

ويوسف ـ السكران من أول كأس نبيذ في حياته ـ سمع الشيخ يلقي بيتي الشعر وانحنى على نفسه مخفياً ضحكته. ووليم صار

* هذه والدة جوليا، وأرملة القنصل أبوت. تزوجها طمسون إثر موت زوجته الثانية.

** حرف سرياني كُتبت به العربية أحياناً.

يضحك معه.

تلك الليلة، حين بلغا البيت مبللين بالمطر، وكانت رايتشل قد سبقتهما قبل المغيب مع جورج ومارتن، كانا ما يزالان يضحكان من كل شيء، وعلى كل شيء. (الفزّاعة في الحقل عليها غربان، الحمار الذي حرد أمام البوابة ولم يعد يتحرك، الأولاد الذين يقفزون فوق شاهد القنصل أبوت قرب بيت الصوصة، الرجل الذي ينظر ـ والبارودة في يده ـ إلى شجرة الزنزلخت، كيف أسقط الدكتور طمسون في الحفل صحن الحلوى على الأرض، الحارس الذي ينظف مداسه بعود قش، الفراشة الميتة على الدرج). كل شيء كان يضحكهما. جلسا لحظة على الدرج فانهمر المطر غزيراً. هكذا، مثل السحر، بلا رعد وبلا برق. حتى أنهما لم يريا غيماً في السماء. في لحظة تبلّلا حتى العظم. ركضا يصعدان الدرجات الباقية، ثم طرقا الباب.

في الداخل نشفتهما رايتشل جيداً ثم أمرتهما بالتمدد تحت البطانيات.

*

تلك الليلة قبّلته على رأسه لأول مرة قبل أن ينام.

(الم الراس)

في الصباح أيقظه ألم رأسه. لم يقدر أن يعرف هل قبّلته رايتشل على جبهته فعلاً، أم أنه حلم بذلك وهو سكران.

ـ 33 ـ

في السنة الثانية نزل معز الدين الطويل، زوج أخته نسب، للاطمئنان عليه. جاء محمّلاً بسلال السفرجل وعناقيد البامية اليابسة، هديةً لآل شافرد. أتى ليوسف بثلاثة أخبار أيضاً: نسب وضعت صبيّاً أسمياه إبراهيم. جميلة بنت أخته سعاد تزوجت أحمد «التنبل» ابن عمها قاسم. والشيخ عبد اللطيف القاضي، «الله يرحمه، أعطاك عمره، مات وهو نايم بأوضته*».

(العين والخردقة)

في ليلة ماطرة، حين خَفُتَ صوت البواريد، خرج الشيخ عبد اللطيف ملتفاً بعباءة سوداء حاملاً بارودته. كان يوسف ما يزال محموماً وحرب الدير في يومها الثالث أو الرابع. (ربما كانت في أسبوعها الثالث أو الرابع، ما الفرق؟) المهم، قطع الشيخ عبد اللطيف كرم التين فوق بيت الشيخ سليم المصفي، فرأى ضوء القنديل خارجاً من شقوق درفة الخشب في نافذة بيت أخيه قاسم. كان قلبه ينبض في رأسه. يخاف أن يكون حدث مكروه لأحمد في طريقه إلى بيروت. (سمع عن حادثة الدامور، وعرف أن الحرب دارت في الشويفات أيضاً). قفز إلى جلّ العنب قرب «صخرة العضرا»، ثم داس في

---

* أوضة: تركية الأصل، تعني غرفة الجنود، أو غرفة.

الوحل راكضاً* نحو النافذة من حيث يخرج الضوء الأصفر. ضجّ هدير الرعد في أذنيه. في اللحظة ذاتها رأى وهجاً، ثم اندلعت نارٌ في عينه اليمنى. لم يكن الرعد رعداً. كان فرقعة بارودة.

لم يمت. دخلت خردقة عينه وأطفأتها. حاولوا إخراج الخردقة ثم أدركوا أن ذلك مستحيل. في وقت لاحق فحصها الدكتور فاندايك. (كانت الحرب قد انتهت بوصول عساكر سليم باشا الوزير التركي).

ـ ماذا؟ سأله الشيخ عبد اللطيف.

أخبره فاندايك أن الخردقة استقرت داخل رأسه، إذا تحركتْ أو تفتتتْ ـ لسبب لا يعرفه إلا الربّ ـ قُضي عليك. لكن إذا بقيت ثابتة وكاملة كما هي فسوف تبقى بخير.

ـ مثلي مثل كل الناس إذاً، قال الشيخ عبد اللطيف باسماً. ثم ربط العصبة الجلدية على عينه.

(دنيا)

في الليالي التالية داومت دنيا على المجيء إلى مناماته. كانت في فستان أصفر طويل بربطة خضراء بشكل وردة. (رأى هذا الفستان في الخزانة هنا: يخصّ المسز شافرد، تحتفظ به من أول أيام زواجها). كبرت وصارت تشبه زهية وبهية. لم تكن تملك وجه دنيا المدوّر القديم وعينيها الضاحكتين. كأنها ليست هي. ولكن في الظاهر فقط. أما في الباطن ـ وفي إحساسه هو بها ـ فكانت دنيا. الطفلة اللذيذة

* ساقه تؤلمه لكنه يتحامل عليها.

ذاتها التي تحبّ الجلوس قربه وهو يقرأ في القاموس الإنجليزي ـ العربي، تأليف سميث والبستاني.

*

ذات ليلة خرج المرسل شافرد مع زوجته للعشاء في بيت فتيحة في المصيطبة مع باقي المرسلين. قالت المسز شافرد لرايتشل:

ـ قد نتأخر. اقفلي الباب. سوف نقرع حين نأتي.

عند نصف الليل، أو قبل ذلك بقليل، استيقظ يوسف من نومه مرتجّاً ببكاء صامت. نظر حوله. كانت الغرفة غارقة في ضوء النجوم والكلّ نيام. بطانية مارتن كانت مكومة قرب قدميه. البعوض كان يطنّ ملتصقاً بشبك النافذة من الخارج. نهض يوسف وخرج إلى الدار. رأى باب الغرفة الأخرى موارباً. تقدم على رؤوس أصابعه. أطلّ برأسه. هذه الغرفة كانت دامسة الظلام لأن درفات نافذتها موصدة. بعد لحظة اعتادت عيناه الظلمة. رأى رايتشل، راشيل، راحيل، نائمةً على فرشتها قرب الصندوق الخشبي تلتف بشرشفٍ من القطن الأبيض. ما كان ظاهراً منها إلا وجهها الأبيض كالشرشف، وشعرها الأسود كالظلام. اقترب ثم جثا قربها. وضع يده على كتفها. قال:

ـ لا أقدر أن أنام.

فتحت عينيها لحظة. رأى اللون البنفسجي يلمع في البياض حول البؤبؤين السوداوين. قالت:

ـ Come here*.

تمدّد قربها. غطّته. نام وأنفاسها على عنقه. في المنام رآها تحمله إلى غرفته، إلى الغرفة حيث ينام مع وليم وجورج ومارتن،

---

* تعال هنا.

أخوتها الثلاثة. لم يوقظه آذان الفجر. سمعه يأتي عبر الدرفات المفتوحة فيطغى للحظة على طنين البعوض. لكنه لم يفتح عينيه. عرف أنه لم يكن يحلم. عرف أنها حملته فعلاً إلى غرفته وهو نائم. ابتسم وسقط إلى أعماق النوم.

ـ 34 ـ

تقرر تعطيل المدرسة فترة أسبوع. الضجة الصادرة عن ورشة «القشلاق» لا تُحتمل. يدكّون البرج الذي بناه إبراهيم باشا بالبارود، ويجرفون الهضبة، لبناء ثكنات ومستشفى عثماني.

*

قال الدكتور طمسن للمرسل شافرد:

ـ دعنا نصعد إلى عيتات. ما رأيك؟

سأله شافرد:

ـ والأولاد؟

قال طمسن:

ـ كلّنا. الياس يجلب لنا البغال في لحظة.

سعل شافرد وقال:

ـ لا أعرف.

قال طمسون:

ـ على الأقل يخلصك الهواء الجاف من السعلة.

قال شافرد:

ـ حسناً.

*

في عيتات استقبلهم الدكتور فانديك تحت السنديانة. وجاءت جوليا بالتوت المبرد. يوسف دخل مع وليم الدار فرأى رسمه مبروزاً في إطار من الخشب المدهون ومعلقاً وسط الحائط.

سأله وليم:

ـ كيف ترسم هكذا؟ من علَّمك؟

قال يوسف إنّه لا يعرف.

نظر وليم إلى وجه فانديك، وإلى وجه جوليا، في لوحة يوسف المؤطرة، وفكر أن الآنسة قد تبدلت كثيراً في غضون الأشهر الفائتة.

قال ليوسف:

ـ صارت تشبه محاسن والعوالم بناتها.

قال يوسف:

ـ عيبْ. اسكتْ!

سكت وليم.

(الملكة محاسن)

جاءت محاسن من الإسكندرية مع القوّاد المشهور حبيب بوغوص الأرمني مؤسس أول دار دعارة في بيروت. في تلك الفترة (مطلع ثلاثينات القرن التاسع عشر) كان محمد علي باشا يفرض في القاهرة ـ بطلبٍ من طبيبه ومستشاره الفرنساوي كلوت بيك ـ ضرائب باهظة على «العوالم»*. السبب بسيط: مرض السفلس الذي يضرب في عساكره كالوباء.

* الاسم المصري للمغنيات ـ الراقصات ـ بائعات الهوى. وقد عمّم هذه التسمية جيش المستشرقين عند منتصف القرن التاسع عشر.

الأمير محمود نامي، الذي درس الرياضيات في باريس، كان من جهته ـ وبصفته الوالي على بيروت من قبل الوالي المصري الكبير ـ أكثر تسامحاً من رئيسه مع الغانيات. فبالنسبة إليه لا يمكن بناء مدينة حديثة دون دُور دعارة تسهم في بعث الحياة الليلية مكرسةً الأمان في شوارع ما بعد المغيب. (هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فلا بدّ من إيجاد وسائل ترفيه عن عساكر إبراهيم باشا المنهكة بالحروب وبثورات الدروز وبمطاردة فلول الأتراك).

هكذا تحوّلت بيروت إلى مركز جاذب لعوالم القاهرة ـ والإسكندرية ـ الهاربات من «ضرائب اللعين كلوت بيك كاره النساء». والعالمة محاسن، أو محاسن الأفغانية (جدّتها لأمّها من أفغانستان)، كانت حتماً أشهرهن.

جلبها حبيب بوغوص الأرمني في شتاء بارد، وفتح لها بيتاً بين باب الدركاه ومخزن الفيالج. خلال أيام سطع نجمها في ليل المدينة. الضباط الشركس الذين لا يُسمح لهم بالزواج ـ من دون إذن محمد علي المباشر ـ نسوا كل همومهم في أحضانها.

كانت دافئة بيضاء بدينة لكن غير مترهلة. في الثانية والعشرين ولا ترقص إلا فيما ندر. تلفّ شعرها داخل البيت ـ كما في السوق ـ في طرحات قاتمة بغوايش ذهب. وفي الأعياد تُزين طرحاتها بالعقائص*، وتخرج في قميص أخضر طويل، مع شال أبيض على كتفها، وحزام أسود حول خصرها. لم تكن تطيق قلّة الأدب، خصوصاً خارج بيتها. مرة اعترض دربها حارس قليل العقل فأرسلت إليه في اليوم الثاني

* كُرات فضيّة بشراريب حرير.

ضابطاً ضربه خيزرانة أمام الناس، وهو يقول:

ـ هذا كي لا تقترب من بنات الأوادم!

اشتهرت الحادثة فسُميت بـ «الأميرة». وقيل إن لهذه التسمية سبباً أعمق وأخطر. قيل إن الأمير أسعد شهاب، أحد بناة خان الجوهرجية، ونسيب الأمير بشير الكبير، قد وقع في غرامها وطلب منها أن تتزوجه. قالت له:

ـ حبيب بوغوص وليّ أمري منذ باعني أبي له. تذهب وتطلب يدي منه.

لكن هذه إسطورة في الغالب.

*

بعد أشهر جلب حبيب بوغوص باخرة مليئة بالعوالم، واستأجر مخزن الفيالج ثم معمل الإنجليزي ستاتون للمناديل المشهورة بطبعة كفّ الأسد الحمراء، وحوَّل المساحة بين الدركاه ويعقوب إلى سوق للمومسات.

بعد هذا سمّوه «بوغوص وجه السعد».

لم تصنع «عالمة» منهن لنفسها الأمجاد أو الشهرة التي حازت عليها محاسن الأفغانية، الأميرة محاسن. قد يكون في وصولها أولاً علاقة بهذا. لكن البِكورية ليست كل شيء. العوالم الأخريات كن بطريقة ما رخيصات غير ثمينات. أحد الضباط الألبان طلِع بنظرية حول الدم الأفغاني الملوكي الجاري في عروقها، ومزج الحابل بالنابل، معتقداً أن المغول والأفغان شعبٌ واحد، قال:

ـ هي حفيدة سلالة تيمورلنك.

حبيب بوغوص ـ وجه السعد ـ استعان بهذه الأساطير، التي تُنسج حولها كخيوط العنكبوت، ليأسرها في بيتها ويحيطها بالغموض.

كانت فكرته أن كل غامض ثمين، لأن كل غامض مخفي ومطمور كالكنز. طمّرها في البيت الواقع بين مخزن الفيالج وبوابة الدركاه، وأمر رجاله بطرق ألواح الخشب على درفات النوافذ بمسامير الحديد.

لم تعد الأميرة محاسن تستقبل إلا الأعيان والخواجات الأجانب والأمراء. أحد رجال الإقطاع جاء من عكا بالسفينة الشراعية خصيصاً لزيارتها.

استقدم حبيب بوغوص من البندقية سريراً من صناعة آل مادزاروني* الذائعي الصيت. اضطر - لإدخاله إلى بيت الأميرة - أن يقتلع الباب من مفاصله. لم يزعجه ذلك. أوصى على باب محفور من خشب الجوز، ونقش عليه رسماً يُمثّل كيلوباطرة.

كانت ضجة السوق في الليل تمنع البيوت المجاورة من الراحة والنوم. الضجة الأقوى تخرج من المعمل الإنجليزي الذي تحوّل إلى بيتٍ بنوافذ وأبواب حمراء، وبغرف متشابهة متطابقة لا تُحصى. رفع مشايخ الإسلام والنصارى واليهود** عريضة إلى الأمير محمود نامي يطالبونه فيها بإقفال السوق. احتار الأمير في أمره حتى أنقذه اقتراحٌ من بوغوص وجه السعد:

- بدل أن نقفل بيوت السوق نمنع فتح نوافذها وأبوابها فتخفت الضجة ويذهب الانزعاج.

وهكذا وضع بوغوص أمام بيوت السوق رجالاً وظيفتهم إغلاق الأبواب فور دخول الزبائن أو خروجهم.

---

* Madzaroni.

** كانت محلة اليهود تقع في زاوية المدينة قرب باب الدركاه.

لم ينجح التدبير طبعاً. صوت الليل لا تحبسه الأبواب. وفي الحرّ يستحيل ترك النوافذ مقفلة. بعد وصول فوج عوالم جديدات هاربات من عكا (تولى عكا مؤخراً والٍ جديد) تحول مخزن الفيالج القديم إلى خلية نحل. محلة اليهود لم تعد تنام الليل. عقد الأعيان اجتماعاً في الكنيس، وخططوا لإحراق السوق العمومي. لكنهم لم يفعلوا شيئاً. (هم قلّة في المدينة، والأمير يكرههم).

في الفترة ذاتها تزايد عدد المشارب في أنحاء المدينة. معظمها قرب مثلث الكنائس، وفي منطقة البساتين داخل باب إدريس حيث تنتشر بيوت الإفرنج.

قرر المشايخ رفع أمرهم إلى إبراهيم باشا متجاوزين الأمير نامي. نجحت خطتهم. أُقفلت المشارب بسرعة. (خصوصاً بعد حوادث إطلاق نار في الليل وجرح جنود سكارى). أُقفل نصف السوق العمومي.

في السنة التالية أصدر إبراهيم باشا الأوامر بتجميع جميع «العوالم» في «ساحة عالسّور» ونقلهن من هناك إلى الميناء، ثم ترحيلهن بالسفن إلى إفريقيا.

عندئذٍ أعلنت العوالم أغرب ثورة في تاريخ المدينة. اجتمعن تحت قيادة سودانية تُسمّى سنار (لأنها وُلدت في سنار*). وتُسمّى جوهر أيضاً لأن جلدها الأسود المصقول يلمع كأن قنديلاً يشعّ من داخل جسمها. أقفلن على أنفسهن بوابة المعمل الإنجليزي. رفضن الخروج. وحين حاول الجنود خلع البوابة رمين عليهم مياهاً مغلية من النوافذ العالية. (اخترن المعمل، لا مخزن الفيالج، قلعةً لهن، لأنه

* بلى، إلى حيث نُفي زعماء الثورات على إبراهيم باشا.

بباب واحد ويسهل الدفاع عنه). قرّر إبراهيم باشا أن يفعل بهن ما فعله الغزاة القدامى بالمدن العنيدة: سوف يحرقهن كالحشرات.

هبّ الأمير محمود نامي طالباً الإذن بحلّ المسألة. لم يكن يدافع عنهن، وإنما عن المدينة التي حاول جاهداً تحويلها إلى باريس صغيرة دون نجاح.

أعطاه إبراهيم باشا الإذن. (عنده ثورات أهم يفكر فيها، في فلسطين وحوران والشمال). طلب الأمير محمود نامي حبيب بوغوص الأرمني. جاء الرجل. قال له الأمير:

ـ ماذا نفعل؟

قال حبيب بوغوص:

ـ نسأل الأميرة.

أرسل الأمير يطلب محاسن الأفغانية من بيتها. حين خرجت أصيب الأهالي بالذهول. كانت أسمن من بقرة ولونها كالشمع. لم تعد تشبه نفسها. عُرف فيما بعد أنها كانت تعيش على العسل والخبز والبطاطا المسلوقة فقط.

مشت الأميرة محاسن مخلفةً باب الجوز بنقش كليوباطرا خلفها، وصعدت في الطلعة قرب حمام الدركاه، والناس ينظرون إليها من الشبابيك، والأولاد يتبعونها عن الجانبين، حتى بلغت السراي. دخلت ومعها حارسها السوداني الضخم. كانت تدعوه روستان كما المملوك الذي ابتاعه بونابرت في مصر وأخذه معه إلى باريس كي ينام أمام عتبة بابه ويحرسه من الأعداء.

استقبلها الأمير واقفاً. سألها:

ـ ماذا نفعل؟

سألته:

ـ ماذا تقصد؟

اقترب حبيب بوغوص، مال عليها، وأخذ يحكي لها ما يجري في السوق، على بعد أمتار من بيتها. الأمير محمود نامي فكر أن هذا الرجل ـ وجه السعد ـ يشبه ابناً لها. كان الترهل قد كثَّر طيَّات جسمها، وعتمة البيت الموصد قد لوَّنت شفتيها بالأزرق والكحلي.

قالت:

ـ دعوني أتصرف.

خرجت من السراي إلى السوق. قرعت باب المعمل الإنجليزي، وقالت:

ـ هذه أنا.

فُتح الباب. دخلت. بعد ساعة رجعت إلى السراي.

ـ كلّهن يذهبن. إلا أربع بنات يبقين عندي ولا يستقبلن أحداً.

سألها الأمير:

ـ ولماذا يبقين هنا؟

أجابت:

ـ لأنهن مثلي. فقيرات متعبات وليس عندهن مطرح يذهبن إليه.

قَبِل الأمير.

عاشت محاسن مع «بناتها» الأربع يحرسهن روستان السوداني «في بيتٍ خارج الأسوار». (كان هذا شرط الأمير الوحيد). حبيب بوغوص رحل عن بيروت ولم يُسمع باسمه بعد ذلك. مخزن الفيالج رجع مخزناً للفيالج. الإنجليزي ستاتون أجّر معمله لتاجر مالطي يعمل في بيع القطن والصناديق المطعّمة بالصدف. وبيت الأميرة محاسن

استعاده صاحبه، لكن بلا الباب الفخم، وبلا السرير الإيطالي الثمين. الباب ابتاعه أحد التجار اليهود من حبيب بوغوص قبل سفره. وأما السرير فأخذته محاسن محمَّلاً على الجِمال إلى بيتها في البريّة خارج باب إدريس.

في أيلول 1840 قصف الأسطول الإنجليزي ـ النمساوي بيروت لطرد إبراهيم باشا منها. أصابت قنابله السور الرملي فعلقت فيه. لكن بعضها سقط على بيوت المدينة وثقب سقوفها ودمَّر زواياها. تهدم جزء من البرج المسلّح (قلعة بيروت) في شمالي المدينة. وسقطت سبع قنابل فوق بيت محاسن القديم فحوّلته إلى ركام.

ترك إبراهيم باشا بيروت. تركها الأمير محمود نامي أيضاً. محاسن بقيت في بيتها مع بناتها وحارسها خارج باب إدريس. كنَّ يغزلن الحرير على المِنوَل، ويستقبلن الزبائن سرّاً. أطلقت سنار ـ وهي الزعيمة بين البنات الأربع ـ على محاسن لقب «الملكة الأم». بعد سنوات دخل يوسف مع وليم إلى غرفة الملكة الأم محاسن، وتمدّد على سريرها، فأحسَّ أنّه في قصر.

ـ 35 ـ

عند المساء قال وليم ليوسف:

ـ كنت أقصد أنها صارت مثلهن بدينة. هذا كل شيء.

هزّ يوسف رأسه.

كانا يتمدّدان على السطح، والسماء فوقهما مدروزة بالنجوم. قال وليم:

ـ قريتك قريبة من هنا؟

قال يوسف:

ـ لا، قريتي في الجانب الآخر من الجبل.

سأله وليم:

ـ تشتاق إليها؟

سأله يوسف:

ـ تشتاق إلى أميركا؟

*

في اليوم التالي حملوا طعامهم إلى الحقول. كان الهواء عليلاً. ركضت رايتشل مع الصبيان حتى نادتها المسز شافرد. المستر شافرد

قال «دعيها»*.

قضت رايتشل ما تبقى من النهار صامتة. يوسف لاحظ وجومها، وتذكر كيف حضنته تلك الليلة، وأحسّ بالحزن.

مارتن تسلق شجرة صنوبر ولم يعد قادراً على النزول. صعد يوسف إليه وساعده. طوال الوقت ظلَّ جورج يحوم مع وليم حول الشجرة في خوف. (المهم أن ينزل مارتن قبل أن يراه أحد الكبار، وإلا . . .) نجح يوسف في إنزال مارتن. ضرب وليم مارتن على رأسه. دفعه جورج بعيداً. تعاركا وسقطا وسط العشب. هتف يوسف:

ـ Your mother**!.

توقفا عن العراك. ضحك يوسف ومضى مبتعداً. لحقه مارتن. في البعيد ظهرت المسز شافرد جالسة قرب ابنتها تعدّ اللحم للشواء تحت الزيتونات.

جلس يوسف قبالة رايتشل. بعد الطعام تمدّد في ظلال إحدى الأشجار. نام والهواء يداعب وجهه ورأى نفسه في قصر الملكة الأم محاسن***. أيقظه مارتن يدفع عوداً في أذنه ويكتم الضحكة. كشَّر يوسف فهرب الفتى الصغير راكضاً. أغمض يوسف عينيه من جديد. كانت ضجتهم تصل إليه واهنة. نظر عبر غيمة النعاس اللذيذ فرأى الدكتور فاندايك يسكب القهوة سوداء من ركوة صفراء في فنجان شفّة أبيض في يد الدكتور طمسن. خلفهما ظهرت رايتشل ترفع سلّة عن

---

* Let her.

** أمّكما!

*** في المنام تحوّل البيت المخفي وسط البساتين إلى قصر باز.

الأرض وتلتفت نحو الآنسة جوليا التي لم تعد آنسة، جوليا التي صارت مسز فانديك.

رجع إلى النوم. على الفور وجد نفسه في بيت الأم والبنات العوالم من جديد.

(ماذا ذهب يفعل هناك)

أخذه وليم كي يرى روستان السوداني. أخبره وهما داخل السور أن العبد أعرج ويظل قاعداً على عتبة البيت طوال الوقت يدخن سجائر يلفّها ببطء شديد ويكشّ الذباب عن قدميه الحافيتين. بينما يخرجان من بوابة إدريس، إلى بساتين التوت والمساحة الرملية المترامية، أضاف أنه يكره الأولاد لكنه يحبّه ويحبّ أخويه جورج ومارتن ولا يؤذيهم أبداً. قال يوسف:

ـ ربما لأنكم شُقر.

قال وليم:

ـ إذا هجم عليك الآن نتأكد.

تذكر يوسف ما سمعه طفلاً عن «الفرقة السودانية»، هؤلاء الرجال السود الذين أفزعوا بلونهم أهل الجبل.

دخلا غابة من التوت والزنزلخت. أعتم الفضاء حولهما. فكر يوسف أن وليم يكذب. قال:

ـ لا توجد بيوت هنا!

بعد لحظة ظهر البيت مخفياً بين الشجر الكثيف. وأمام عتبته، كما قال وليم تماماً، يجلس روستان.

قطف لهما فولاً أخضر من الحقل وراء البيت. قال وهو يبتسم، فتلمع أسنانه بيضاء وسط الأسود:

ـ Silent! Sleep!* .

دُهش يوسف من لهجته الإنجليزية العجيبة. قال له وليم في أذنه:

ـ محاسن وبناتها نائمات. يستيقظن في الليل فقط.

(رايتشل)

سمع صوتها ففتح عينيه. قالت:

ـ We're leaving!** .

نهض ونفض حبّات التراب وورق الزيتون عن ثيابه. ساعدته. يدها على ظهره لطيفة وقاسية معاً. قال لها:

ـ Don't be sad!*** .

قالت إنها ليست حزينة، لكنها فقط تذكرت جدّها.

سألها:

ـ جدّكِ؟

بعد أيام أخبرته حكاية القس الكساندر شافرد سينيور، أول مبشّر أميركاني وطأت قدمه أرض هذه البلاد، وأول بروتستانتي أميركاني تحول إلى دين الإسلام****.

---

* سكوت! نوم!

** سنذهب.

*** لا تكوني حزينة!

**** يمتلىء تاريخ القرصنة في البحر المتوسط بأخبار الأسرى التجار «البروتستانت الإنجليز» الذين أسلموا في سفن وسجون وبيوت القراصنة الأفارقة. (قراصنة المغرب والجزائر وليبيا وتونس والصومال). كانوا في معظمهم يسعون بإسلامهم إلى الفرار من العبودية. وقد نجح بعضهم في خطّته وعاد إلى بريطانيا حيث تعمد مجدّداً فرجع مسيحياً.

_ 36 _

في السنة الثالثة سافر المرسل شافرد مع الدكتور بيدل والدكتور طمسن إلى حلب فترة شهر. عندهم مهمة تبشيرية، ويريدون زيارة المستر جون سكوت الذي أنشأ محطة إنجيلية هناك. الدكتور طمسن، من جهته، مهتم أكثر بزيارة أطلال دير مار سمعان العمودي* في الطريق.

خلال غيابهم أتى أستاذٌ جديد: المستر هاميلتون الذي سيُعلم يوسف ورفاقه الحساب والجغرافيا معاً.

(فروض)

طلب من التلامذة حساب مساحة بيروت. جلبوا خيط حرير وقاسوا طول السور من زاوية الدركاه إلى باب الدباغة. كان السور متداعياً قرب باب السراي (في نصف المسافة تقريباً). اضطروا للقفز فوق الحجارة والأتربة، وخيط الحرير يكرّ خلفهم. بين الحجارة العملاقة رأوا كُرات الحديد السوداء الباقية من أيام قصف بيروت. حين بلغوا باب الدباغة قال يوسف إن هذا لا يكفي. عليهم تسلق

* الناسك الذي قضى أربعين سنةً من حياته على رأس عمود في بادية الشام وحيداً مع فروة خروف في حرّ وقرّ القرن الرابع للميلاد. كان لا يأكل إلا التين وورق الخس يُرفعان إليه بسلة خيزران.

سطح حارة القوّتلي* والوصول بالخيط إلى الشاطىء. من يقدر على تسلق الحائط؟ لا أحد إلا يوسف. ضحك. قفز بالخيط في يده. صعد كالماعز على الحجارة.

*

على السطح رأى بقايا الغرفة حيث مات الحاج عبد الله القوّتلي قبل سنوات من نزوله هو (يوسف إبراهيم خاطر جابر المولود في كفربُرك في حزيران 1832) إلى بيروت. وليم أخبره الحكاية.

(حكاية الحاج اليوناني)

كان متسلّماً لقلعة بيروت من قِبَل الولاة العثمانيين المتعاقبين على المدينة. لم ينافسه على منصبه غير شيخين من عائلة قلعجي (حملت العائلة هذا الاسم لأن أجدادها توارثوا حراسة القلعة ورياستها لزمن طويل). وبموتهما خلال هجمة للقراصنة في سنة 1807 أو 1808 اطمأن إلى ثبات مركزه. لم يدمْ هذا طويلاً. في 1819، خلال حكم الوالي العادل سليمان باشا، نزل القراصنة اليونان ليلاً قرب القلعة وهاجموها واجتاحوا بيت الحاج القريب وأخذوه أسيراً. فرقة أخرى منهم فجّرت بوابة الدباغة بالبارود ودخلت المدينة. هاج عليها الأهالي وطردوها. هرب القراصنة مع أسيرهم. (كان قد خبّأ في اللحظة الأخيرة زوجته وابنه الوحيد داخل غرفة المؤن).

تسلَّم القلعة رجل من آل قلعجي. امرأة الحاج بعد رحيله حملت ولدها إلى بيت أهلها في الشويفات حيث عاشت ثلاث سنوات بائسة،

* هذه حارة الأمير عبد الناصر التنوخي. بناها في زمن الإمارة المعنية بين باب الدباغة وقلعة بيروت. تهدّمت تدريجياً ثم ابتاعها الحاج عبد الله القوتلي المعروف باليوناني ورمّمها.

في ظلّ أمها المتجبرة. بعد ذلك فضّلت وحدة البيت الكبير الفارغ وهدير الموج عند أساساته والخوف في الليل الطويل، فضلت كل هذا على صوت أمها ونظراتها، ورجعت إلى حارة القوّتلي. عاشت من بيع السلاح المكوّم في قبو البيت، ومن الشغل في بيوت القزّ أجيرةً.

بعد ثماني سنوات حدث هجوم آخر. القراصنة نزلوا هذه المرة إلى الغرب من بيروت في خليج عين المريسة. كانوا كثيرين واجتاحوا القرية. هبّ أهالي بيروت للمساعدة. اشتبكوا على الشاطىء الصخري. بعض القراصنة تجمعوا حول شاب من آل دبّاس وربطوه بالحبل وأخذوا بجرّه إلى قارب من قواربهم. في تلك اللحظة حدث ذلك الشيء الغريب: انفصل أحد القراصنة عن جماعته، وبسيفه المستقيم*، وبضربات مرعبة، مزّق حبال الأسير، خلّصه من أيدي اليونان، وانضم إلى أهالي بيروت وعين المريسة.

بعد ساعة من القتال، في ضوء المساء الخفيف، فرّ القراصنة مهزومين.

عندئذٍ فقط تجمع الأهالي حول القرصان الغريب. كان وجهه محروقاً بشمس البِحار، والندبات تملأ جسمه المدمى والممزق الثياب. ندبات قديمة، وندبات جديدة. ابتسم لهم. كانوا ينظرون إليه كمن ينظر إلى صنف من الكائنات لم يرَه من قبل. كأنه دلفين في الصحراء، كأنه نصف مجنون.

قال بلسان ثقيل، وبعربية صحيحة:

ـ ألم تعرفوني؟

ظلّوا ساكتين. لم يعرفه أحد. كان الليل يهبط.

---

* سيوف بلادنا كانت هلالية الشكل في معظمها.

قال:

ـ أنا الحاج عبد الله حسين القوّتلي حكمدار القلعة.

ثم جثا على الأرض.

(خيط الحرير)

قفز يوسف فوق ركام الغرفة. حجارة وجسور خشب وبقايا سجاجيد مهلهلة. للحظة عابرة تذكر غرفة يوسف الأول والثلج. لكن صرخات رفاقه تحت انتشلته من بئر الذكرى القاتلة فوراً. نزل عن حافة السطح البعيدة، بعد أن عقد الخيط للعلامة مستعيناً بأغصان الشجرة النابتة بمحاذاة حائط القلعة. (لم تعد قلعة، سوف تُحوّل إلى جامع*. ما زالوا ينظفون أقبيتها من القاذورات). قفز إلى المصطبة الحجرية. رأى السلسول والموج يتسلقه. وليم أخبره أن أباه رأى الحاج اليوناني قبل موته جالساً في «قهوة العمر» في سوق النجّارين. كان يقعد كالسندباد والناس حوله يخبرهم عن مغامراته مع القراصنة اليونان. حتّى أرسل إليه الوالي ـ أو ربما الأمير** ـ من يهدّده بالموت إذا تابع كلامه الكافر عن بطولاته الكافرة مع القراصنة الكفّار.

لجأ الحاج عبد الله القوّتلي حينئذٍ إلى حارته وزوجته وابنه. كان يريد أن يحكي ويحكي ويحكي حتى ينام. ولمّا يستيقظ صباحاً يعدّ القهوة ويوقظ زوجته أو ابنه ويبدأ بالحكي من جديد. يحكي عن غزوةٍ على الشاطىء التونسي أو المغربي، عن مدينة بيضاء كالثلج وسط الصحراء، عن مضيق بين إسبانيا وإفريقيا، وبحر هادىء بلا موج، وخطٍ أزرق ـ رمادي بعيد، وسفينةٍ تنكسر نصفين وتغرق في خليج أبو قير، ونساءٍ بشعر أشقر يدافعن بالأيدي عن مصنعٍ للنسيج على شاطىء

---

* الجامع المجيدي. (أو جامع المجيدية. نسبةً إلى السلطان عبد المجيد الثاني).

** لا يعرف وليم مَنْ.

أوروبي. . . يحكي ويحكي وزوجته تتحمل ذلك ثم في الختام تنفجر. تلعنه وتشتمه (كأن روح أمّها قد سرت في جسمها) وتقول أكلنا خبز الشعير والبلوط وعشنا في الذلّ والمهانة طوال سبع سنوات وأكثر وأنت تجول في العالم وتضحك وتعيش ثم تأتي الآن وتريدنا أن نستمع إلى حكاياتك، حرام عليك يا حاج، ملعون أنت! ولست حاجاً ولست مسلماً ولا تخاف الله!

بعد هذه الجولة صعد الحاج إلى السطح وابتنى لنفسه غرفة. هناك كان يجلس في الليل والنهار، ناظراً عبر النافذة المربعة الصغيرة إلى البحر الأزرق المترامي. أرادت زوجته أن ترمي سيفه اليوناني لكنه خطفه منها. جلبه إلى الغرفة. علّقه على الجدار. ابتاع أيضاً أرجيلة. صار يدخن طالما هو مستيقظ. ابنه حسن كان يضع خبزاً وصحن طبيخ كل مغيب* عند حافة السطح ثم يأخذ الصحن فارغاً في الليل أو الصباح.

خلال الصحو يُخرج الحاج طراحةً إلى أمام الغرفة. في الشتاء يتراجع إلى الداخل. في عزّ موسم الأمطار يشقّ درفة النافذة فيحسّ نفسه ناظراً من كوّةٍ في بطن سفينة بينما الريح تهزّ كل شيء والموج يصخب في أذنيه.

ذات ليلة عاصفة تهدّمت الغرفة فوقه. لا أحد يعرف كيف حدث ذلك. هي غرفة ضعيفة البنيان بالتأكيد. وفي النهاية الأعمار بيد الله، والحاج عاش حياتين لا حياة واحدة، والله كفاه شرّ الشيخوخة وذلّها، صحيح؟

لم يعرف أحد لماذا تهدمت الغرفة في تلك الليلة بالذات. يوسف الصغير فكّر، وهو يتذكر أخاه الأكبر وموته مع عائلته بعد تلك

* بعد أن ينتهيا من طعام الغذاء تجمع الأم بعض البقايا في الصحن المعدني وتدفعه إلى ابنها حسين: «خذْ! اطلعْ».

الصاعقة التي قصّت حائط الزريبة، أن غرفة الحاج أصيبت بصاعقة من السماء تلك الليلة. تأكد له ظنّه هذا بعد أن درس في العلوم أن الحديد جاذب للكهرباء والصواعق. فوليم أخبره أن الحاج كان يُعلّق سيفه اليوناني فوق رأسه على الدوام.

*

تحرك خيط الحرير في يده. سمع هتاف الأقران. عقد الخيط عند أسفل الحائط، وعقَده مرةً أخيرة قرب الشاطىء، ثم قفل عائداً.

يجب تنقيص ارتفاع حائط الحارة من القياس مرتين، وعندئذٍ يحصلون على القياس المطلوب: قياس السور من زاوية الدركاه في الجنوب إلى الميناء في الشمال.

بعدئذٍ يبقى أن يقيسوا عرض بيروت من ما قبل الدركاه إلى ما بعد بوابة يعقوب، فيحصلوا على المساحة بعملية ضرب واحدة.

(فرض مساحة بيروت)

طول السور = 540 متراً.

عرض السور = 343 متراً.

مساحة مستطيل بيروت = عرض × طول = 185220 م^2.

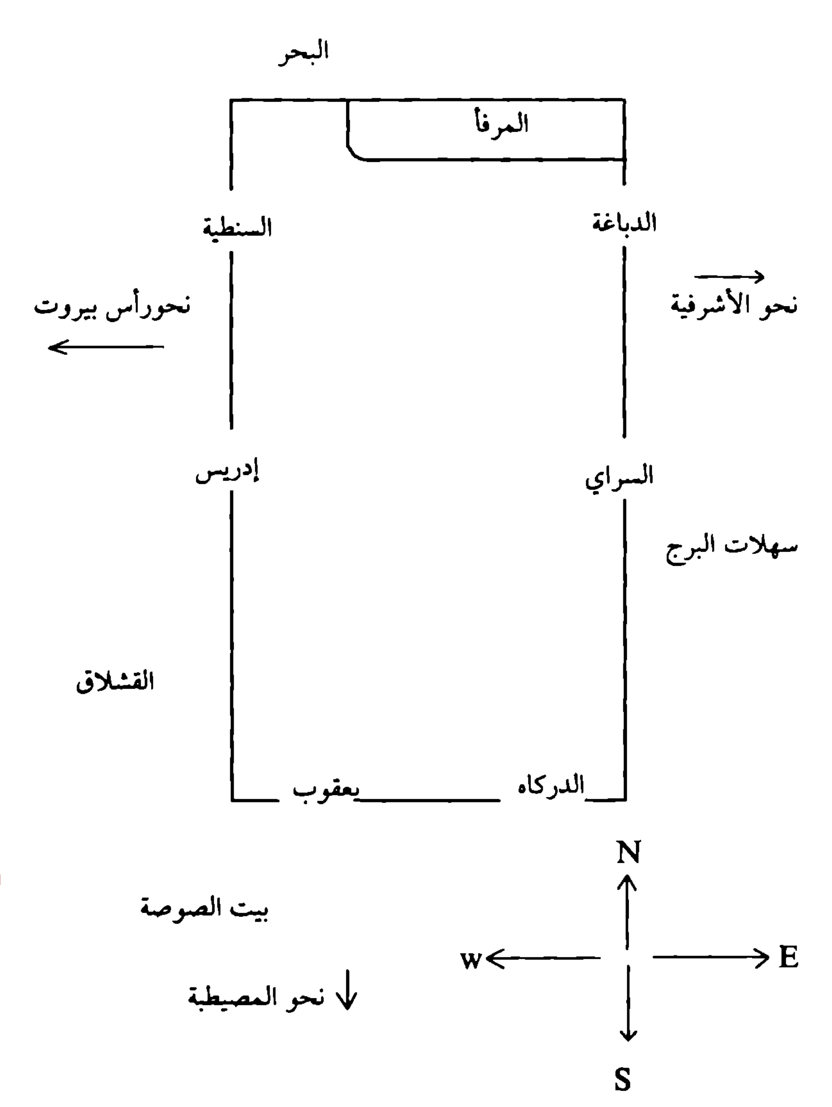
مع هامش خطأ ناتج عن:

أ ـ تعرج أضلاع المستطيل.

ب ـ وجود بقعة من المدينة (داخل بوابة السنطية) متجاوزة لضلع المستطيل الشمالي.

انظر إلى الخريطة مسترا!

(الخريطة)


البحر
المرفأ
السنطية
الدباغة
نحوراس بيروت
نحو الأشرفية
إدريس
السراي
سهلات البرج
القشلاق
يعقوب
الدركاه
N
W
E
S
بيت الصوصة
نحو المصيطبة

ـ 37 ـ

حين يأتيان عصراً تسمح لهما محاسن بالصعود إلى السرير. تنزل وتجلس على الطراحات بين البنات. هنّ ينزعن الشعر عن سيقانهن بعجينة السكر، وهي ـ الجرداء منذ الطفولة ـ تضحك وجسمها الكبير الكثير يرتج. وليم ويوسف ينظران إلى الفوانيس المعدنية على الجدران. وإلى المصابيح الفخارية والشموع في الزوايا. ويستمعان إلى أحاديث سنار وآمنة وهند والبنت الرابعة*. حين تتكلم محاسن يسمعان كلماتها كموسيقى البيانو في بيت القنصل شاسود. سنار أخبرتهما مرة أن محاسن، في العصر الذهبي، كانت لا ترقص أبداً لأن صوتها وحده يذيب الرجال جميعاً كالنار على الشمع.

أحياناً لا تنزل المرأة البيضاء الضخمة عن السرير، فيصعدان قربها. تضحك وتدفعهما بأصابعها القوية. تقول: «أنادي على روستان ينقذني من شرّكما». تضحك البنات الأربع معها.

مرات تأخذ آمنة وليم إلى الغرفة الأخرى. يراه يوسف ماشياً خلفها ويده ترفع بنطلونه كي يخفي عضوه الذي يكبر. يتلهى خلال غيابهما بالنظر إلى ستائر النوافذ المفقشة الملونة، أو بمراقبة سنار وهي

* لا نعرف اسمها. نقدر أن نعطيها أي اسم نشاء. كُشك هانم مثلاً، العالمة التي خلّدها غوستاف فلوبير.

تغسل قدمها السوداء وباطن قدمها الأبيض ـ الوردي، في خفةٍ غريبةٍ (تتحرك ذراعها كأنها أفعى تتراقص)، أو بالاستماع إلى همهمة الملكة محاسن النائمة. تنام كثيراً، قالت له هند، ولا تقوم إلا لتأكل أو كي تُحدّث أحد الأعيان في نصف الليل.

ترجع آمنة. رسوم الحناء كأوراق العنب على يديها. تضحك:

ـ الديك الأشقر الصغير تَعِب اليوم!

تردّ سنار من الزاوية:

ـ والدجاجة الحمراء هي السبب.

يخرج وليم مزهواً بعينين رطبتين.

*

بعد فترة يدخل يوسف أيضاً تلك الغرفة. لا تأخذه آمنة بل الرابعة التي لا نعرف اسمها. تُمدّده على فرشة على الأرض. تنزع عنه بنطلونه الفضفاض فقط. تُبقي المداس السختيان* في قدميه. الكلسات** أيضاً. وتُبقي كنزته كذلك. تأخذ عضوه النائم الصغير في يدها وتداعبه. هو يغمض عينيه. الدم يفور في وجهه. كل عضلاته تتخشب. يحسّ أنه يثقل كقنابل الحديد في جنينة المرسلين، وأنه سيغوص في التراب مع الفرشة. يفتح عينيه لحظة. ينظر جانباً. يرى بقعة رطوبة على الحائط. لونها أخضر من الخزّ. يغمض عينيه. يحسّ بها تنحني عليه بفمها. يريد أن يفعل شيئاً. لكن ماذا، لا يعرف. ينتظر أن ينتهي ذلك. هل سينتهي؟ بعد قليل يشعر بعضوه يكبر داخل البلل. يدغدغ لسانها بطنه، وتمسك أصابعها به من جديد. يصير

* جلد الماعز متى دُبغ.

** الجوارب. وكان دخولها الأول إلى حياة بلادنا (وأقدام أجدادنا) خلال فترة الحكم المصري.

قاسياً. تتمدد على ظهرها قربه. تقول:

ـ اطلغ فوق.

يطلع فوقها. (يريد أن يتخلص من مداسه لأن على كعبه تراب وهو يخشى أن يوسخ الفرشة. لكنها ـ كما يبدو ـ لا تريد). تُوسّع له مطرحاً بين ساقيها. ماذا يفعل الآن؟ وليم أخبره عن هذا. لكنه غير واثق من الأمر. ماذا لو أخطأ؟

تُنقذه. تأخذ عضوه في يدها وتُدخله. ينزل ويلتصق بها. يخفي وجهه في عنقها وشعرها. يشمّ رائحة حنّة. ورائحة عرق. ورائحة عفونة من الفرشة والحيطان. في اللحظة التالية تزول كل الروائح. يغرق في لذّةٍ صافية كالماء لا تلبث أن تعتكر بعد ثانية.

- 38 -

ألقى عمر باشا النمساوي* القبض على الشيخين الأخوين سعيد ونعمان جنبلاط، وزجّهما في سجن بيروت. (الطابق السفلي من السراي. يُسمّى «الزندان») كان يهدّدان بشنّ حرب عليه، قال للباب العالي.

*

ذات أحد، قبل الظهر، انطلق يوسف نحو السراي. المرسلون جميعاً - مع عائلاتهم - في شمالي المدينة الآن، في فيلا شاسود، يقيمون قداسهم الخاص. تجاوز مخزن فابري المالطي. ثم الزقاق المفضي إلى سوق الموسمات القديم. ودار حول زريبة فوجد نفسه في ساحة الدركاه. شرب ماءً من السبيل ثم صعد في طلعة الكنائس. الأجراس تقرع في أذنيه. كنيسة الموارنة، ثم كنيسة مار جرجس الأرثوذكسية، ثم كنيسة مار الياس الملكية للروم الكاثوليك. في طلعة النجّارين فاحت رائحة نشارة الخشب فأحسّ أنه يدوخ. أينما نظر يرى الناس في ثياب الأحد مسرعين إلى القداس.

---

* نصبه السلطان حاكماً مدنياً على الجبل اللبناني بعد حوادث 1841. لم يكن تركياً، بل كرواتياً مسيحياً. وُلد سنة 1806 تحت اسم ميخائيل. وبعد أن أسلم دخل في حاشية مصطفى باشا.

تسلق الجميزة الكبيرة قرب السراي. ونظر ـ من فوق ـ إلى نوافذ السجن ذات قضبان الحديد. لم يرَ إلا العتمة في الداخل. نزل عن الجميزة.

مشى في سوق الفشخة الخالي من الزحمة. معظم الحوانيت موصدة. قناة الدواب وسط الزقاق مليئة ببعر الماعز. لا بد أن قطيعاً عَبَر في الصباح. إلى يساره جامع السراي، ثم الجامع العمري. انعطف ودخل إلى باحة جامع الأمير منذر وشرب ماء من النوفرة وتفرج على صدفها البحري. نزل في «سيدي سليمان» عائداً إلى الفشخة. الحبال المعلقة في فضاء السوق اهتزت في الهواء. العواميد الخشبية عن الجانبين، بالعجلات المثبة في أعلاها، مالت هي أيضاً. رفعت الريح الغبار المتكدس في الطرق الترابية والحجرية، وقذفته في عينيّ يوسف. أسرع نحو باب إدريس. أراد الخروج من المدينة.

في البساتين وقف متفرجاً على نوافذ «البيت الأحمر» الموصدة.

(البيت الأحمر)

جاءت محاسن بالطلاء الأحمر من وكالة بسترس. وكالة بسترس جاءت بالطلاء من فلورنسا. البنات ـ سنار وآمنة وهند وكشك هانم ـ قُمن بطلاء درفات النوافذ وخشب الباب وبيت الحمام على السطح. روستان وقف تحت الصفصافة اليابسة متفرجاً. بدا في وقفته كالفزاعة المكسورة، وهو يميل على ساقه غير الصحيحة*. بعد جولة الدهان

---

* يبدو أنها إصابة من إحدى الحروب الكثيرة التي خاضها في جيش عباس باشا (أحد أبناء محمد علي الكبير). كان ـ في زمن سابق ـ يضحك منها، فيقول، ويده على ركبته: «هذه من معركة الأهرام». وهي معركة وقعت قبل ميلاده، أو في أيام طفولته.

خرجت محاسن لتنظر النتيجة. هنّ تجمعن حولها بانتظار كلمتها.

بعد أيام تركت هند البيت. انتقلت إلى داخل الأسوار. ضابط شركسي يُدعى عبد المجيد باشا استأجر لها بيتاً قرب مخازن الدباغة، قبالة المسلخ. من نافذة بيتها تظهر المئذنة الخشبية للجامع القريب. من نافذة مقابلة يظهر المسلخ وأشرعة السفن في الميناء خلفه. ذهبت بالثوب الذي عليها. لم تأخذ من البيت غرضاً واحداً. محاسن منعت ذِكرها بعدئذ.

مضت فترة ثم نقلها عبد المجيد باشا إلى غرفة أخرى، في آخر سوق الدباغة. يوسف ووليم، عن درج فيلا شاسود، كانا يبصرانها تفتح درفات النافذة ظهراً وتطلّ على الزقاق. خارج النافذة، في الحوض، تنمو شتلات حبق ومردكوش.

لم تبقَ هنا طويلاً. انتقل عبد المجيد باشا إلى القدس فمضت معه. أنزلها قرب باب العمود. وحين عاد أسكنها في حيّ الافرنج بين إدريس والسنطية. كانت أضخم الآن، وأجمل. وقع في غرامها شابٌ يُدعى سليم دحداح يملك «قهوة» شمالي حيّ الفرنج، عند طرف سوق الدباغين. فوق باب مقهاه عُلِقت يافطة خشبية مربعة، لونها أبيض، ومنقوش عليها بحروف خضراء كلمات غريبة:

فندق توماس كوك

القدس

كان قد عثر عليها عند الشاطىء، بعد غرق سفينة بلجيكية قبالة صخور المدوّر، قرب قلعة بيروت. يومذاك كان ولداً ولا مقهى عنده. حمل اللوحة إلى بيت أبيه وعلّقها. سخر أبوه منه. منذ تلك اللحظة بدأ يفكر في مكان يليق بهذه اللوحة التي أرسلها القدر إليه. حين سمع أن الشيخ كمال دحداح يريد تأجير العقار آخر الدبّاغين

مضى إليه حاملاً إسوارة جدته. كانت تفضله على جميع أحفادها الآخرين لأنه يقلي لها البيض بالسمن لا بالماء.

رأى سليم دحداح وهو يُنظف النرابيج أمام رصيف القهوة الخشبي (يُسمي هذا الرصيف: «مصطبة الفؤاد») البنت هند لأول مرة بينما الضابط عبد المجيد يأخذها إلى القدس. لحق بالقافلة من بعيد عبر الدبّاغين، نزولاً في زقاق الحدادين، وحتى بوابة السراي. حين غادرت القافلة المدينة رجع إلى نرابيجه. الزبائن لاحظوا شروده طوال الشهر التالي.

لم يعرف أنها عادت إلا بعد فترة. سمع أن الباشا عبد المجيد استأجر غرفة في حيّ الافرنج. للوهلة الأولى فكّر أنها غرفة لبنت أخرى، لعالمة رجع بها الباشا من القدس. ثم تذكر دوائر هند، وقال: «يستحيل أن يتخلى عنها، ويستحيل أن يقبل بأخرى» كان يفكر في الضابط. ولكن أيضاً في نفسه. بات يذهب ويراقب الغرفة. كانت قرب بيت الصيدلي الإيطالي كرولا. تحتها حديقة مربعة مزروعة بالورد.

يوسف ووليم كانا في زاوية الزقاق القريب، خلف شجرات الصبّار، يراقبانه.

استمر هذا ثلاثة أشهر. ثم رجعت هند إلى «البيت الأحمر». عُرف أن الضابط رجع إلى إسطنبول. وأن لديه زوجات كثيرات هناك.

في كنف محاسن فقدت هند نصف وزنها. الشاب سليم دحداح يأتي إليها كل ليلة ولا يذهب إلا مع وجه الصباح. يوسف ووليم لم يخبرا قصته للبنات. وليم أراد ذلك. يوسف قال لا.

مضت أيام. ذات ليلة لم تستقبل هند عاشقها. استدار خائباً وخرج. وقف لحظة ينظر إلى روستان جالساً يلف سيجارة على فخذه

وساقه المعطوبة مفرودة على التراب. ثم مشى. لكنه سمع صوتاً خلفه. استدار. رأى السوداء. فكّر أن هند بدلت رأيها. ابتسم وعاد. أدخلته سنار إحدى الغرف وتعرَّت ناظرةً في عينيه. للتو نسي وجه هند، التي أحبّها وانتظرها، هند التي ملأت جسمه بالأوجاع.

لم تمضِ الأمور على خير. لا أحد يعرف ما الذي حدث. لا نعرف علاقة سليم دحداح ـ وقصته ـ بما حصل لاحقاً. لكن رحيله ـ بالأحرى اختفاءه ـ يشير إلى صلة ما.

تمَّ ذلك في خريف 1844. قاطفات التوت* عثرن على رجلٍ أسود مذبوحٍ من عنقه وسط المرجة جنوبي مقبرة السنطية. كان دمه يلطّخ العشبَ الأصفر اليابس، ويبقع نسيج عباءته البيضاء. الجنود الأتراك جاؤوا راكضين من تلّة القشلاق، ومن السراي. داروا حول الجثة. أبعدوا المتفرجين. انتبهوا إلى أكف العبد مطبوعة على أشجار السنط ثم على أشجار التوت. تابعوا الصراخ في وجه الناس لحظة ثم انطلقوا يتبعون أثر الدماء. مضوا عبر جلّ العيتاني. ثم قفزوا فوق الحيطان القصيرة لمقابر الأرض والكاثوليك واللاتين المتلاصقة. فبلغوا البساتين خارج بوابة إدريس. ركضوا بين الشوك ثم خرجوا إلى الباحة أمام «البيت الأحمر». وجدوا بابه موارباً وكل نوافذه موصدة. لا حمام على حواف السطح، ولا في السماء.

دخلوا من البوابة المواربة. وجدوا الهواء يلعب في الأرجاء. شرانق الغبار تطير عن الأرض، والسرير الأسطوري يربض وحده في الوسط كأسد عجوز. لم يعثروا على أحد. اختفى كل شيء.

* يُقطف ورق التوت في موسمين: الأول ربيعي يذهب غذاءً للقزّ. الثاني خريفي يُوضع في معالف الماشية.

القناديل. الستائر الملونة. المصابيح والشموع. الطراحات والمساند والبطانيات. كل شيء. حتى الفرشة التي ضربها العفن في الغرفة الداخلية، لم تكن هنا. على السطح، كان بيت الحمام فارغاً. لا شيء فيه إلا القاذورات والريش الرمادي والأسود والأبيض.

في الأيام التالية لم تفتح «قهوة دحداح» (قهوة كوك) أبوابها. اختفى الرجل مع محاسن وبناتها.

من قتل روستان؟ ولماذا ركض العبد حاملاً عنقه المذبوحة عبر البساتين والمقابر نحو السنطية؟ هل كان يسعى إلى البحر كي يغسل جرحه؟ هل كان يسعى إلى البحر وحسب؟ إلى هناك، من حيث جاء، قبل سنوات بعيدة، في باخرة عبّأها بوغوس وجه السعد بالإفريقيات؟

من قتل روستان؟ ولماذا قتله؟ لم يعرف أحد. لم تكن أول جريمة في تاريخ المدينة تبقى لغزاً، ولن تكون الأخيرة.

من يسأل عن عبدٍ مذبوحٍ أصلاً؟

أُقفل بيت العوالم. يأتي يوسف قبل ظهر الأحد أحياناً ويتفرج على الطلاء الأحمر لنوافذه وبابه. على السطح تتقافز بعض العصافير وتدور حول بيت الحمام.

المكان هادىء هنا. بعيداً يُسمع صوت البحر. أجراس الكنائس سكنت أخيراً.

- 39 -

ذهب المستر شافرد مع الدكتور بيدل في رحلة إلى القدس. لدى عودته كان يسعل بلا توقف. ظهرت نقاطٌ حمراء على منديله. فحصه الدكاترة. قرعوا على قفصه الصدري بقبضاتهم واستمعوا إلى الصدى. رئته اليمنى تتجوف. جرثومة السلّ تأكلها.

لم ينفعه هواء الجبل الجاف. لم تنفعه النذور. ولا صلوات المسز شافرد. تلك الليلة، في ضوء القنديل، ناظراً إلى أولاده يدرسون مع يوسف، فكر في رحلته إلى القدس، وتذكر ركوعه في كنيسة القيامة. على باب الكنيسة جلس عجوزٌ في ثياب قذرة، ينكش التراب بيدٍ ويبيع الذخائر باليد الأخرى. تذكر المستر شافرد جونيور عندئذٍ أباه المستر شافرد سينيور.

انتظروا إلى آخر الشهر. جاءت سفينة أميركية. ذهب يوسف لوداعهم مع باقي المرسلين. أعطاه مارتن سكيناً صغيرة. أعطاه وليم الكتاب المقدس خاصته. أعطاه جورج كنزة صوف زرقاء بطيور بيضاء وزهور صفراء على ظهرها. المستر شافرد ربت على كتفه، بينما المنديل يغطي فمه. المسز شافرد تركت له Emma، رواية من تلك الروايات الصفراء التي طالما تمنى قراءتها. وحدها رايتشل لم تُعطِه شيئاً. (المستر شافرد على الأقل منحه تلك اللمسة على الكتف).

نظرت إليه نظرة سريعة ثم مشت فوق الاصقالات* إلى السفينة.

لم يفهم لماذا فعلت ذلك. تقدَّم حتى حافة الرصيف. كاد يسقط في المياه. «انتبهْ»، قال له أحد البحارة. تراجع يوسف خطوة.

ظلَّ ينظر إليهم حتى اختفوا عن نظره. كان وجهه يرتجف. رأى السفينة تخرج من الميناء. رأى ظلالها على برج السلسلة. وجاءت نوارس بيضاء وحلقت فوق رأسه. كان وحيداً. خلفه المرسلون، وضجة الميناء، وصخب أولاد يركضون خلف جرذٍ عجوز. نظر إلى المياه، وبقعة قاذورات تطفو فوق الصفحة المتهادية. تبين وجهه مشوهاً في الماء. استدار ومشى نحو القوارب المقلوبة قرب المخازن.

* ألواح خشب تُمدّد بين السفينة ورصيف الميناء.

ـ 40 ـ

أقام في غرفة على الطابق الثاني في مبنى المرسلين. نزل معز الدين الطويل وزاره. (وضعت نسب صبياً ثانياً، سمّاه معز الدين حمزة، على اسم أبيه هو هذه المرة). يوسف استمع إلى معز الدين يحكي عن الجو العاصف في الجبل ثم سأله عن نور الدين. قال معز إنه بخير، وفي المرة القادمة سوف يجلبه معه.

سكتا. أخرج معز الدين عناقيد فليفلة حمراء من السلال. أخرج أيضاً فخارات مربى صغيرة. قال:

ـ وأنت؟

سأله يوسف:

ـ ماذا؟

قال معز الدين:

ـ أنت كأخي الصغير. يجب أن تُخبرني إذا أردت شيئاً. إذا احتجت شيئاً أو . . .

هزّ يوسف رأسه. قال:

ـ أعرف، أعرف.

*

ظهراً رافقه حتى زقاق البلاط ثم قفل عائداً إلى مبنى المرسلين.

في الغرفة رتّب الفخارات على الرفّ. لكل فخارة غطاء من الشاش الأبيض تظهر عليه لطخات المربى. أخذ يوسف فخارة منها ووقف إلى النافذة المطلّة على مينا الحصن وعلى البحر. نزع غطاء الشاش. التصق الدبق بأصابعه. مسح يده على ثيابه. مسحها على الجدار. التصقت أصابعه ببعضها البعض. والتصق بها الوبر من ثيابه، والغبار من حافة النافذة.

أكل المربى باليد الأخرى. طعم الدرّاق على لسانه ذكّره بزمن قديم. للحظة استعاد رائحة الجلول وراء بيت العقد، ورأى وجه أبيه فوق جرن الماء، والنقاط البيضاء تتلألأ على لحيته.

استمرت الذكرى لثانية ثم تبدّدت. مسح اليد الأخرى بقطعة الشاش فغزاها الدبق هي أيضاً. امتلأ فجأة بطاقة مخيفة. كان يستطيع في تلك اللحظة أن يدمّر الكون.

اكتفى بقذف الفخارة الملآنة من النافذة. طارت بعيداً وسقطت بين الشجر. لم يسمع صوت تحطمها. سمع طنيناً يدوي في أذنيه.

- 41 -

تساقط المطر غزيراً. طافت أزقة بيروت وتحولت إلى خنادق موحلة. الدكاكين غير المرتفعة عن مستوى الزقاق دخلتها السيول وخرّبتها. الحائط الغربي لمقبرة الخارجة تداعى. صعد الموج على أرصفة الميناء وسحب بضاعة متروكة خارج العنابر. لوت الريح أشجار السرو في حديقة بيت الصوصة وخبطت رؤوسها بالدرابزين الأسود المشغول. صعد مربو الحمام إلى السطوح كي يتفقدوا الأضرار. في البيت الذي ما يزال فارغاً فوق باب يعقوب استمر الدلف من السقف. نزلت خيوط الماء تُطرطق على الأرض الطينية، وسط الدار تماماً. هنا، في هذه النقطة بالذات، كانت المسز شافرد تقضي أماسيها مع تلك الروايات الإنجليزية الصفراء، قبل رحيلها إلى أميركا.

هبّت ريح قاسية بعد الأمطار. تحولت المدينة إلى عاصفة طرطقة. درفات النوافذ، القوارب جنب أرصفة المينا، الأشجار اليابسة، كل شيء يهتز ويرتعد في صخب الهواء.

النافذة في بيت آل شافرد ـ الذي تركه أهله ـ باتت عارية من ستارتها الزرقاء ومن لوحها الزجاجي أيضاً. فكّوه قبل الرحيل. أهدوه إلى المستر هاميلتون. كان قد تزوج من فترة قصيرة واستأجر بيتاً مُلك آل بسترس على هضبة الأشرفية القريبة.

بعد شهر أو شهرين من الإقامة الموحشة في تلك الغرفة في مبنى المرسلين جاء المستر هاميلتون وقال ليوسف:

ـ سوف تسكن معنا، اجمعْ أغراضك.

بينما يجمع أغراضه نظر يوسف من نافذته المطلّة على مينا الحصن. كان شبك الحديد يقسم المنظر إلى مربعات صغيرة غائمة. رأى سرباً من السنونو يعبر فوق التوتات. الأجنحة السوداء المخطّطة بالأبيض مزقت الفضاء فوق الأشجار العارية. أحسّ يوسف بألم تحت أضلاعه. لم يكن قد بلغ الثالثة عشرة بعد. لكنه شعر كأنّه قدْ عاش حياة طويلة منهكة، كأنّه مثل هذه الطيور... (هذه الأحاسيس عبرته هكذا، في لحظة خاطفة، ثم تلاشت كما تلاشت السنونوات في المسافة). فكّر وهو يضع كنزة الصوف ـ التي أهداه إياها جورج ـ في الصندوق الخشبي الذي أعاره إياه الدكتور طمسون، أن هذا ليس وقت السنونو أصلاً.

وضع فوق الكنزة، الفروة، التي حملها معه من بيت الشيخ المرحوم عبد اللطيف القاضي، قبل سنوات. فوق الفروة وضع كتاب Emma، والإنجيل، وكتاباً إنجليزياً نحيلاً عن «فن التّصوير» أهداه إياه القنصل شاسود. تردد لحظة واقفاً أمام كانون فحم صغير من الطين المشوي. هل يلفّه في بطانية ويضعه داخل الصندوق أم يحمله في يده؟ أشياء عديدة تأتيه هكذا! فكر يوسف. وتذكر مجيء الشيخ محمد العود* لزيارته في الربيع الفائت. جلسا على الشرفة، فوق سور المدينة. وجلبت لهما رايتشل القهوة. (كانت

* هذا قريب آل القاضي صاحب المتجر في سوق الدباغة والبيت قرب الجامع العمري. سمع بـ «الفتى الدرزي الذي عند المرسلين» فجاء لرؤيته.

أول مرة تسكب له قهوة). جلب له الشيخ كانوناً وأرجيلة. احتفظ يوسف بالكانون، وقدّم الأرجيلة للمرسل شافرد، الذي قدّمها بدوره - فهو مريض في صدره - إلى أشهر مُدخن أرجيلة بين المرسلين: الدكتور فاندايك.

أحبّ فاندايك إبزيم نربيشها الأحمر ففكّه وركّبه للأرجيلة الشامية الطويلة التي يُدخن منها نَفَساً قبل النوم كي يصفو ذهنه وترتخي أعضاؤه.

*

بعد اختفاء «العوالم»، ورحيل آل شافرد، بات يقضي وقته بين الدروس والرسم. عن سطح بيت المستر هاميلتون يرى بيروت كلّها، مطروحة تحته، محضونة بأطلال السور (المتداعي قرب السراي)، وغارقة بين البساتين الخضراء والبحر الأزرق. كانت سوداء ورمادية، مع بعض القرميد الأحمر هنا أو هناك، ومساحات مبعثرة من العشب الأخضر النامي فوق سطوح البيت.

من هنا لا يرى البيت فوق بوابة يعقوب. (تحجبه عن نظره جميزة هائلة). لكنه يرى السروات حول بيت الصوصة، ويرى قبب الكنائس شمالي محلة اليهود. وإذا دار برأسه إلى اليمن رأى برجي السلسلة والفنار وصفحة الماء والقوارب تحتهما. في الليل يلمع ضوء القمر على أشرعة المراكب الراسية.

المسز هاميلتون، نسيبة القنصل شاسود، تسأله كيف يرسم هكذا، من علّمه!

المستر هاميلتون يقول:

ـ عليك أن تجرب التلوين. هل جربته؟ بالتأكيد لا. يجب أن نجلب لك تلويناً.

في مبنى المرسلين لوحات زيتية معلقة إلى الجدار المواجه للنوافذ الغربية. يقعد يوسف على حافة نافذة من النوافذ ويتأملها ساعات. لوحات مرسومة في هولندا. الدكتور بيدل قال له إن الجد الأكبر لفاندايك كان مشهوراً في زمانه، وأنه رسم الملوك بأحجام صغيرة، ورسم خلفهم مساحات شاسعة من الحقول والأراضي، هل تعرف لماذا؟

ـ لماذا؟ سأله يوسف.

قال الدكتور بيدل:

ـ كي يُظهر أعمال ملك الملوك. كي يفهم الناس...

تكلم الدكتور بيدل، ويوسف لم يقاطعه.

من زمن بعيد اعتاد ألا يسمع كل شيء. تكلم الدكتور بيدل، وتابع يوسف النظر إلى اللوحات الكبيرة. لَمَسها فاكتشف أنها مرسومة على القماش.

ذهب المستر هاميلتون إلى وكالة على المينا وأوصى على قوارير من التلوين المائي والزيتي. قال له التاجر:

ـ ارجعْ بعد شهر أو اثنين.

في هذه الفترة سمح الحاج عبد الأمين* ليوسف بالصعود حافياً إلى أعلى مئذنة الجامع العمري المربعة. من فوق رأى يوسف الناس تحته، يتحركون بين الحيطان ثم يختفون في الدهاليز وتحت القبب.

---

* الحاج عبد الأمين المغربي. عاش في قبو تحت الجامع العمري طول أربعين سنة. أوصى أن يُدفن في القبو حيث عاش. دُفن في السنطية.

تذكر شجرة الجوز أعلى بيدر كفربُرك. تذكر يوم لحق بأبيه من بعيد. داخ. أشعة الشمس المنعكسة عن قبب الكنائس توهجت كالنار في عينيه. استدار ونظر إلى مئذنة جامع النوفرة المدوّرة، وإلى غيمة بيضاء معلقة فوقها تماماً، كأنّها مربوطة إليها بخيوط. جلس على الأرض. قربه سجادة قش ملفوفة، لونها أخضر وأحمر.

حين نزل من أعلى المئذنة، وخرج إلى سوق الفشخة، أحسّ للحظة أنّه شخصان. التفت ونظر إلى أعلى، إلى حيث كان واقفاً قبل قليل. لم يرَ أحداً فوق. ضحك ومشى إلى باب إدريس ومضى عبر البساتين إلى «البيت الأحمر». وجده مشرع النوافذ. ورأى رجلاً يخرج منه. بعد الرجل خرج صبي. راقبهما من وراء الصفصافة اليابسة. (لماذا لا يأتي أحد ويحتطب هذه الشجرة، لا يدري). كانا ينقلان الأطباق من بستان قريب إلى داخل «البيت الأحمر». أدرك يوسف أن المكان قد تحوّل بيتاً للقزّ.

رجع إلى داخل الأسوار. ابتاع رغيفاً من الخبز وبيضتين مسلوقتين. أكل جالساً قرب السبيل في ساحة الدركاه. جاءت مجموعة من الفتيات يحملن فخارات فارغة. تفرج عليهن ينحنين فوق الماء. يعرف من أين تأتي هذه المياه. المستر هاميلتون دلّه على رأس النبع في الهضبة القريبة.

طعم البيض والخبز في فمه. الهواء الربيعي على قدميه. (خلع المداس ووضعه جنبه). الأصوات القادمة من الجهات الأربع. منظر الفتيات بثيابهن الكحلية والصفراء والحمراء والخضراء. المياه التي تنشّ من الفخارات. سكون السماء. كل شيء دفعه إلى الاسترخاء، وجلب النعاس إلى أعضائه. في جيبه ورقة وقلم فحم. أراد أن

يخرجهما. لم يفعل. غمره هدوء لم يعرفه من زمن بعيد. خفتت الضجة. بدأت قطعان الماشية ترجع من البراري. تعالى آذان العصر ثم آذان العشاء. كان المساء يُقبل، وضوء برتقالي يغمر الدرج قرب باب الدركاه. أغمض يوسف عينيه. كأنّه يهوي. وجد نفسه جالساً على حافة نافذة، ينظر إلى ظلّه وسط اللوحة التي رسمها جدّ فاندايك الأكبر قبل قرنين. كان ظلّه يغطي هضبة وطرفاً من نهر. بعد قليل (الشمس تغيب خلفه) طال ظلّه وخرج من اللوحة وبلغ السقف. فتح يوسف عينيه. أراد النهوض والخروج من الدركاه والذهاب إلى مبنى المرسلين لتأمل اللوحات. الدكتور طمسون يسمح له بإشعال القناديل. أراد يوسف القيام. لم يفعل. خلفه تعالت ضجة رجال يخرجون من الحمام التركي.

*

أخذته المسز هاميلتون معها إلى حفل عشاء في بيت القنصل الإنجليزي، الكولونيل روز. صافحه الكولونيل، الطويل كسروة، بيدٍ معروقة، بيضاء وزرقاء.

ـ سمعت عنك كثيراً يا شيخ يوسف.

مشى يوسف بين المدعوين يتفرج على المرايا والكراسي وطاولات الجوز المحفورة. تذكر الدكتور طمسون يحكي له عن حالة المباني بعد قصف 1840. (كان الدكتور عائداً من قبرص. أتى بيت القنصل شاسود كي يتفقده فوجد زجاجه وأثاثه محطماً إلى شظايا ومنثوراً في الأرجاء). تذكر الأيام التي كان يأتي فيها مع وليم إلى هنا كي يستمعا للآنسة كاثرين تعزف البيانو. خرج إلى الشرفة. وجد حلقة نساء حول رجل يُدعى شرشل.

(الكولونيل شارلز شرشل)

المستر هاميلتون أخبره عنه. جاء الكولونيل شرشل إلى المدينة

مع الأسطول الإنجليزي سنة 1840*. ثم رفض مغادرتها. ترك الجيش، وابتاع قرية صغيرة في الجبل. قرية قرب عبيه، تُدعى بحوارا. قال المستر هاميلتون إن الكولونيل غريب الأطوار، وعنده خطة: يريد تحويل الجبل إلى مقاطعة إنجليزية.

سأله يوسف كيف؟

قال هاميلتون:

ـ قلت لك إنه غريب الأطوار. من يعرف كيف؟

ضحكت المسز هاميلتون من زاويتها.

(بعد الحفلة)

خرجا من باب السراي. مشياً بين الصبّير والتوت والزنزلخت. النجوم تضيء الطريق. على التراب تتموج ظلال. أحياناً تفزع المسز هاميلتون من ظلّ سنبلة، تحسب أنها أفعى، فتلتصق بيوسف.

عند سفح الهضبة قالت ليوسف:

ـ القنصلية الإنجليزية ترسل دروزاً إلى لندن للدراسة. أرسلوا قبل شهرين ثلاثة. أحدهم الابن الأصغر للشيخ بشير جنبلاط.

قال يوسف:

ـ أعرف. إسماعيل بيك.

قالت:

ـ كيف تعرف؟

قال يوسف:

---

* كان في الثالثة والثلاثين من العمر، وبحوزته ثروة صغيرة ورثها عن أبيه الموظف الكبير في «شركة الهند الشرقية». سنة 1852 نشر كتاباً إنجليزياً في ثلاثة مجلدات عن الجبل اللبناني.

ـ الكلّ يعرف. لكنه لا يذهب للعلم.

قالت المسز هاميلتون:

ـ هذا لا يهمنا.

عواء الذئاب أسكتهما. ظهرت أنوار في النوافذ. قالت وهي تميل على يوسف:

ـ في لندن أكاديمية ملكية للفنون.

كانا قد بلغا حارة بسترس. في ظلال الحيطان غمرت يوسف رائحة المسز هاميلتون.

تلك الليلة حلم أنه في لندن، يدرس في قاعة فسيحة كبهو قصر باز، وحوله رجال ونساء بملابس هادئة الألوان: كان ذلك كأنّه قد دخل إلى كتاب Emma وبدأ يعيش حياة جديدة هناك، حياة تبدأ للتو، بلا ماضٍ، بلا ذاكرة.

فجراً أيقظه الآذان.

- 42 -

وصلت عُلب التلوين بعد يومين فقط من اندلاع ثاني حرب بين الدروز والموارنة في الجبل*. جرَّب يوسف التلوين المائي. جعلت الألوان تسيل فوق خطوط رسمه الفحمية فتمتزج وتبلّل برطوبتها الورقة وتفسد الرسم. على صوت فرقعة البواريد البعيد سمع المسز هاميلتون تنصحه بعدم تبليل الريشة بالماء كثيراً. وبينما السفن تظهر في عرض البحر، بمدافع بادية في جنبها، لوَّن يوسف لأول مرة بحراً بالأزرق، وشجر توت بالأخضر، وقرميداً بالأحمر.

حين جرب التلوين الزيتي داخ من رائحة «التربنتين» وتقيأ ما أكله صباحاً على الأرض.

على السطح، في هواء نيسان العليل، بينما يتفرج على عواميد الدخان تتصاعد فوق قرى الجبل المشتعلة، وضع يده على صدره (بعد أن تقيأ، شرَّبته المسز هاميلتون حليباً)، أحسّ بنبض قلبه على باطن كفّه، وفكر في أخيه نور الدين.

---

* حرب 1845.

ـ 43 ـ

غادر المرسلون الجبل اللبناني. احتشدوا في بيوت أخوتهم في بيروت. الدكتور فانديك أتى ذات ليلة وتناول العشاء عند آل هاميلتون. نظر إلى رسوم يوسف الملونة وقال إن هذا الفنّ، فنّ التلوين، لن يأتي إليه بسهولةِ فنّ الرسم. هزّ يوسف رأسه.

تابع فانديك:

ـ لكنك ستتمكن منه. بعون الربّ. ستفعل.

(الحرب)

حكى فانديك عن الحرب في عبيه. وكيف حاصر الدروز الموارنة في السرايات القديمة بحارة عبيه السفلى. قال إن جماعة من دروز بتاتر أوشكت أن تطلق البواريد عليه.

ـ كُنتُ لابساً الدامير المزركش بالقصب فحسبوني أحد الأمراء الشهابيين. بسبب ثيابي وبسبب شقرة لوني.

ابتسم المستر هاميلتون متذكراً سفر أيوب. قال:

ـ لكنك نجوت لتخبرنا.

قال فانديك فعلاً، وابتسم هو أيضاً، ثم قال إن الدروز لم يفرجوا عن الموارنة المحاصرين في سرايات آل تنوخ إلا بعد تدخل الكولونيل روز.

قالت المسز هاميلتون:

ـ المهم أفرجوا عنهم.

قال فاندايك:

ـ فعلاً. لكن الجبل كلّه يحترق. الدروز يشعلون بيوت الموارنة، والموارنة يشعلون بيوت الدروز. ولولا الرطوبة في الأرض لما ظلّت شجرة خضراء.

(القرار)

الحديث كان يبلغ يوسف عبر الباب الموارب. حين بدأ فاندايك يحكي عن الكتب التي اقترح الدكتور طمسون إعدادها لطلاب العلوم توقف يوسف عن الإصغاء وأغمض عينيه. تذكر أيام دير القمر. تذكر دنيا وزهية وبهية وجميلة. تذكر الدكتور ولكوت مع غليونه الطويل في قاعة القصر. تذكر جلول البندورة. تذكر وطاويط المصبنة. تذكر الدكتور فاندايك آنذاك. أصغر وصوته أرقّ. فكّر أنّ الدكتور فاندايك صار كأنّه شخص آخر. أقسى ومختلف عن الأول. لم يفكر أنه هو يوسف الذي تبدل. فكّر أنّ الدكتور تبدل. وقال لنفسه من الآن عليّ الاعتماد على نفسي فقط. قال هذا ورأى في خياله رايتشل والظلال تغطي برج السلسلة ونوارس الخريف تحوم فوق أرصفة الميناء. لماذا لم تنزل أخته سعاد، أو أخته نسب، مرة واحدة وتزوره؟

بلع يوسف ريقه. شمّ رائحة صبّير، ورائحة «تربنتين»، ورائحة دخان بعيد. انقلب على جنبه، تغطى بالبطانية جيداً، وقال لنفسه إنه يقدر أن يفعل ما يريد.

كان وحده. وفي سكون الأشرفية العميق، بين الشجر وتحت السماء، منحه هذا الإحساس بالوحدة الكاملة، قوّةً لم يعرفها من قبل. كان وحده، ولا أحد يسأل عنه، وكان بالتالي حرّاً في فعل ما يشاء.

قبل الفجر اتخذ قراره.

ـ 44 ـ

أرسل الكولونيل روز إلى إنجلترا ثلاثة شبان في الدفعة الأولى. إسماعيل جنبلاط وعارف ماضي الدرزيان، وعبد الله عازار* الأرثوذكسي القريب من المرسلين. يوسف عرف هذا من الدكتور بيدل. وسأل نفسه ـ بعد أن أخبروه من هو عارف ماضي** ـ هل سيتمكن من تنفيذ قراره؟ وقال بلى، سأفعل، لا بد أن أفعل ذلك.

وصلت ثلاث بواخر محملة بالعساكر العثمانية. عمّ الهدوء جبل

---

* ذكر فانديك في مذكراته أنه «لم يمضِ زمنٌ يسيرٌ على إرسال إسماعيل جنبلاط وعبد الله عازار إلى إنكلترا حتى أصيبا بالخبل فأُعيدا إلى سوريا فشفي عبد الله بعض الشفا أما إسماعيل فمات مجنوناً» وذكر صاحب «الحركات في لبنان» أن نعمان بك بعث «أخاه إسماعيل إلى لندن مصحوباً ببعض الخدم متظاهراً بإرساله تلميذاً يتلقى المعارف والعلوم في إحدى مدارس تلك العاصمة لا سيما تعلم اللغة الإنكليزية».

** هو حفيد الشيخ حسين ماضي، شيخ عقل جبل الشوف في أول القرن التاسع عشر. «كان من طبقة المتنزهة وهم الشيوخ الأشداء في العبادة والورع. بينهم من لا يتزوج حتى يموت بتولاً، ومن يصوم كل يوم إلى المساء، ومن لا يأكل اللحم في جميع أيامه. وقد كان الشيخ حسين لا يأكل الفواكه أيضاً، غير أنه كان كلما جاءت فاكهة يتناول منها شيئاً يسيراً ثم يمسك عنها فلا يعود إليها ثانية حتى السنة التالية. قيل إن بعض أصحابه ناقشه في ذلك فقال له: إني لو لم أذق فاكهة خامرتني كبرياء، ولو بقيت على أكلها ضاع التقشف، فأنا أجمع بين الطرفين».

لبنان. هذه المرة أيضاً امتلأ مبنى المرسلين بمسيحيين هاربين من الشوف والجرد.

الحاكم التركي الجديد قبض على سعيد بك جنبلاط والشيخ يوسف عبد الملك ثم أطلقهما. يوسف تفرج عن سطح بيت طوبيا ـ خادم الكولونيل روز ـ على قافلة السجناء. كان يبحث عن معز الدين بينهم. لم يجده. بعد شهر نزل الشيخ أحمد قاسم القاضي «التنبل»* وأخبره أن معز الدين أصيب في ساقه لكنه بخير. يوسف قال للشيخ أحمد:

ـ رأيته في المنام يمشي مع المساجين مكبّلاً بالحديد.

ذهب الشيخ أحمد. (قبل ذهابه أخبره عن الطفل الذي وضعته جميلة، وأخبره أن نسب حملت من جديد). بقي يوسف وحده على المصطبة الحجرية أمام بيت هاميلتون. (المستر والمسز في بيت الصوصة يساعدان في ترتيب أوضاع اللاجئين). تحته كانت بيروت مغمورة بضوء الغروب. الهواء دافىء، وأشرعة السفن تلوح في البعيد. يراقبها، يعدّها، وينتظر. الدكتوران بيدل وطمسون وعداه بالكلام مع الكولونيل روز. المسز هاميلتون فعلت هذا قبلهما. والمسز فانديك، ابنة القنصل الراحل آبوت، ستحكي مع الكولونيل، القنصل الحالي، هي أيضاً.

طارت فراشة صفراء أمامه ثم حطّت على بنطلونه الأسود. لمسها بإصبعه فطارت وحطّت على شجرة كرز قريبة. قبل لحظات كان الشيخ أحمد قاعداً في ظلّ هذه الشجرة، يخبره عن معز الدين.

---

* ما زال يحمل هذا اللقب القديم في رأس يوسف وحسب. سقط عنه اللقب في الجبل منذ أن تزوج. بعد الحروب سمّوه «سيف آل القاضي».

(كيف كسر معز الدين ساقه)

كان يشارك في معركة جزين. تكاثر عليه الأعداء ففرّ عبر معبر في الصخر العالي. دخل في ممر لا يتسع لحصانه. أبى أن يترجل ويترك الحصان غنيمة لمطارديه. قفز به نحو صخرة مقابلة لكنه سقط في الهوة. انكسرت رجله وتحطمت عظام حصانه. فقد الوعي. في الصباح التالي رآه من قاطع مزرعة الشوف المقابل رجل نصراني. قيل إنه استدل عليه بلمعان سيفه في الشمس*، فجاء وأنقذه. منحه معز الدين بالمقابل سيفه وخنجره. على الطريق إلى كفربُرك، بينما هما يتخفيان وسط الشجر، قال لمخلّصه:

ـ بسيفي وخنجري قتلت من قومك رقماً ما عدت أقدر أن أُحصيه. كيف تنقذني بدل أن تقتلني؟

قال له مخلّصه:

ـ أنقذتك لأنك لم تكن ذلك الرجل وأنت معلق فوق الشير وحصانك مذبوح بالصخور تحتك.

هذا الرجل يُدعى عبد الأحد. معز الدين سوف يعطي اسمه لأول ذكر ستنجبه نسب، بعد الذكر الأول إبراهيم، والثاني حمزة.

لكن يوسف لن يعرف بهذا لأنه سيكون قد غادر هذه البلاد.

---

* الحركات في لبنان (ص 56).

- 45 -

ذلك لن يحدث قبل الخريف. في هذه الأثناء ينتهي الربيع بتضاعف أسعار الشرانق في بيروت*، ويبدأ الصيف بإخراج الأنوال من مخابئها، وظهور دواليب الحل على سطوح البيوت. تتحول المدينة إلى خلية نحل. يحتشد الخان قرب المينا، بالتجار القادمين من إيطاليا وفرنسا. يمشي يوسف بين باعة الحرير والقطن** والجلود والخمور فيسمع لغات العالم تمتزج حول رأسه كأنه في برج بابل. يتعثر بخشبات الرصيف القديمة شارداً في تأمل الشغيلة ماضين مع الزوادة إلى ظلال السنط القريبة عند استراحة الظهر. يدور حول المسلخ وينزل قرب جامع الدباغة ويدخل في زقاق تُزينه عن الجانبين نوافذ مفتوحة على غازلات جالسات في ضوء الداخل والخيط الأبيض يكرّ بين أيديهن. في سوق الفشخة، بينما الآذان يتعالى، والضوء البرتقالي ينهمر كالرذاذ حول قدميه، يرفع رأسه ويرى الرجال على السطوح، والصبيان مع علب الشرانق يقفون في ضوء المغيب، والنور يسيل كالشمع على شعرهم ووجوهم. يحتفظ بالمناظر في رأسه. هذه الليلة، في ضوء قنديل الزيت، سيرسمها بالألوان المائية على الورق.

---

* سبب هذا في الأغلب حرب الجبل واحتراق بساتين توت عديدة وبيوت قزّ.

** تأتي به قوافل الجمال من البقاع وسوريا. يُصدر من مينا بيروت إلى أفريقيا وأوروبا.

(ليالي الأشرفية)

ينتهي من دروسه في المدرسة. يأتي المساء فيجلس على المصطبة أمام البيت. فوقه قنديلان يتدليان من التعريشة المرفوعة على عواميد الخشب. قربه المسز هاميلتون تقرأ رسالة وصلتها من أميركا. خلفهما، في الغرفة المشرعة الباب على هواء المساء، يقعد المستر هاميلتون إلى طاولته ويكتب عن الأمير بشير. كلما كتب صفحة خرج إليهما ليقرأ ما كتبه. المسز هاميلتون تعلق على كلمة، وهو ـ يوسف إبراهيم خاطر جابر ـ يهزّ رأسه صامتاً. ينتظر انتهاء القراءة العالية كي يعود إلى ألوانه وخطوطه.

يكتب المستر هاميلتون أن الأمير الذي صار أميراً بذكائه وقوته كان يستيقظ قبل طلوع الفجر بساعتين، ويجلس وحيداً في الديوان مع أرجيلته، يدخن ويفكر حتى تدخل الشمس من النوافذ. يكتب أن الأمير كان يستقبل أصغر الفلاحين للاستماع إلى مطالبهم. يكتب أن الأمير كان يتناول الطعام مرة واحدة ظهراً. وعند العصر يأكل كسرة خبز وفاكهة مجففة. طاقية الكشمير على رأسه دوماً*. ونظرته مخيفة. حين يدعو بعض الأعيان إلى مائدته يبلعون لقمة أو اثنتين بصعوبة. إلى هذا الحد كان الأمير وقوراً. تزوج مرتين. المرأة الأولى جلبت له الثروة ومنحته أولاده الذكور. بعد موتها ـ بمرضٍ طال فترة ـ قرر الزواج من جديد. أرسل إلى أسطنبول طالباً ثلاث عَبدات شركسيات. يسمونهن «الجواري». اختار أقربهن إلى ذوقه. طلب من المطران الماروني تعميدها. ولم يدخل عليها إلا بعد أن لقنوها أصول دينها الجديد. كل ذلك قام به سرّاً.

---

* فيما بعد استبدلها بالطربوش إرضاءً لخاطر إبراهيم باشا.

يريد يوسف أن يسأل المستر هاميلتون من أين يعرف هذه الأشياء. قبل أن يسأل تقول المسز هاميلتون لزوجها إن الكولونيل شرشل يميل إلى المبالغة في أخباره. يمزق المستر هاميلتون ما كتبه. يبدأ من جديد.

تخفّ حماسة يوسف. يتوقف عن الرسم.

ـ 46 ـ

بعد نوم الجميع يتعالى نباح الكلاب في أزقة المدينة، يجاوبه عواء الذئاب من البرية القريبة.

يوسف يتقلب على الفرشة. البعوض يطنّ على شبك النافذة. هكذا يتذكر البيت فوق بوابة يعقوب والبعوض الذي يهاجم في أسراب قادمة من وهدة النفايات المجاورة للقشلاق. يتذكر كل هذا، ويتذكر تلك الليلة، حين نهض مرتجفاً بالبكاء الصامت، وسعى في ظلمات البيت إلى الغرفة حيث راشيل. حين احتضنته شمّ رائحة بيت العقد في كفربُرك. كانت رائحة في خياله. والآن، في بيت هاميلتون، يحاول أن يستعيدها فلا يقدر.

يترك الفرشة إلى الدار. يأخذ ورقاً وقلماً. يخرج إلى المصطبة الغارقة في ضوء النجوم وأصوات الليل. الهواء يحرك الورق الأخضر فوقه. يده اليسرى متورمة عند المعصم من عقصات البعوض.

يريد أن يرسم سفينة راسية في الميناء. يبدأ برسم الصارية لكنه يتوقف. لا يريد أن يرسم. يضع القلم على الأرض. ينظر إلى السماء.

منظر النجوم يُعيده إلى قرية الطفولة. يتذكر البُرك تحت الضوء الأبيض. يتذكر البومة في شجرة التوت. يتذكر أباه إبراهيم واقفاً عند المساء مع عصاه، لحيته ترتجف في الهواء، وظلّه مكسور على حافة الوادي. يتذكر نور الدين يدبّ على المصطبة، يرفع جسمه إلى سرير الحديد، ويجرب الوقوف. يتذكر نسب تجمع الزعتر اليابس عن السطح، أو تُفتت كتل الكشك على شراشف تفرشها في جانب المصطبة. يتذكر خاطر والأغنام حوله وجرس الكرّاز يتردد في فضاء المغيب. يتذكر بكاء التوأمين في الليل، صأصأة الفئران في القبو، أصوات عمر وحسن وقاسم، وتلك الفرقعة وسط العاصفة الثلجية. ناظراً إلى صفحة الميناء الزرقاء ـ البيضاء يكاد يرى تلك البومة تطير فوق التوتة والثلج، والأحمر يقطر من بطنها. يعدّ النجوم في السماء. يتذكر ما أخبره فاندايك عن أسمائها. يرى دنيا تقترب منه بعينيها الواسعتين وتتسلق ساقيه وتقعد في حضنه. زهية مخطوبة، وبهية أيضاً ربما، ودنيا لم تعد طفلة. يعبر مُذَنّبٌ في الأعالي. يتذكر الشيخ عبد اللطيف. ورائحة المرض. وسحابة بارود معلقة خارج النافذة. المطر يسقط فوق قصر بيت الدين وهو يتفرج على السروات تميل تحت سياط المطر وتخبط حيطان السرايات. ذلك كلّه مضى. ويقفز الجلول مع الأقران. وتحت، يبقى وحده، مع مجرفة ونهار ريّ طويل. إذا رفع رأسه رأى الغيوم تتبعثر في الزرقة الكبيرة. غيوم بيضاء ورمادية وسوداء ووردية. غيوم بأشكال حيوانات ونبات وبشر وقرى ومدن.

تهبّ نسمة عليلة. تجفّف حبّات العرق عن جفنيه. تطير الأوراق على المصطبة. يسرع ويجمعها. من نافذة يخرج شخير وهمهمة. المستر هاميلتون قال له إن الكولونيل روز يريد إرساله إلى لندن آخر الصيف أو أول الخريف. والمسز طمسون كتبت إلى أختها في تلك البلاد بشأنه.

المدينة غارقة في نومها. الهواء يحرك السلسلة في باب المرفأ. التراب يتطاير عن السطوح. العلم الأميركي يخفق فوق بيت الصوصة. ألوانه ظاهرة في البعيد، ومقطعة بأغصان الجميزة. أبعد منه تظهر أعلام أخرى. هذه مباني القناصل الجديدة في مينا الحصن.

يحمل القلم ويكتب على ورقة كلمات بالعربية ثم بالإنجليزية. بينما يكتب كلماته يتذكر المستر هاميلتون والأمير الذي يستيقظ قبل الفجر بساعتين كي يجلس وحده في الديوان الفسيح (جلب لبناء القصر مهندسين من فرنسا وإيطاليا)، فيدخن الأرجيلة ويفكر.

مزَّق الورقة ودخل كي ينام.

في المنام رأى يوسف الثالث أباه الشيخ إبراهيم خاطر جابر، جالساً على سرير الحديد يقرأ في «كتاب الحكمة»، ونظرته ثابتة على شجرات التوت في طرف دار البحص.

ناداه يوسف من الداخل لكن الأب لم يسمع.

ـ 47 ـ

قرر يوسف الصعود إلى الجبل. سوف يذهب إلى دير القمر أولاً، ومن هناك يمضي إلى كفربُرك. يُودع الأقارب، ويرى أخاه نور الدين، قبل الرحيل.

أول الخريف سوف يركب البحر إلى أوروبا.

ـ 48 ـ

ينتظر القارىء الآن مشهد اللقاء بين يوسف ونور الدين. من أربع أو خمس سنوات لم يلتقِ الأخوان. ينتظر القارىء أيضاً لحظة رؤية نسب ـ التي صارت أمّاً لولدين، الأول إبراهيم، والثاني حمزة ـ لأخيها يوسف الذي لم تَرَه من سنوات. يوسف الذي ربَّته منذ موت أمّه سارة وحتى رحيله إلى بيت أختها سعاد ثم نزوله إلى بيروت.

كبر يوسف في هذه السنوات. الخصل البيضاء التي اجتاحت شعر رأسه منذ ذلك الصباح المثلج، حين رأى غرفة يوسف الأول مدفونة بالطبقات البيضاء، تلك الخصل هدأ لونها الآن وتحول إلى الأبيض ـ الرمادي، فبدت كأنها رقعة ثلج ملطخة بالغبار. طالت قامته. وقَسَت ملامح وجهه.

نسب أيضاً كبُرت. بعد الولدين انتفخ بطنها للمرة الثالثة. صدرها تهدل قليلاً، والشرايين ظهرت في يديها. عدا هذا تبدو فرحة. وحين يتكلم زوجها معز الدين تنظر إليه وتصغي إلى كلماته كلمةً كلمةً.

نور الدين بلغ الثامنة. تقول نسب إنه يشبه المرحوم خاطر. معز الدين يقول إن للفتى نظرة أبيه المرحوم الشيخ إبراهيم.

ذلك كلّه لا يهمّنا. ننتظر الآن لحظة ظهور يوسف، على الحمار

الأبيض، صاعداً الطلعة الترابية القصيرة إلى دار البحص.

نسب جالسة على المصطبة، في ظلال التعريشة التي رفعها معز الدين على عواميد خشب أربعة. نور الدين يغسل بعض الفاكهة في الجرن الحجري القريب. والولدان، إبراهيم وحمزة، نائمان على سرير الحديد القديم.

شعاع الشمس البرتقالي يغمر كل شيء. هواء العصر يحرك ورق التوت على الأغصان. يوسف يرى العالم الذي غادره قبل سنوات. آنذاك كان الشيخ إبراهيم ما يزال حيّاً.

في اللحظة التالية تسمع نسب نهيق الحمار فترفع رأسها عن الصنارة وخيط الصوف.

نور الدين أيضاً يلتفت. قطرات الماء تنقط من يديه.

معاً يشاهدان شاباً بشعر أبيض ـ رمادي يقترب بطيئاً على حمارٍ أبيض مبقع بالأسود.

من بعيد، من أعماق الوادي، يتصاعد رنين جرس الكرّاز. الشمس تغيب.

*

حين تتعرف إلى وجهه، تعانق نسب أخاها يوسف، وتبكي. يوسف من جهته يقبّلها وهو لا يحسّ بشيء. كأنه يعانق غريبة لم يعرفها أبداً. وهذا الإحساس لا يُحيّره. هو ببساطة لا يفكر فيه. يحسّ كأنّه في منام. كأنّه يتفرج على نفسه واقفاً على هذه المصطبة القديمة، يعانق هذه المرأة، ثم يلتفت نحو نور الدين.

ـ 49 ـ

قبل ركوب البحر تصل إلى المسز هاميلتون رسالة من المسز شافرد من أميركا.

المستر شافرد تحسنت صحته بعض الشيء. الأطباء يقولون إنّه قد يُشفى. الأولاد بخير.

ـ يسألون عنك، تقول المسز هاميلتون ليوسف.

يهزّ رأسه، فتتابع:

ـ كتبوا لك عنوانهم، هكذا تكتب لهم من لندن إلى كونكتيكت.

*

الأوراق بدأت تتساقط عن الشجر. النهار يقصُر. الهواء يبرد. زحمة الميناء تتضاءل.

مشى يوسف على شاطىء الزيتونة يفكر في رحلته إلى الجبل. تلك الليلة، بعد العشاء ونوم الجميع، خرج إلى دار البحص على رؤوس أصابعه، ثم جلس تحت شجرات التوت. هناك، بين القبور، تنفس هواء كفربُرك، شمّ رائحة الماء والشتل المتصاعدة من الوادي، وفكّر في أمّه وفي أبيه.

(تحت التوتة)

أنعسه الهواء اللذيذ. لا رطوبة هنا، لأن لا بحر هنا. نَعِس وظهره إلى التوتة ونام. رأى فتاة في ثوبٍ أصفر كزهر القندول تمشي وسط حقلٍ أخضر كورق التوت. كان منامه شبيهاً بصورة رآها في كتاب قديم. وفي المنام تذكر ذلك الكتاب لحظة. وتذكر مالكه (الدكتور ولكوت أم الدكتور بيدل؟). لكنه في اللحظة التالية نسي كل ذلك، وأخذ يركض مطارداً الفتاة. بينما يركض خلفها تبدل الطقس. أخذ الثلج يتساقط. غاب ضوء الشمس. ووجد نفسه في أرضٍ مغطاة بالأبيض. أين الفتاة؟ التفت فرأى الفتاة قد صارت امرأة. كَانت في ثوب كُحلي طويل وكنزة سوداء، مع شال أزرق حول عنقها. ورآها تقلع جزراً أحمر من حقل الثلج. حين رأته يراقبها لوحت له. فكر أنه قد رآها من قبل. اقترب محاذراً أن يزلق على صفحة الجليد. كانت تبتسم. فكر أنها أمه سارة. تبدل الضوء ورأى ظلالاً حوله. ثم انتبه أنها ليست أمه بل أخته نسب. تعثر بجذع شجرة مقطوع ومغروس في الأرض والثلج. سقط على وجهه. أحسّ بكتلة جليد تجرح أنفه. رفع رأسه فرآها. لم تكن سارة. لم تكن نسب. لوهلة فكّر أنها سعاد أو إحدى بناتها. لكنها لم تكن سعاد ولا إحدى بناتها. من هذه؟ سأل يوسف نفسه.

ـ ألم تعرفني؟ قالت المرأة وهي تعطيه جزرةً.

نظر يوسف إلى الأرض.

ـ ألم تعرفني؟

حدق يوسف إلى أصابعه. وإلى الجزرة الحمراء، على ورقها الأخضر ثقوب من الجليد. تذكر كل وجوه النساء في حياته. (محاسن، هند، كشك هانم، سنار، آمنة، المسز هاميلتون، المسز

شافرد، راشيل، رايتشل. . .) وكل وجوه النساء في اللوحات والكتب (سيدة الموناليزا، بياتريس حبيبة الشاعر، الملكة بلقيس. . .).

ـ ألم تعرفني؟

هذه المرة بلغ الصوت أذنيه حزيناً، مكسوراً. رفع رأسه نحوها. كي يعتذر. كي يقول أنه سيتذكر بعد لحظة فقط. لكنه لم يجدها. تلاشت المرأة كأنها لم تكن.

حين فتح عينيه رأى النجوم بين ورق التوت. كانت تلمع كأُبر خياطة في صندوقٍ قديمٍ يعرف أنه لن يَرَاه بعد اليوم أبداً.

*

جلس على صخور الشاطىء يتفرج على بحر الخريف الكامد اللون.

تساءل ماذا سيحدث له هناك، وراء الماء، في لندن البعيدة. كان الهواء يبرُد.

في الأفق عبرت سفينة ببطء شديد. على شراعها الأبيض المثلث توهجت دائرة حمراء ـ برتقالية. ظلَّ يحدق إليها حتى أحسّ بنارٍ في عينيه. نهض ومشى.

ـ 50 ـ

حمله قاربٌ من الرصيف إلى السفينة فيكتوريا الراسية قبالة الميناء. كان الوقت ظهراً، وغيوم الخريف تملأ السماء. استدار ونظر إلى المرسلين، وإلى الشيخ محمد العود والياس فواز، يبتعدون رويداً رويداً. ما عاد يتميز وجوههم. وحدها المسز هاميلتون، بالقبعة الحمراء على رأسها، ظلّت رافعة يدها تُلوح له حتى ارتطم القارب بجنب السفينة.

بعد ثلاث ساعات أبحرت «فيكتوريا». نظر يوسف إبراهيم خاطر جابر إلى البحر الغارق في ضوء المغيب وفكّر أنه يموت. لم يفكّر بذلك فقط، لا، أحسَّ بالروح تخرج من فمه ومن عينيه. استند إلى درابزين قريب، سحب نَفَساً من هواء البحر المشبع باليود، وانتظر انسحاب الرجفة من جسمه كي ينزل الدرج إلى مرقده في بطن السفينة.

تحت، في العتمة العطنة، تمدّد بين المسافرين، ونام. كان البحر يهدهد نومه، ورأى نفسه في بيت العقد، يفتح الصندوق الدمشقي الكبير ويخرج كُتب أبيه الشيخ ويقرأها.

حين استيقظ، في نصف الليل، كان محموماً. العرق يُلصق ثيابه

بجلده، ورأسه كتلة نار. عندئذٍ تذكر المنام الغريب: تلك الكتب التي قرأها في نومه، كتب أبيه الشيخ، لم تكن مخطوطة بالحرف العربي، بل كانت مطبوعة، وبالإنجليزية.

لم يُتَح له الوقت للتفكير في الأمر. اجتاحت الحرارة جميع خلاياه، وأذابت دماغه. طبيب القبطان عالجه بالثلج وبحساء البصل. ظلّ يوسف يتقلب بين الموت والحياة من بيروت إلى قبرص. بعد قبرص، عند عصر رائق، بدأت حرارته تهبط. في عرض البحر الأبيض المتوسط، أزاح يوسف البطانية عن جسمه، نظر إلى الرجل المنحني فوقه، تذكر دير القمر وقصر جرجس باز وفانديك، ثم نهض واقفاً.

استند يوسف إلى ذراع المستر كاربنتر (هذا اسم الرجل، وهو رحّالة سكوتلندي يودُّ تأليف كتابٍ عن مدن العالم بكل قاراته). صعد السلم الخشبي إلى ظهر السفينة. كان تيار الضوء الأحمر ـ البرتقالي ينحدر من أعلى متدفقاً كالماء.

تحت سماء مزدحمة بغيوم شفافة، لونها يشبه لون الرئة البشرية، نظر يوسف إلى البحارة وإلى كوم الحبال ولفافات البضائع. انتبه إلى الأزرق يستدير محيطاً بالسفينة من الجهات الأربع، وفكّر للحظة في مرض المستر شافرد. كانت فكرة عابرة، وجّت في باله كالسهم لحظة ثم تبدّدت. رفع رأسه إلى السماء. نوارس بيضاء، مخطّطة بالأزرق والرمادي. كأنها تنظر إليه.

ارتجف صدره. كأنه سيبكي. كأنه سينفجر بالبكاء. بردٌ فظيع ورائحة ملح طاغية. وجرذ يعبر بين بالات وصناديق. السكوتلندي

كاربنتر يحكي عن التشابه بين مدن الشرق، ويوسف لا يسمع إلا الموج على خشب السفينة، وأصوات البحارة الممتزجة في نشيد غامض بليد. نشيد كالهمهمة. كأنّه في جنازة. والسكوتلندي لا يتوقف عن الكلام. ثم فجأة حلّ السكوت.

يا له من صمت! لم يبقَ في أذنيه إلا الطنين. هل أصيب بالطرش؟ لم يشغل السؤال باله. لم يكن ليهتم. كان يرتجف، وروحه تكاد أن تغادر جسمه. كان صدره مشقوقاً بالتعب، بالوحدة. كأنه يتعلق في الفضاء، ولا أحد يسنده، ولا أحد يلتقطه ويرفعه من هذه البئر الوردية ـ السوداء.

من هذا الصمت الكبير خرج صوت السكوتلندي مجدداً، يسأله عن اسمه هذه المرة.

كانت لحظة من الضياع الكامل. لم يعرف يوسف ماذا يقول. بلع ريقه. كان مالحاً كالدمع. لم يعرف ماذا يقول. للحظة نسي من يكون. نسي اسمه. نسي من أين يجيء. ونسي إلى أين يمضي.

الجزء الثالث

لندن

- 51 -

أخذه البحر إلى بلادٍ بعيدة. أبعد من أفريقيا، أبعد من جبل طارق.

دامت الرحلة أربعة وعشرين يوماً. في ميناء الاسكندرية، وسط زحمة المراكب، تزودت السفينة بمياهٍ نقية للشرب، بفحم للوقود، وبحبوب، ولحوم مقددة. بعد المضيق، في رحاب الأطلسي، هبّت عليها عاصفة دفعتها نحو الشاطىء البرتغالي. طقطق خشبها، وللحظة كفّت عجلاتها الضخمة عن الدوران. حين هدأت العاصفة انطلقت من جديد. البخار يدفع العجلات بقوة 400 حصان، وجسم السفينة الذي يقارب طوله 240 قدماً، يشق عباب المحيط مخلفاً ثلماً من الزبد الأبيض الفوّار. (ذلك الخط يصل بيروت بمرفأ إنجليزي، هل نظر يوسف إليه يفور مزبداً طوال الرحلة!).

بلغت السفينة فيكتوريا الشطآن الإنجليزية عند ظهيرة يوم خريفي ملبدٍ بالغيوم. كان مرفأ برايتون يعج بزحمة رهيبة. وقف يوسف، ابن الثالثة عشرة، مع صندوقه، وسط الراكضين، منتظراً رجال الجمارك. فوق مبنى حجري ضخم قريب، رفرف العلم الإنجليزي، بين غيوم سوداء ثقيلة تشبه صفائح حديد.

البرد والأصوات الهادرة والأجساد التي تتدافعه في تيار عبورها

المضطرب، ومنظر العربات الملونة في باب المرفأ، والوجوه الغريبة القاسية، وصيحة طائر يخترق الفضاء فوق رأسه تماماً، يشبه غراباً لكنه ليس غراباً، كل ذلك جعل صوتاً غامضاً مرتجفاً يرتفع في موجات متلاحقة داخل صدره. صوت لم يخرج من حنجرته بل ظل يتردد كالصدى مخنوقاً في صدره. صوت كأنه بكاء.

استدار فرأى سفينة ضخمة، جسمها يبلغ في ارتفاعه علو مبنى الجمارك، ورأى فيلاً أصفر ـ أزرق يرتفع من داخلها، بمئات الحبال والأوتاد والعصي الخشبية، يتعلق في الفضاء لحظة، ثم يهبط رويداً رويداً نحو الرصيف الحجري. (التفت دائرة كبيرة حول عمالٍ يأمرهم رجلٌ بسالفين أبيضين ثخينين). من الأصوات حوله فهم أن الفيل نائم، لأنهم وضعوا مخدراً في طعامه وشرابه، ثم فهم أنه الفيل الثالث الذي يؤتى به إلى إنجلترا. (اللورد بالمرستون، مهندس السياسة البريطانية في مصر وبلاد الشام، كان ينشىء حديقة حيوان في برمنغهام. قبل هذا الفيل الإفريقي استقدم فيلين هنديين. أحدهما عاش، والآخر مات بعد أيام من وصوله).

لم يكن قد رأى فيلاً من قبل إلا في الرسوم. منظر الخرطوم الذي يتدلى كحبلٍ، كطرفٍ مشلولٍ، ومنظر الأذنين ترتجفان كرقع من جلد منشورة على غصن، ومنظر الحوافر الملفوفة بأكياس الجنفيص! تلك مناظر ستبقى محفورة في ذهنه طويلاً! وسوف يعلم فيما بعد لماذا أثرت به إلى ذلك الحدّ.

وضعه السكوتلندي كاربنتر ـ بتكليف من القبطان ـ على القطار الذاهب إلى لندن. توادعا. بعد ذلك لن يرى أحدهما الآخر أبداً. فكأنهما لم يلتقيا يوماً.

ـ 52 ـ

في محطة بادينغتون في لندن، كانت المسز هيلانة آشبورن بانتظاره.

قالت له:

ـ Call me aunt Helen![*].

للوهلة الأولى حسبها المسز طمسون. كأنها لا تكبر أختها بعشر سنوات، كأنهما توأمان. حين صافحته ضغطت أصابعه داخل يدها ذات الأصابع الطويلة الجافة. أحسّ بجفاف يدها، وببرودة عظامها الدقيقة، لأن العرق كان يسيل من أطرافه رغم برد الصباح. مشى وخادم المسز هيلانة يحمل صندوق أغراضه. أراد أن يحمله بنفسه لأن الرجل يكبره بعشر أعوام وأكثر، ولكن المسز هيلانة قالت له بابتسامة مرهقة إن الرجل موجود هنا لهذا السبب.

في العربة الفخمة، على وقع حوافر الأحصنة الأربع، نام يوسف. في المنام رأى من جديد، عبر نافذة قطار، مساحات خضراء لا تُحد تتتابع في ضوء ما بعد الظهر، مع كوم قش صفراء متباعدة، وثورٍ أبيض بدائرة سوداء على ظهره يرعى في حقلٍ منحدرٍ نحو سكة

* نادني آنت هلن. (الخالة أو العمة هيلانة).

الحديد. وبدأ نور النهار يتلاشى، وأخذت سهول انكلترا تغيب في عتمة الخريف المسائية، وكان يوسف نائماً يحلم بالعشب يميل تحت سوط الريح، فيما العربة تحمله عبر شوارع لندن، عبر ممرات المتاهة الحجرية حيث يعيش ثلاثة ملايين نسمة، إلى بيته الجديد في فليت ستريت.

(اليوم الأول)

استيقظ ظهراً. أذناه تطنّان، ورأسه يرتج بالهدير. (هذا صوت المدينة الضخمة، سوف يعتاده بمرور السنوات). كان في غرفة لم يعرف كيف وصل إليها. هل حمله الرجل وسائق العربة إلى هنا! أم ساعداه وهو نصف نائم فنسي ما جرى!

قبل أن يمسح آثار النوم عن عينيه سمع طرقة على الباب ثم رأى وجه فتاة أبيض مدوّر يُطلّ. قالت كلمة لم يسمعها ثم اقتربت بخطى خفيفة (كانت حافية وتكاد أن تطير بثوبها الزهري الفضفاض فوق السجادة النبيذية الوثيرة). تسلقت حافة السرير الخشبي العالي، ثم تربعت بسرعة، وعيناها تتسعان كأنها تريد أن تجذبه ـ بالنظر ـ إلى داخل رأسها.

كانت هذه ماري، ابنة الطبّاخة. بعد سنوات سوف يطلب يدها. أما الآن ـ هذا يومه الأول في لندن وقد نام حتى اللحظة نصفه فضوء الظهيرة يملأ النافذة ـ فماري ما تزال طفلة لم تتجاوز السابعة.

(شاي)

حين خرج من الغرفة وجد خادمة بانتظاره مع ثياب. اكتشف أن الوقت يقارب العصر، وأن هذا يوم خريفي غير عادي، فالشمس ظهرت عبر بطانية الغيوم، وبعثت الدفء في جو لندن الكئيب. كانت

الخادمة تتحدث بطلاقة. أحس فجأة بفرحٍ غامض. حين قالت إن المسز آشبورن تنتظره تحت، في الحديقة، كَي يشاركها ساعة الشاي، تذكر فجأة أنه جائع. (رأى في المنام أنه يأكل رغيفاً بمربى تين معقود أخضر). خرجت ماري من غرفته. دخل كي يرتدي ثيابه الجديدة.

(غرفة الاستقبال)

للوصول إلى الحديقة توجب عليه نزول درج الرخام، بدرابزينه الخشبي المنقوش، ثم عبور غرفة الاستقبال. بينما ينزل الدرج أدهشته اللوحات الزيتية الضخمة المعلقة بالحبال من أعلى الحائط. وسط غرفة الاستقبال تغلب على خجله (كانت الخادمة تمشي قربه) فتوقف لحظة ونظر حوله.

*

بعد أسابيع سوف يكتب رسالة طويلة لوليم شافرد، وأُخرى إلى المسز هاميلتون. يُرسل الأولى إلى كونكتيكت، والثانية إلى بيروت. وفي الرسالتين يصف هذه الغرفة ـ غرفة المسز هيلانة المفضلة.

البلاط مغطى بسجاد صيني عليه رسوم طواويس زرقاء وصفراء. المدفأة (أضخم من المدفأة في مبنى الأميركان) قرميدها أصفر وسوف يخبره جوناثان ـ البُستاني ـ أن هذا القرميد الأصفر يُشوى في تشلسي القريبة حيث يكثر الحجر الصلصالي. حول المدخنة، عن الجانبين، تغطي لوحات زيتية متوسطة المساحة، الحائط المبطن بألواح صنوبر صفراء ـ بنيّة. هذه اللوحات، كما اللوحات عند الدرج، تُمثل مشاهد ريفية. (المرحوم، السيد آشبورن، كان مولعاً بالصيد والأرياف وجمع الفراشات النادرة). من السقف تتدلى ثريا من النحاس الأصفر، بشموع بيضاء طويلة. الكنبات زرقاء مخملية القماش. تحت النافذة الكبيرة المطلّة على حديقة الصفصاف طاولة هائلة بأرجل محفورة

كقوائم أسد أو نمر. على الطاولة قطعٌ من خزف درسدن، وإناء بورسلان مدوّر عليه رسم لمدينة دلفت الهولندية، بحيطانها الرمادية ـ الزرقاء. ضوء النافذة يرمي ظلالاً حتى المدفأة في الجانب المقابل من الغرفة الفسيحة. على رفّ المدفأة تمثال للملك شارلز الأول مطلي بأزرق الكوبالت. باب الحديقة، قرب النافذة، موارب. عند عتبته بساط من القش الأصفر تُزينه غزلان زرقاء. خارج النافذة، تحت ظلّة من القماش الأزرق البروسي، كنبة ـ سرير. على بعد قدم تظهر جذور شجرة خارجة من التراب.

(الحديقة)

بين أشجار توت وسنديان وكستناء وصفصاف، حول طاولة حجرية صُفت فوقها فناجين شاي خزفية وصحون بسكويت وبودنغ*، تحت سماء خريفية موشحة بخيوط حمراء، جلس يوسف والمسز هيلانة والمستر برتراند كارلايل، على كراسي الجوز.

تراكضت سناجب صغيرة على العشب والأوراق اليابسة. ثمار الكستناء المتساقطة على الأرض التمعت بضوء غامض. رفعت المسز هيلانة صحن الحلوى إلى يوسف. لم تأكل بعد، قالت له، ولم نوقظك لأنك كنت متعباً، لكني أردت أن نجلس معاً ساعة قبل أن تتناول طعامك، هذا المستر كارلايل، صديق قديم للعائلة، وسوف يرافقك غداً إلى وستمنستر كولدج.

(وستمنستر كولدج)

أبعد الستارة عن نافذة العربة. كل هؤلاء الناس! وهذه المباني الحجرية الضخمة! والعربات وأبراج الكنائس التي لا تُحصى والأولاد

* حلوى تُصنع من ذرة مطحونة وبيض ولبن وسكر وفاكهة.

الراكضين بسلال وصناديق وأكياس! كانت الشوارع تزدحم بأعداد مخيفة من البشر، والضجة تعلو من الجهات الأربع وتدور في دوامات حول العربة، وتهزها! أمام الدكاكين، على الأرصفة، رأى سيدات في أثواب طويلة مع قبعات فرنسية على رؤوسهن مربوطة بربطات حرير ملونة إلى تحت ذقونهن. كن يتضاحكن، والرجال لمّا يعبرون قربهن، يرفعون قبعات سوداء عالية عن رؤوسهم (كقبعة المستر كارلايل قربه)، ويحركون عصي الأبنوس الأسود في أيديهم، حركة خفيفة، كأنها تحية سريعة!

رأى ساعات الكنائس، العقارب تشير إلى الثامنة والنصف، ثم إلى الثامنة والنصف وخمس دقائق، ثم إلى التاسعة إلا ربعاً. لم يكن قد رأى قبل ذلك إلا ساعة حائط واحدة في مبنى الأميركان، وأخرى تشبهها في بيت القنصل شاسود. لكنه، هنا، كيفما تلفت، يرى هذه الساعات. فوق الشوارع، على حيطان الكنائس، وفي واجهات الدكاكين. والزجاج! الزجاج يلمع أينما نظر! وعندما هطل رذاذٌ خفيف (ساعة إحدى الكاتدرائيات تشير إلى التاسعة) تألقت النوافذ والأبواب بقطرات الماء، فبدت المدينة كلّها كقطعة كريستال لا نهائية الوجوه!

كل ذلك كان جميلاً ومدهشاً، كغرفة الاستقبال الصفراء والزرقاء في بيت آشبورن حيث أُعطي غرفة لإقامته، لكن مع هذا الجمال المدهش كان يأتي أيضاً ذلك الجليد الفظيع: منذ داس تراب برايتون، وطوال رحلته بالقطار إلى لندن، وحتى جلوسه بالأمس في الحديقة غارقاً في كنزة صوف تفوح برائحة الصابون، يشرب الشاي ويأكل البسكويت، طوال هذه الفترة وهو يحسّ ببرد شديد في داخله، برد في العظام، كأن نخاعه يتجمد. وفي الليل، بينما نوم النهار يمنعه من ولوج عالم الأحلام، وبينما الأرق يرسم لعينيه تلك الأشكال الغريبة

في الظلمة (شكل ذلك الحيوان الخرافي مثلاً، حيث أخوته الموتى كلهم يلتحمون بحصان ويظهرون من كهف في اللجاة)، جمع كل البطانيات واللحف فوقه وأخذ يحرك أطرافه ليدفأ، وهو لا يدفأ. حين استيقظ (نام فجراً) بعد ساعة كان مبللاً بالعرق. دفع الأغطية عنه وأخذ يرتدي ثيابه. ليس الثياب التي جاء بها من بيروت، بل الثياب الجديدة. (في الليل فكّر أن ينام بكنزة الصوف كي يدفأ). وبينما يغسل وجهه في الوعاء الخشبي رجع البرد فجأة. (كان للحظة قد نسيه تماماً). رغم الصوف أحسّ بالبرد ينخره كالإبر من تحت جلده.

في وستمنستر كولدج، قرب الكنيسة الضخمة، سأل المستر كارلايل هل الطقس بارد دائماً هنا. كانا يقطعان باحة حجرية إلى بوابة خشبية ضخمة. ابتسم المستر كارلايل وقال إن الشتاء لم يبدأ بعد، ثم سأله هل يعرف الثلج، وهل تتساقط الثلوج في بيروت. قال يوسف إن ذلك قد يحدث أحياناً، لكنه يعرف الثلج جيداً، لأنه لم يربَ في بيروت، فهو وُلد في الجبل، حيث الثلوج تغطي الأرض وتغمر البيوت طوال الشتاء تقريباً. ابتسم المستر كارلايل. لم يفهم يوسف معنى ابتسامته. دخلا إلى قاعة مليئة بالمقاعد الخشبية الطويلة.

*

هنا، في وستمنستر كولدج، تعلم يوسف إبراهيم خاطر جابر، اللاتينية والإنجليزية والألمانية والحساب والعلوم والأخلاق، من سنة 1845 حتى سنة 1849.

كانت المدرسة تقوم على ضفة التيمز. وضجة المراكب التي تعبر النهر تدخل من النوافذ العالية وتقاطع محاضرات الأساتذة ذوو الأثواب الطويلة السوداء. الطلاب على المقاعد الخشبية كانوا يحدقون ـ على الدوام ـ إلى فوق رأس الأستاذ بنصف متر، إلى نقطة ثابتة

هناك، على الحائط. في تلك النقطة كانت الساعة.

القاعة فسيحة كجوف كنيسة مقسومة بستارة ثقيلة إلى قسمين. (أحياناً بينما يدرسون الألمانية، يسمعون عبر الستارة محاضرة في أرسطو أو التاريخ الروماني). يوسف الذي كان يجلس قرب الستارة، ويكتب على أوراق بيضاء فوق لوح خشبي في حضنه، صار يحاول أن يُركّز على الدرسين معاً: الدرس الذي يُعطى له، والدرس الذي يُعطى لطلاب السنة الأعلى خلف الستارة.

كل يوم، من التاسعة صباحاً حتى الرابعة عصراً، مع ساعة ونصف استراحة غذاء تبدأ عند الواحدة ظهراً، على مدى أربع سنوات، بعطلة صيفية كل سنة (تمتد شهرين وحسب) وأخرى ربيعية (عشرة أيام)، بالإضافة إلى عطل الآحاد وأعياد القديسين والميلاد. كل يوم، طوال أربع سنوات، كان يوسف يأتي بالعربة أو ماشياً (حسب حال الطقس)، من فليت ستريت إلى وستمنستر، والتيمز راكد إلى يساره، يفوح برائحة الصباح النظيفة (وحل من الضفة وقهوة من المراكب الشراعية والبخارية)، ثم يرجع عصراً، التيمز إلى يمينه هذه المرة، برائحة الدخان وأوساخ النهار، بالعرق الذي يفوح من البحارة والحمّالين على ضفتيه، بالأبخرة العطنة تتصاعد منه، بأزيز الحشرات فوقه.

كل يوم، ورأسه يمتلىء بلغات وقصص وتواريخ وعلوم وألوان وخطوط وكلمات. جسمه يكبر، أطرافه تتعود على طقس بلاد «تموت من البرد حيتانها»، وشعره الأبيض يخفّ لونه حتى يصير أقرب إلى اللون الأغبر، أبيض كالرمادي، يثير حوله الهمسات كلّما رفع القبعة السوداء العالية (ها هو قد صار إنجليزياً!) يحني رأسه عند عبور سيدة أو آنسة.

- 53 -

في البيت كان يدرس ويقرأ ويرسم لماري الصغيرة حيوانات وطيوراً تطلق ضحكتها عالية فيتذكر دير القمر ودنيا (ذكريات كالمنامات، بعيدة كأنها من حياة أُخرى).

عندما تنده لها أمها من تحت، من المطبخ، تخرج ضاحكة، وفي يدها رسومه. (يعرف أنها تُعلّق هذه الرسوم في المطبخ. رأى رسم فيل أزرق على نافذة المطبخ، قرب المجلى النظيف كما في لوحة هولندية من القرن السابع عشر، ورأى رسم فراشة برازيلية صفراء نادرة على نافذة المطبخ الأخرى، تلك المطلّة على ساعة كنيسة القديس دانستان).

يبقى وحده، ينظر إلى لوحات الفراشات المعلقة على حائط غرفته. جَمَع المرحوم المستر آشبورن هذه الفراشات من سكوتلندا والقارة (أوروبا). تحت، في حجرة المكتبة، على الحائط المواجه للنافذة الغربية، توجد مجموعات نادرة من الفراش الأميركي والإفريقي. لكن المجموعة الأثمن من هذه الفراشات النائمة تحت الزجاج النظيف، محفوظة في غرفة النوم الكبيرة، غرفة آنت هلن. تلك فراشات لم يجمعها المرحوم من الحقول والغابات. بل ابتاعها من أحد كبار الموظفين في «شركة الهند الشرقية». إنها فراشات صينية

وهندية ويابانية، وقد كُتبت أسماؤها تحتها بحروف غريبة تشبه الرسوم. (اللوحات في غرفته تحمل كلمات لاتينية، حاول أن يجد معناها في قاموسه اللاتيني ـ الانجليزي فلم ينجح. لكنه نجح في العثور على معنى كلمة مثبتة على لوحة تحمل نبتة ذات أزهار غريبة قرب فراشة أرجوانية اللون. الكلمة كانت Ranunculus Bulbosus. اكتشف أنها نبتة من جزر سيلان، استُقدمت إلى أوروبا في القرن الثالث عشر لمداواة الرشح).

يتفرج على الفراشات حتى يضجر. تقع نظراته على طاولته تحت النافذة المطلة على طرف من الشارع وطرفٍ من الحديقة. يقوم عن السرير ويجلس على الكرسي. ينظر إلى شجرة تتحرك في الهواء البارد. يعبث بثقالة أوراق طراز Warren Hastings نالها هدية قبل فترة من صديقه إدوارد الاسترالي (يُدعى ادوارد هولبورن، وهو لندني، لكنهم يلقبونه بالاسترالي لأن أهله في نيوزيلندا)، أو يرسم شيئاً بقلم الرصاص. يرسم المصباح الغازي الذي يشبه ساعة رملية، يرسم الشجرة خارج النافذة، يرسم بيتاً حجرياً قديماً أمامه دار بحصى، باحة مغطاة بالحصى الأبيض الدقيق، وفي طرف الدار يرسم صفًا من أشجار التوت. يلوّن رسمه بأقلام باستيل شمعية ثم يمزقه. لا يعرف لماذا يمزق رسومه. يحب الخطوط التي يرسمها، لكنه لا يحب الألوان. لا يعرف كيف يُركّب الألوان، كيف يجعلها حقيقية متألقة كما يراها، لا يعرف كيف! يغضب ويترك الكرسي ويخرج من غرفته. ينظر إلى اللوحات على الحائط فوق الدرج. ينتبه إلى لوحة تُمثل سفينة مكتوب على جنبها Beagle، وفي الزاوية هذا التاريخ: 1831 ـ 1836. يتذكر وصوله إلى مرفأ برايتون قبل سنوات. (ذات لحظة استدار ورأى فوق الرؤوس حروف VICTORIA مطلية بالأحمر على السفينة التي حملته من بيروت.

كان حرف الـ A في آخر الكلمة مقشور الطلاء شبه خفي). يسمع أصوات الخدم صاعدة من تحت. (يحتشدون في المطبخ مع روائح الطعام كالخراف). يفكر أن آنت هلن في الخارج. (لو كانت في البيت لما تصاعدت الضجة هكذا). يرجع إلى غرفته. يتمدد على السرير.

السقف خشبه كستناء، بنّي أحمر، ما يزال يحافظ على ألقه، عكس سقف غرفة القعود الذي أسود بفعل نيران المدفأة. كم ساعة قضاها حتى الآن في التحديق إلى هذا السقف! انتبه إلى بقعة فوق النافذة، على الخشب. تذكر تلك الغرفة المظلمة الرطبة في بيت العوالم خارج باب ادريس. تذكر الغرفة وشمّ رائحة شمعة تُطفأ للتو وأحسّ بألم خاطف في قلبه. ألم صعد إلى زلعومه ثم تبدد. (كانت وحدته تؤلمه مثل جرحٍ في جسمه).

جاء الضباب وصنع قطرات بلون الخردل على الزجاج. لا أحد يخرج في هذا الطقس. لكن طرطقة عجلات العربات على حواف الأرصفة لا تتوقف لحظة. ماذا يفعل رفاقه في الداخليِ الآن؟ (تضم وستمنستر كولدج مبنى لطلاب الداخلي. من 250 طالباً يتعلمون فيها ثمة 120 طالباً ينامون في الداخلي، أقربهم إلى يوسف ـ ينادونه جوزف الآن ـ ادوارد هولبورن وجيري براون الملقب بجيمي فيش، أي جيمي السمكة).

نزل يوسف إلى المطبخ. جاءت ماري ووقفت قربه. سألته أمها هل يريد شاياً.

جلس في حجرة المكتبة. من النافذة ظهرت مصابيح الشارع الغازية تشتعل مصباحاً تلو المصباح. سور الحديقة كان يمنعه من رؤية مُشعل المصابيح. عندما بلغ الرجل طرف الشارع رأى يوسف قبعته ثم

اختفت القبعة. وحده الضوء ظلّ خلفه، لونه أحمر ـ رمادي في الضباب الأصفر الكثيف. عند طرف الشارع، حيث زاوية فندق فليت، كان الهواء يبدّد الضباب فيظهر من حين لآخر شخص يعبر كالشبح في معطف استراخان كبير ومظلة مفتوحة فوق رأسه.

دخلت إحدى الخادمات تحمل صينية الشاي. شرب شايه المعطر بنعناع وليمون. فتح درفة زجاجية وأخرج مجلداً يحتوي بعض مؤلفات دكتور جونسون*. قرأ قصيدة «المُخلِّص»، لألكساندر بوب، كما ترجمها جونسون من الإنجليزية إلى اللاتينية، مردداً الكلمات بصوتٍ عالٍ. تحرك باب الحجرة. دخلت آنت هلن. كانت تبتسم.

الساعات تتوالى، والأيام تمضي.

---

* Samuel Johnson (1709 - 1784).

- 54 -

أربع سنوات لم يعرف كيف عبرت. في إحداها غطى الجليد ضفتي التيمز، وفقّع زجاجات المصابيح في أوكسفورد ستريت. كان الثلج يتساقط في الشتاء ويغطي الهايد بارك والريجنت غاردن، فيما تتحول الشوارع إلى خنادق من الوحول والجليد. من النافذة يرى ثمار الكستناء في أرض الحديقة تتغطى بالطبقات البيضاء، وحين تذوب الثلوج، تظهر له الثمار كما هي، يابسة، سوداء ـ بنّية، فيها لمعة سرّية حمراء. لما يأتي الصيف، تُعطل المدرسة، فيصعد مع آنت هلن إلى البيت الصيفي أعلى هضبة هامبستيد. (من فوق يرى لندن مطروحةً تحته، مصابيح الشوارع تتوهج أول المساء فترسم خطوط متاهتها الحجرية). هامبستيد والغابات والكوخ عند ضفة البحيرة والقفز إلى الماء في شمس حزيران وصيد السمك كما على ضفة النهر في تشلسي. هامبستيد وبيانو Broad Wood تعزف عليه آنت هلن بأصابع عاجية اللون مزرقة العقد معزوفات لشوبان فيما صديقاتها في «جمعية الحفاظ على خُضرة هامبستيد» يجلسن على الكنبات أو الكراسي المبطنة بالجلد الثمين، في أيديهن صحون الشاي، والفناجين بالكاد تهتز مع كل نوتة خارجة من البيانو البنّي ـ الأحمر اللامع كمرآة. هامبستيد! والطبّاخة أليزابت تصعد معهن من فليت ستريت وبصحبتها ماري. كل طاقم الخدم يبقى في لندن إلا الطبّاخة والبستاني جوناثان وسائق العربة ابراهام. البستاني يأتي

يومين ليراقب أعمال ابنه الأصغر ـ بستاني حديقة البيت الصيفي ـ ثم يرجع إلى لندن. الطبّاخة تبقى هنا ما دامت آنت هلن هنا، ومثلها سائق العربة. أعمال التنظيف والغسل والكوي وجمع الحطب ووقد النار، كل هذا يتكفل به طاقم خدم كامل تجمع آنت هلن أفراده من هامبستيد والجوار في فترة يومين على الأكثر ثم تصرفه من خدمتها آخر الصيف.

هامبستيد! والقبو تحت البيت بصناديق من مجلات لندن ماغازين، بينها الأعداد الشهيرة لسنة 1821، سنة اعترافات دي كوينسي، وصندوق من مجلة بانش، يتفرج يوسف على رسومها ويضحك، ولا يشك للحظة أنه سيعمل في مطبعتها ذات يوم قريب، وصندوق مليء بكتب قديمة متعفّنة لجون ميلتون وأوليفر غولدسميث، وكيس جنفيص خرجت من فوهته خرائط للساحل السكوتلندي ملفوفة ومربوطة بربطات جلد متشققة من القِدَم والرطوبة، يفرشها يوسف تحت ضوء الكوة ويتفرج على العلامات الحمراء على خط الشاطىء. يعرف أن هذه رموز المنارات التي أنشأها المرحوم آشبورن على طول الساحل السكوتلندي، بالشراكة مع المهندس أليك ستيفنسون. (كم مرة أخبرته آنت هلن عن هذه المنارات!).

هامبستيد! والسيد آرثر في الكوخ قرب البحيرة يخبره عن طفولته في إيرلندا وكيف كان يعيش من عزف الناي، وكيف ركب الباخرة، محشوراً كخروف وسط قطيع إيرلنديين فقراء إلى ليفربول الإنجليزية، وكيف ظل يعزف الناي من ليفربول إلى مانشستر إلى برمنغهام إلى لندن، ذلك قبل ثلاثين وأربعين سنة، قبل أن تقطع سكك الحديد السهول، قبل أن يصفر القطار في غابات انجلترا، كان ينام في العراء والناي تحت رأسه، وفي لندن وجد إمرأة أحبّته، وبعد أن تزوجها وماتت بقي له هذا الكوخ!

هامبستيد! وحين أتى ادوارد وزاره، ثم أخبره أنه سيسافر بعد أسبوع إلى نيوزلندا، وأنه قد لا يعود. ويوسف يفكر، هكذا تجري الأشياء دوماً، ويتذكر الرسالة التي كان يكتبها لوليم قبل يومين، والتي لم ينتهِ منها بعد: عليه الآن أن يكتب عن سفر ادوارد القريب.

*

كان يقترب من الثامنة عشرة. وكان يعلم أن آنت هلن تريده أن يبقى قربها. خلفه سنوات وستمنستر، وأمامه ـ إذا نجح في امتحان الدخول ـ أكاديمية الفنون.

يتمدد تحت شجرة في الهايد بارك، الهواء على وجهه يُذكره بنزهة قديمة إلى بيت الدكتور فاندايك في الجبل اللبناني (كان برفقة آل شافرد، وأكلوا لحماً مشوياً تحت أشجار الزيتون، أيذكر؟)، يرى الغيوم في سماء بريطانيا، ويغمض عينيه.

كيف مضت السنوات؟

المبنى الداخلي في وستمنستر. عند استراحة الغذاء يأكل لقمة في الكافيتريا ثم يصعد مع رفاقه إلى غرفهم. في الممر الطويل سجادة بنية غريبة اللون. على الحيطان لوحات تمثل مناظر من لندن، عرف بعد زيارة المتحف البريطاني أنها نسخ عن لوحات أنطونيو جولي وصامويل سكوت. في الداخلي يلعب الشطرنج أو الورق مع رفاقه. حين انتهاء الفرصة يعود إلى اللاتينية وتاريخ أوروبا في العصور الوسطى. في بعض الأيام ينصرفون باكراً. (منذ انطلقت أعمال مبنى البرلمان والدراسة تتوقف عند الثالثة). ينزل مع إدوارد وجيمي فيش إلى النهر. يركضون على الضفة، أو يركبون قارباً إلى تشلسي. يستأجرون صنانير لصيد السمك، يأكلون فطائر محمصة على الحطب. وجيمي يقفز إلى النهر بثيابه حين يكرج قلم من يده. أحياناً

يتسابقون إلى ساينت بول أو المونيومنت*. يعبرون جسور التيمز قافزين بين العربات والمشاة ويوسف (الجبلي) يصل أولاً في معظم الأحيان.

أربع سنوات، وصارت وستمنستر وتشلسي وواترلو وساوثوورك مناطق مألوفة لديه. يعرف الأحياء في جوار النهر من شرقي تشلسي إلى غربي ساوثووك، كما يعرف أزقة بيروت. رسم للمسز هاميلتون خريطة للندن وكتب لها «ضعيها مع خريطتي لبيروت». تلك رسالة من سنته الثانية في لندن، سنة موت المستر شافرد بعد تجدد نشاط جرثومة السلّ في رئتيه. يذكر التاريخ جيداً لأنه كتب رسالة طويلة لوليم آنذاك وأرسل طيّها نسخة من خريطة لندن التي رسمها للمسز هاميلتون: فبراير 1847. وبعد سنة بالتمام، في فبراير 1848، علم بزواج رايتشل وانتقالها إلى كليفلاند.

لن ينسى ذلك المساء. كان في غرفته في فليت ستريت. النار تتأجج في المدفأة خلفه. استدار في كرسيه ونظر إلى جوربه المبلل منشوراً على سياج المدفأة. كانت رائحة الصوف الساخن تملأ الغرفة. ضوء الشموع أظهر له الغرفة فسيحة جداً، والسقف عالٍ كأنه سقف جامع أو كنيسة. (كل أحد يذهب إلى القداس مع آنت هلن. خلفهما تمشي ماري مع أمها والخادمات. يذهبون إلى الكنيسة المجاورة. في الفصح والميلاد يركبون العربات إلى كنيسة القديس جايمس).

أعاد قراءة الرسالة من أولها. العواصف التي تهب منذ أسابيع، صحة مسز شافرد التي تتحسن، ذهاب جورج إلى بوسطن لزيارة أحد

* برج حجري أقيم لذكرى حريق لندن الكبير سنة 1666.

القساوسة، ثم رايتشل تزوجت وذهبت إلى كليفلاند!

وضع الرسالة على الطاولة. قلبها على الجانب الآخر ورسم بقلمه خطاً يشبه الخط التالي:

جعل يحدق إلى الخط وإلى حروف الرسالة الظاهرة مقلوبةً، كأنها معكوسة في مرآة. شيء ما تحرك في أعماقه، ذكرى دفينة، لكنه لم يعرف ما هي! هل كان يتذكر تلك الليلة لمّا نام قرب رايتشل (راشيل، راحيل) في البيت فوق بوابة يعقوب؟ أم أن الخط الذي رسمه للتو ذكّره بمنام رآه قبل فترة، منام ظهر فيه ذلك الثعبان، ثعبان دار المير، ثعبان الجد خاطر، يتلوى فوق صفحة رمل، تاركاً خلفه هذا الأثر، هذا الخط المكسور في زاويتين قائمتين! تلهى يوسف عن الحزن الذي طغا عليه (قد تزوجت رايتشل) بالنظر إلى الخط الذي رسمه على الرسالة. (وماذا يهمه من أمر رايتشل! إنها حتى لم تكن أخته! إنها حتّى ورغم التحيات التي أرسلتها إليه - في رسائل وليم - لم تكتب له ولو لمرة! إنها حتّى لم تودعه بنظرة وهم يغادرون بيروت إلى أميركا!).

تساءل لماذا رسم هذا الخط. ثم أخرج من جارووره الخريطة التي رسمها للندن وابتسم. لقد رسم دون انتباه خط نهر التيمز في عبوره بشلسي حتى انكساره في زاوية قائمة تحت جسر فوكزهول ثم صعوده

شمالاً حتى واترلو حيث ينكسر في زاوية قائمة من جديد، منعطفاً غرباً باتجاه بلاكفرايرز ثم ساوثوورك.

أخذ يرسم من الذاكرة جسر واترلو، ثم جسر وستمنستر، ثم جسر لامبث. رسم ثم مزّق ما رسمه وخرج من البيت. قال للبوّاب إنه سيقطع الطريق إلى الكنيسة، يقعد نصف ساعة، ثم يعود. (آنت هلن كانت في كيزنغتون تزور إحدى صديقاتها). توقف عند باب الكنيسة لكنه لم يدخل. مشى حتى وستمنستر كولدج بفعل العادة. كان الطقس بارداً. شدّ المعطف حوله. صفعه الهواء على جبهته فأمال قبعته نزولاً. وضع نظراته في الأرض وأسرع الخطى، عَبَر الحقل البارد تحت حائط الكنيسة الضخمة ثم وقف أمام جسر وستمنستر. إلى يساره، بعيداً، جسر واترلو. قبل لحظة كان يرسم هذه الجسور على ورقة.

وقف على جسر وستمنستر ينظر إلى الأضواء على جسر لامبث. عَبَر مركب تحت قناطر الجسر، نافخاً إلى أعلى سحابة من دخان أسود. بدا النهر جامداً لا يتحرك. أزّت حشرات في الهواء القاسي كسكين، البارد كقطعة جليد. أحسّ يوسف بالهواء يجتاح عينيه، فتدمعان. كرجت عربة خلفه ثم سمع نداءات وصرخات قادمة من ناحية قريبة. فكر أنه صراخ في رأسه وحسب. لم يأبه. مضى إلى الضفة الأخرى. انحدر عبر متاهة من الأزقة الموحلة مبتعداً عن النهر. وجد نفسه قرب معمل بيرة رأى لافتته الضخمة من قبل.

Brewery of Messrs Barclay & Perkins

دار حول البناء الغارق في العتمة فظهر له زقاق مبلط بالحجارة.

مشى فيه حتى رأى باباً موارباً وسمع الصخب الخارج منه. (هذه ليست أصوات في رأسه! إنها تلك الأصوات التي سمعها وهو على الجسر! أصوات سكارى!) دخل فكاد يدوخ من الدخان وروائح الشمع والنبيذ والخبز المحمص وسمك التونة والصراخ. شق لنفسه طريقاً حتى المشرب. كان يتحرك كأنه في منام. وضع القبعة على منضدة، وشرب كوب بيرة، ثم كوباً آخر. بعد ذلك خرج عبر الزحمة إلى الظلام.

في الظلام ارتطم بالحيطان وتعثر وسقط ومزق بنطاله عند الركبة. كان وحده. وحده في الظلام في مدينة غريبة. ماذا يفعل هنا في أزقة الوحل هذه! لماذا ترك غرفته الدافئة المضاءة في بيت آنت هلن في فليت ستريت؟ لماذا ترك غرفته في مبنى الأميركان في بيروت؟ لماذا ترك غرفته فوق باب يعقوب؟ لماذا ترك غرفته في بيت الشيخ عبد اللطيف في دير القمر؟ لماذا ترك البيت العقد في كُفربرك؟

بحث عن السماء. كانت الأبنية تتقارب فوق رأسه حتى بدا له أنه يخترق دهليزاً بلا نهاية. بحث عن السماء بعينيه لعله يعثر على فينوس، نجمة الصبح والمساء، فيستدل بها. حين ظهرت السماء أخيراً ظهرت سوداء ملبدة بلا نجمة واحدة. بعد لحظة انهمر المطر. ركض صوب صوت المراكب صوب صفير مرجلٍ بخاري. سمعهُ الضعيف لم يساعده. ضلَّ الطريق أكثر من مرة، يدور ويجد نفسه حيث كان قبل دقيقتين، إلى أن فتح الربّ أمامه ثغرة بين بناءين فرأى منها أضواء جسر من الجسور. كان هذا جسر بلاكفرايرز. قَطَعَه فوجد نفسه على بعد دقائق من فليت ستريت.

*

كيف مرّت السنوات؟

يذكر تلك الليالي الأولى. يوقظه البرد فينهض بجسم مسموم، جسم بلا دماء تجري في عروقه. ينهض وسموم ذلك الثعبان تسري

في كل شريان منه. يلتف بالبطانية واللحاف ويتكوم حول نفسه وسط السرير ناظراً إلى جمرات المدفأة. كل جسده يرتعش وصور الموت أمام عينيه. ترجع تلك الرائحة، رائحة سرير الحديد بالجثث المرصوفة فوقه، وتملأ أنفه. رائحة خيالية، يعلم أنها خيالية، لأن لا رائحة هنا إلا رائحة الخشب والنار وفتافيت فطيرة تتحمص على سياج المدفأة. يعلم أن رائحة الثلج وغرفة يوسف الأول ليست هنا، لكنه يتذكرها، وإذ يتذكرها يشمها.

ليالي البرد والأرق تلك لم تستمر طويلاً. عالجها بالصوف، وبشرب الشاي خفيفاً مع نعناع كثير، وبالإقلال من الأكل قبل النوم. ثم بدأ يتعرف إلى أصدقاء في المدرسة، وينشغل بالدروس، وبالقراءة في قاموس جونسون. («الوقت: آكل ـ الأشياء»، كتب الدكتور جونسون في قاموسه).

في ساعات الشاي كانت آنت هلن تُحدثه. تحكي له عن المرحوم زوجها، تسأله عن دروسه وهل صار عنده أصدقاء في الكولدج، وتخبره عن أولادها الموزعين على قارات العالم.

(أخبار آنت هلن)

تحكي عن حبّ المرحوم لعزفها على البيانو. تحكي عن صداقة اللورد آشبورن لزوجها. تحكي عن بِكرها ماكدوف، صاحب أكبر تجارة توابل بين استراليا وجزر الهند. تحكي عن إبنها الثاني شارلز، صاحب المزارع في جنوبي إفريقيا، وباني منارة في رأس الرجاء الصالح على نمط المنارات التي اشتهر أبوه ببنائها. تحكي عن صغيرها روبرت المقيم في دنفر في كولورادو حيث يدير مستشفى. وتحكي عن بناتها الموزعات على الامبراطورية ـ بنت في بومباي، بنت في جزر الفوكلاند، وبنت في إدنبره.

*

يستمع إليها وحين ينتهي الكلام يخرج إلى الحديقة أو يصعد إلى الغرفة. يتفرج على أصابعه، أو يشرد وهو يقرأ في كتاب. عند الظهيرة طعام الغذاء في المدرسة، وعند المساء المذاكرة والتفكير في اليوم التالي. الاستيقاظ صباحاً وحزم الكتب وارتداء الثياب. وهكذا، يوماً بعد يوم، مرّت السنوات!

كان هذا يدهشه.

(آخر سنة)

آخر سنة في المدرسة اعتاد الرجوع إلى البيت بطريق متعرجة. يقطع جسراً إلى ساحة واترلو، يتفرج على الغازلات الخارجات من معامل النسيج، أو على باعة الخضار والفواكه قرب المتحف العسكري، ثم يقطع جسراً آخر إلى الضفة الشمالية. هكذا يصل البيت متأخراً بعض الشيء فيتجنب المشاركة في ساعة الشاي.

يقول لآنت هلن إنه تأخر مع رفاقه في المدرسة. ويفكر أنه سيعوض عليها بأن يقرأ لها من أحد كتب الأشعار الرومنطيقية (ووردسورت، أو كيتس، أو كولريدج) هذا المساء، فهي تحب اسلوبه في الإلقاء، وتحب أن يُقرأ لها. (نظرها ضعيف. والنظارة الطبية تملأ عينيها بدموع حارة). لكنه في أحيان كثيرة ينسى ما فكر فيه وينصرف إلى كتابة الرسائل (حتى هذا الأمر بات ينسى القيام به مؤخراً)، أو إلى القراءة في كتبه.

يبقى ساهراً في ضوء الشموع أو المصباح حتى نصف الليل. يفكر ـ وهو ينظر إلى النافذة المغطاة بالغبش ـ أنه بات أقسى. لم يعد يكتب لوليم أو للمسز هاميلتون إلا فيما ندر. (في رسائله القليلة إلى المسز هاميلتون بات يذكر ما يجري له باختصار، وأحياناً لا يذكر إلا نتفاً

مبعثرة). وحين يكتب لهما يحسّ بأنه يضيّع وقته. لا، يحسّ كأنه يحكي مع أشباح. هل يعرف أنه سيراهما بعد اليوم؟ لا، لا يعرف.

ينعس وهو جالس إلى طاولته. أربع سنوات مرت، وهذه الغرفة باتت قوقعته، وهو السلحفاة فيها. خلفه، في الخزانة، كتب حملها إلى هنا من بيروت. الإنجيل. «كتاب الحكمة» قدَّمه له معز الدين قبل أيام من السفر قائلاً: «هذا دينك! لا تنسَ من أنت!». كتاب «دليلك إلى فن التصوير». والقاموس الإنجليزي ـ العربي تأليف الدكتور عالي سميث والمعلم بطرس البستاني. على الطاولة، ساعة جيب ذهبية ابتاعتها له آنت هلن، وهو برفقتها، من Holborn Viaduct. في الجارور العدد الأخير من مجلة Punch، أقلام وعلاّقة مفاتيح وريشة وقارورة وممحاة بشكل كلب.. أغراض ابتاعها ولم يرمِ بها لسببٍ أو لآخر. كلّها هنا، مزروعة في أرجاء الغرفة (علَى الكومودينة مرآة صغيرة بإطار من خشب الأرز ابتاعها من باث*؛ فوق السرير صورة لمرفأ هامبورغ عثرت عليها ماري في أحد الدكاكين؛ على زجاج نافذته خدوش وعلامات من أظافره!)، هذه الأشياء الصغيرة التي لو لم يكن هنا، لِما وُجدت.

(ماري)

سنة 1849، بينما يتأهب لامتحان الأكاديمية الملكية للفنون، دخلت ماري عليه (منذ فترة لم تعد تفعل هذا). أخبرته أنها ستسافر إلى بيت خالتها في ليفربول السبت القادم.

ـ ومتى ترجعين؟

ـ لا أعرف.

---

* Bath.

قصّت خصلة من شعرها البنّي ـ الأحمر ووضعتها في يده. لم تكن قد بلغت الثانية عشرة بعد.

حين خرجت فكر أنها طفلة غريبة الأطوار. فتح الجارور وترك الخصلة الصغيرة تقع فوق الأغراض المبعثرة. بعد فترة تجمع عليها غبارٌ، فرماها في سلة القش المخصصة للنفايات. بعد ذلك لم يفكر في ماري (وكيف له أن يفكر فيها وهي طفلة صغيرة عرفها لفترة ثم باعدت بينهما الصُدف!) حتى رآها من جديد، بعد مرور خمس سنوات.

للوهلة الأولى لم يعرفها.

_ 55 _

في خريف 1849 دخل يوسف إلى الـ Royal Academy of Arts*. كان يلزمه للتخرج منها أن يدرس عشر سنوات. أول ثلاث سنوات يتعلم الرسم (Drawing) والتشريح (Anatomy). في السنوات السبع الباقية يعبر مرحلتين. المرحلة الأولى تُدعى Preliminary School of Painting، ويُسمح له خلالها ـ ولأول مرة ـ بالتلوين. المرحلة التالية تُدعى Upper School of Painting، وفيها يُعطى فرصة العمل على Live Model (كما كُتب في كاتالوج الأكاديمية). هكذا يرسم إمرأة حقيقية عارية بدل أن يرسم تمثال إمرأة.

لكن يوسف ـ الذي سُجل في الأكاديمية تحت الإسم الإنجليزي جوزف ماندر ـ لن يبلغ الـ Upper School، لأنه سيترك الدراسة.

(الدراسة)

كانت الأكاديمية تقع عند تقاطع البيكاديللي مع بوند ستريت، تفصلها عن كنيسة القديس جايمس مجموعة عمارات تحاذي ديوك ستريت. إحدى هذه العمارات كانت تابعة للأكاديمية. هنا، في قاعة على الطابق الثالث، قضى يوسف (جوزف ماندر)** شتاء 1849 يتعلم

---

* تأسست سنة 1768.

** ترجم إسمه إلى الإنجليزية. يوسف تحول إلى جوزف. جابر (من جَبَر أو أصلح) تحول إلى ماندر (Mender).

قواعد الرسم.

- كي نرسم تفاحة نقلاً عن رسم تفاحة نقطع الورقة إلى مربعات صغيرة ثم نرسم كل مربع صغير....

أحسّ يوسف أن الروح تتقلص داخل جسمه حتى تصير بحجم حبّة عدس. إنّه لا يحتاج إلى هذه القواعد (إلى هذه المربعات) كي يرسم تفاحة أو بيتاً أو خروفاً! إنّه لا يحتاج إلى من يعلمه الرسم! هو يريد الألوان، أن يتعلم قواعد التلوين، ذلك السرّ الذي يجعل السماء تشبه سماء حقيقية، الذي يجعل البحر يتموج على ورقة أو قماش! ذلك ما يبحث عنه، وليس هذه المربعات!

حبّة عدس كثيفة ثقيلة، كالحصاة، في قعر معدته، كانت تضغط، تمزق أحشاءه، تريد الخروج من جسده. كانت على قيد الحياة. مثل دودة. وكانت تتحرك.

ألا يستطيع أن يقفز عن هذه السنوات الثلاث ويبدأ بمعالجة الألوان فوراً؟ لماذا يحتاج دروس التشريح! خرائط الجسم البشري، خرائط عضلات الحيوانات، خطوط الفخذ والذراع، وتر العنق، قوس القدم، التكور الخفيف جنب البطن، هل يحتاج أستاذاً ليرى هذه الأشياء! نظرة واحدة والخطوط كلها تحفر نفسها في رأسه، في عينه، حتى في يده!

كان شتاءً متعباً. ثلوج تذوب تحت المطر متحولة إلى برك وحل وسط طرقات لندن. الريح تهبّ فجأة، تهز ألواح النوافذ، ثم تتلاشى. جليد يغزو كل غرفة، كل سرير، كل مدخل بيت. المسلات تدلت لامعة من كل إفريز، بقطرة ماء في رأسها تنقط على الرصيف كل نصف ساعة. أينما مشى كان يوسف يرى ذلك اللمعان، لمعان

شبه مطفأ تحت السماء الرصاصية، لكنه كان يستقر في عيني جوزف (يوسف) المتعبتين كشعلة نار.

بعد الشتاء أتى الربيع. باتت الطريق من فليت ستريت إلى Duke أسهل. لكنه في كل مرة، بينما يتسلق السلالم إلى القاعة على الطابق الثالث، ورائحة الخشب في أنفه، كان يشعر بتلك الحصاة (تلك الدودة) في قعر معدته تتحرك من جديد.

صمد سنة أخرى. بعد ذلك انتقلت الصفوف إلى مبنى الأكاديمية الرئيسي عند تقاطع بوند ـ البيكاديللي. هنا تنفس بعض الهواء. كان يقعد في البهو الكبير ويتفرج على اللوحات المعلقة ويسمع النقاشات الساخنة. (كانت تسيطر على الأكاديمية آنذاك مجموعة أساتذة مسنين قامت ضدّهم حركة بين الطلاب لكسر «الأكاديمية» المسيطرة على روح الرسم). أو يصعد إلى السطح ويجلس قرب المدخنة، ويتفرج على لندن من فوق. على سماء مرفوعة على أبراج كنائس لا تُحصى. على قبة ساينت بول البعيدة، والتماعة التيمز.

في البدء وجد نفسه في تلك النقاشات. وخلال «معرض لندن الكبير» سنة 1851، وجد نفسه مع «عصبة السبعة»* ينادي بتحرير الأكاديمية من «القوانين الصارمة البالية»، بالعودة إلى الطبيعة للرسم، بالرجوع إلى تراث المعلمين الإيطاليين الأوائل.

كانت النقاشات تدور في بهو الأكاديمية، في حانات أوكسفورد ستريت، في الكريستال بالاس، وعلى الطرقات. لكنه كان يحسّ أنه

---

* حركة الـ Pre-Raphaelites.

يكذب. يحسّ أنه يكذب، لأنه ـ وهذه هي الحقيقة ـ لم يتقن الرسم (التلوين) بعد. ولهذا فإن دخوله طرفاً في هذه النقاشات لا يعني شيئاً.

في الليل، بعد افتراق الصحبة، كان يمشي إلى فليت ستريت مدخناً غليونه (يدخن منذ فترة)، والبيرة تفوح مع أنفاسه فتُذكره ـ لا يدري لماذا ـ بالقبو في كفربُرك.

ـ 56 ـ

بعد ثلاث سنوات بدأت دروس التلوين. اكتشف أموراً بسيطة استغرب ألا ينتبه لها من قبل. (كان يضع على القماشة لوناً جديداً فوق لون لم ينشف بعد، مما يؤدي إلى تشقق طبقات الألوان. تعلم في الـ Preliminary أن هذا خطأ). اكتشف طرقاً مثيرة لاستخراج الألوان من النبات أو الحجارة أو حتى التراب. درس عن الهولنديين، وأخذ يتأمل لوحاتهم في المتحف البريطاني محاولاً تحليل أساليبهم في تثبيت اللون على القماش. وكان ـ لأول مرة منذ خريف 1849 ـ يشعر أن تلك الدودة اللعينة قد كفّت عن الحركة في معدته.

في صيف 1853، خلال العطلة في هامبستيد، حمل عدة الرسم ونزل إلى البحيرة. يريد أن يرسم كوخ آرثر الايرلندي وكوم القش الأصفر حوله. خلال ساعات أنهى الرسم بقلم الرصاص. كان آرثر ممدداً في ظلال التوتات البعيدة، يشرب الماء، ويدخن. مضى يوسف إليه حاملاً الرسم. قال له آرثر إنه يستطيع أن ينتعل حذاءه الآن ويدخل إلى الكوخ في الورقة. ضحك يوسف. (هل تذكر عندئذٍ ما قالته نسب يوم رأت الخراف التي رسمها على التراب؟).

في اليوم التالي ثبّت القماشة على المسند الخشبي ذي القوائم

الثلاث وبدأ يصفّ قوارير الألوان على صخرة قربه.

عند الظهيرة ـ في ضوء الشمس العمودي ـ بدأ العمل. العرق يتصبب من جبهته، ويده تتحرك كأفعى. كان آرثر يراقب من تحت التوتات. يشرب الماء (اليوم حار أكثر من البارحة) ويدخن سيجارة بين حين وآخر. (كان يلفّ سجائره بنفسه ناظراً إلى الذباب يحوم حول قدميه العاريتين المتشققتين).

عند العصر كفّ يوسف عن الحركة. تجمد كالتمثال. قال آرثر لنفسه «الآن سيأتي نحوي». كان يتهيأ للّوحة، ورأى يوسف (جوزف) ينحني على كيسه ثم يستقيم. بعد ذلك رآه يفك القماشة عن المسند الخشبي.

لفّ يوسف القماشة، حمل عدته، ومشى مبتعداً. وقف آرثر كي ينادي عليه. لم يفعل. تأمله يتسلق المنحدر نحو البيت أعلى الهضبة، بينما صوت الضفادع يتعالى من البحيرة.

في اليوم التالي وجد آرثر القماشة مرمية وسط دغل من الأشواك: كانت بحيرة ألوان من الوحول الصفراء والحمراء ـ البنّية، وخطوط الكوخ بالكاد ظاهرة.

ـ 57 ـ

في ذلك الصيف أخبر آنت هلن أنه يريد مغادرة الأكاديمية.

ـ وماذا ستدرس؟

ـ لن أدرس. سأجد عملاً.

سألته هل يفعل هذا لأن الحكومة توقفت عن دفع تكاليف دراسته. (كان هذا قد حدث قبل سنتين، فتكفلت آنت هلن بدفع أقساطه).

قال لا.

ـ وماذا ستشتغل؟

ـ لا أعرف بعد.

قالت له إن موهبته لا يملكها الجميع، فلماذا يتخلى عنها.

قال إنها قد رأت ألوانه، وإنه لا يملك هذه الموهبة.

ـ لكنك تملك موهبة الرسم. إنك ترسم كأنك تصور بآلة فوتغرافية. هذه موهبة كبيرة.

سكت محدقاً في الأرض. لم يقل لها ماذا يشغل تفكيره: منذ ليالٍ، منذ شهور، وهو يفكر أنه قد خُدع! بلى، قد خُدع. أُعطيَ موهبة الخطوط فنذر نفسه للرسم، للقبض على سرّ الألوان بين أصابعه، لكن هذا ـ سرّ اللون ـ لم يُعطَ له. كانت خدعة، أُعطي القليل كي يطمع بالكثير ويبحث عنه، فلمّا بحث عنه لم يجده!

من خدعه ولماذا؟

قالت آنت هلن:

ـ أدموند ايفانز، الذي يطبع كتباً للأولاد، كتباً مليئة بالرسوم، إنه صديق قديم للعائلة. وهالفت، محرر البانش، أيضاً. ما رأيك بعمل كهذا؟

سألها ماذا سيفعل بالضبط.

ابتسمت:

ـ ندعو هالفت إلى العشاء ونسأله.

*

في الواحدة والعشرين من عمره بات المساعد الأول للمستر توماس بالدي، صانع قوالب الرسوم في مطبعة Punch.

- 58 -

خلال سنة واحدة ذاع صيت جوزف ماندر في عالم حفّاري الرواسم* في لندن.

هذا الشاب القادم من آسيا، الذي يتقن الإنجليزية كالإنجليز، ويضاهيهم معرفةً بالإنجيل، وعلى رأسه شعر أبيض رغم صغر سنّه، استطاع خلال أسابيع معدودة أن يأخذ عن مُعلمه توماس بالدي جميع أسرار الحرفة، وأن يتفوق فيها على آخرين يمارسونها من عشرين وثلاثين سنة.

من اليوم الأول عرف السيد بالدي أنه أمام موهبة. طلب من جوزف أن ينقل رسماً بقلم الرصاص عن ورقة إلى قالب خشبي مصقول ومغطى بلون أبيض. كانت ورقة سمراء رقيقة عليها رسم ذئب يقف في بنطلون أسود وجزمة سوداء وقبعة سوداء مستنداً إلى شجرة بلوط. (رسم من «حكايات الأخوين غريم الخرافية»**، سبق ليوسف أن رآه من قبل). الذئب أبيض - رمادي، ثيابه سوداء. الشجرة جذعها أبيض - رمادي، أوراقها سوداء. السماء بيضاء، أرض الغابة سوداء - رمادية.

---

* Wood engravers.

** Grimm's Fairy Tales.

الورقة لم تكن ورقة عادية. كانت ورقة استشفاف*. يستطيع أن يثبّتها على القالب الخشبي ثم يمرر قلم الرصاص على خطوطها، وبضغط خفيف، ينتقل الرسم تلقائياً إلى الخشب.

وضع يوسف الورقة قرب القالب الخشبي، على طاولة مزدحمة بأدوات الحفر وقوارير الحبر. كان الضوء يصدر عن مصباح محاط بأوعية زجاجية مليئة بالماء. كل النور كان مركزاً على الطاولة. بدون كرسيٍ، بدون لحظة تردد واحدة، أمسك يوسف بقلم رصاص، ومُنقِّلاً نظراته بين الرسم وصفحة الخشب المطلية بالأبيض نَسَخ الرسم بأدق تفاصيله.

المعلم توماس بالدي** وقف على بعد خطوة، فاغر الفاه تقريباً. المئزر الأبيض (الملطخ ببقع حبر سوداء، وببقع أخرى صفراء ـ بنيّة من نشارة الخشب) كان يرتجف على صدره. في حياته كلّها لم يرَ أحداً يرسم بهذه السرعة.

وضع يوسف قلم الرصاص على الطاولة ثم تراجع خطوة، والتفت صوب الرجل في المئزر الأبيض المبقَّع. لاحظ ذقنه الحليقة، طريةً حمراء كقطعة لحم، تُحدّدها عن الجانبين شعرات سالفين عريضين بلون الرماد.

---

* Tracing Paper.

** سكوتلندي الأصل. جاء إلى لندن سنة 1812. آنذاك كانت المدينة تضم 14 شركة لصناعة الرواسم (الكليشيهات الخشبية). عمل فترة عند الأخوة دالزيل ثم انتقل إلى محترف Punch. خلال أربعين سنة من العمل حفّاراً في لندن لاحظ عدد شركات الرواسم يتضاعف 4 مرات.

قال الرجل:

ـ أعمل في هذه المهنة منذ نصف قرن. أعرف أشهر الرسّامين في لندن. سير جون تانيال، جون ليش، شارلز كين، ادوارد لير، كلّهم رأيتهم يرسمون على الخشب، ويصححون بروفات بضربات سريعة. لكن ليس هكذا!

تابع يوسف النظر إلى مئزر الرجل.

ـ هذا نصف عملنا أو أقل. النصف الآخر هو الأصعب. لكن إذا كانت يدك دقيقة هكذا في نقل الخطوط فليس أسهل من أن تكون دقيقة بالدرجة ذاتها في الحفر والنقش.

*

كان عملاً غريباً. (كأن يوسف قد وُلد من أجل هذا العمل). وأغرب ما فيه تلك الأفكار التي أطلقها في رأس يوسف. جعل يفكر (وهو الذي تابع القراءة في «الحكمة» طوال هذه السنوات في لندن، ربما بسبب تشوقه إلى رؤية الحرف العربي) جعل يفكر أنه ربما قد عاش فعلاً حياةً سابقة على هذه الحياة. وأنه في تلك الحياة السابقة امتلك مهارات ظلّت فيه.

أن يكون قد عاش من قبل في هذه البلاد مثلاً، في إنجلترة، وأن يكون هذا سبب ولعه بموسيقى الكلمات الإنجليزية! (ما زال يُقفل على نفسه باب الغرفة ويترنم بسونيتات شكسبير، وبأشعار الأخوات برونتي: يحبّ على الخصوص أشعار إميلي صاحبة «مرتفعات واذرنغ»). أو ربما كان يعيش في أميركا! قبل ثلاثين سنة! قبل مئة سنة!

تلك الأمور التي لا يعرف هل يفكر فيها جاداً أم ضاحكاً، تحولت إلى حقيقة يومية في حياته تدريجياً. صار يقرأ في رسائل الحكمة المقدسة كل ليلتين أو ثلاث، ويحاول أن يجد شيئاً يضيء له الدرب. اكتشف أنه لم يعد يفهم العربية بالسهولة القديمة ذاتها. اكتشف أنه قد نسي كلمات عديدة. اكتشف أن أسلوب تركيب الجمل بات غريباً بالنسبة إليه. اكتشف أنه يتعثر في فهم تلك العبارات الطويلة. اكتشف أنه لم يعد هو. اكتشف أنه صار إنجليزياً.

ابتاع بيتاً جلدياً، خبأ «كتاب الحكمة» داخله، ثم أقفل عليه الجارور.

بعدئذٍ لم يُخرجه من البيت الجلدي (سوف يخرج البيت الجلدي - بالكتاب داخله - من الجارور أكثر من مرة دون أن يخرج الكتاب نفسه من بيته) حتى أزفت ساعة الرحيل عن إنجلترة.

(الحفر على الخشب)

يُقطع القالب الخشبي من جذع البَقْس*. يُقص بسماكة إنش واحد (2,54 سم)، يُجفف في مكان ظليل لئلا تشققه الشمس، ثم يُصقل بالورق المرمّل. يُقطع بشكل مربع. (البقس نحيل الجذع، قطره لا يتجاوز 12 إنشاً. وهكذا فإن ضلع القالب المربع الواحد لا يتجاوز 6 إنشات - بعد التقشير والتربيع - إلا نادراً). بعدئذٍ تستخدم المسامير المصوملة (الملولبة) لتثبيت القوالب بعضها إلى بعض. (من أجل رسم مساحته 16 × 22 إنشاً يلزم جمع 36 قالباً في مربع واحد، يُمكن لفّهُ - بعد طرق المسامير - بحزام حديدي). هكذا ينتهي عمل النجارة. لا

* شجرة حبّها وورقها يشبه حبّ وورق الآس. خشبها متين، ذكر المعلم بطرس البستاني في معجمه «محيط المحيط» (1870) أن الملاعق تُعمل منه.

يبقى إلا صقل الوجه مرة أخرى. (وجه القالب هو جهة العروق الظاهرة ودوائر الألياف). حين يصير ناعماً أملس يُغطى بالأبيض الصيني (أبيض الزنك المكثف) كي يقبل علامات الرصاص والحبر.

بذلك يتم تحضير القوالب للعمل. (سوف يذهب يوسف صحبة المعلم توماس بالدي إلى الغابات في جوار «كنت» للتفرج على معمل آلي يقطع هذه القوالب من جذوع تتحرك ممددةً على سلسلةٍ حديديةٍ عريضة).

العمل جزءان، الرسم والحفر هما الجزء الأول. الجزء الثاني هو طبع الرسم في بروفة للحصول على موافقة الرسّام قبل تركيز الكليشيه في الآلة الكبيرة.

(الحفر)

بإزميل، ومِظفار (إزميل مقعر)، ومنقاش* (إزميل مدبب الرأس)، يقطع يوسف الرسم، الذي نقله على القالب، مخلفاً في موضعه تجويفاً لا يزيد عمقه عن السنتيمتر. (إذا حفر أعمق قد يثقب القالب). بعد ذلك يلتقط آلة تشبه الإزميل، لكن سطحها غير أملس بل مغطى بالأخاديد. هذه الآلة تُسمى Tint-Tool ينقش بها على الخشب سلسلة خطوط دقيقة متوازية لإظهار الظلال. إنها «الآلة ـ العقدة» بالنسبة إلى الحفّارين. لذا يتجنبون استعمالها قدر الإمكان. (رغم أن هذا يجلب عليهم غضب الرسامين، إذ «أين اختفت ظلال الشجر في رسومنا؟»). أما يوسف (المعروف من شرقي شارع ستراند إلى غربه بجوزف ماندر) فيستعملها بالسهولة ذاتها التي يستعمل بها غيره الإزميل أو المِنقاش.

* A graver, a gouge, a chisel.

أحد العاملين في المطبعة سوف يطلق عليه لقباً يذيع مع اسمه:

J. Mender: The Tint-Tool-Man.

(بروفة)

مهارته (تلك اليد الدقيقة السريعة) لن تقتصر على الرسم ثم حفر الكليشيهات. في البروفات أيضاً سوف يتميز. العاملون حوله سيلتفتون ليراقبوا طريقته الماهرة (الخفيفة) في مسح الرواسم بالحبر، وفي التقاط ملعقة والضرب بمسكتها ـ برفقٍ، برفقٍ ـ على صفحة الحبر، على نتوءات النقش. بقطعة قماش يمسح الحبر الزائد. بظفره ينشر قطرة هنا، يكفكف قطرات هناك. يطمس تفصيلاً غير ضروري، ويبدل من درجة الألق (من عمق الحبر وتدرجات اللون) مستعملاً قطعة فلين، أو قطّاعة رفيعة (فتاحة ظروف الرسائل) أو سكيناً منزوع القبضة (القبضة قد تجعل السكين ثقيلاً في يده).

تلك لحظات تظلّ تتكرر. والكلّ ينظر إلى أصابعه كأنه يشاهد آلة من تلك الآلات الغريبة التي عُرضت في الكريستال بالاس قبل سنوات برعاية الأمير ألبرت، زوج الملكة.

يترك الأدوات تسقط من يده كريش الطيور في سلّ القش الكبير تحت الطاولة. (بعد كل جولة تغميس في الحبر يجب مسحها وغسلها وتنشيفها). يستدير ويرفع ورقة بيضاء جاهزة عن الطاولة خلفه. يبسطها على الكليشيه. وبسكين عريضة غير حادة يصنع حركة كالموج فوق الصفحة البيضاء. لمسة واحدة سريعة مذهلة. ليست قاسية بحيث تمزق الورقة أو تُبقّعها بالحبر تبقيعاً. وليست رقيقة بحيث تُجعد الورقة أو تمنعها من امتصاص طبقات الحبر العميقة. لمسة شبه سحرية. ينزع بعدها الورقة وينظر. على الحائط أمامه ورقة الاستشفاف معلقة

بدبوس. يقارن الرسمين: ذلك الذي أرسله الرسّام إليه، بهذا الذي أنجزه للتوّ.

أية معجزة!

من خلفه يسمع أصواتاً كالتنهيدات. يبتسم. يدرك أن الربّ ـ الربّ صاحب الطرق الغامضة ـ قد دار به كل تلك الدورات كي يصلَ به إلى هذه النقطة.

- 59 -

بدا أن الحياة التي لم تُظهر له حتى اللحظة غير وجهها القاسي (ماتت أمه سارة وهو في الخامسة. في الثامنة افترق عن أبيه. خلال يوم واحد فقد سبعة أخوة. تشرد من بيتٍ إلى بيت، من بلدة إلى بلدَة، وحيداً والأحزان تطارده، ثم تغرَّب. أخذه البحر إلى بلادٍ بعيدة. كان يُطارد حلماً لا يعرف من زرعه في رأسه، حلم امتلاك سرّ اللون والقبض عليه كليرةٍ ذهبية. لكن الحلم تبدّد كالسراب، مخلّفاً تلك الخيبة والإحساس بالخديعة، بأنه قد أضاع سنوات وسنوات سدى، بأنه قد خسر وطناً دون أن يربح حلماً، خيبة أقسى من المرض ومن الحمّى ذاتها. تلك الليالي، أيام الدراسة في الأكاديمية والرجوع مساءً إلى فليت ستريت عبر البول مول ثم الستراند مجرجراً ساقين ثقيلتين معبأتين بالرمل والرصاص، يمسح رغوة البيرة عن ذقنه الخفيفة وينفخ في الهواء البارد سحابات دخان زرقاء تؤطر وجهه الأبيض. كيف صار وجهه أبيض هكذا، كيف تلاشت السمرة القديمة من بشرته، بسنوات قليلة فقد لون التراب الجبلي، فقد ظلال الشمس المتوسطية، صار أبيض كأصحابه اللندنيين. . . وكان وحيداً وحدةً تنزل في زلعومه كشيش أحمر ساخن، تثقب أمعاءه، تشق صدره إلى قطعتين، وهو يتمدد في غرفته حاضناً المخدة، ورائحة التبغ تتشربها شراشفه، وضوء الشموع ينير قطرات الضباب على الزجاج، فتلمع كعيون القطط في العتمة، قطرات لا يستطيع أن يعدّها، كثيرة كرمل

البحر، كثيرة كالنجوم في سماء كفربُرك، نجوم لم يرَ مثلها إلا في ليلة أو ليلتين في هامبستيد، وكان يذهب إلى الطاولة، وعلى ورقة يكتب اسمه بالحرف العربي، وحين يلفظه بصوت عالٍ يبدو غريباً. لكنته تبدلت، مثلها مثل لونه. لونه تحول، الفصول تعاقبت، ربيع ثم صيف ثم خريف ثم شتاء ثم ربيع . . . وهو لم يقبض على سرّ الألوان بعد، يحسّ أنه لن يقبض عليه أبداً . . . كل هذه الغربة من أجل لا شيء!)، بدا أن الحياة التي ـ كالجوارح ـ لم تفعل غير تغطية جسمه وروحه بالندبات والجروح، قد باشرت أخيراً في إظهار وجهها الآخر: كان يمسك بازميله ويفكر ـ ناظراً إلى الكليشيه يتكون كالمعجزة أمام عينيه ـ أن الحياة قد بدأت تبتسم له. كان يفكر في تلك الكلمة تحديداً Smile. الحياة تبتسم له، بلى، بالتأكيد. (منذ جاء إلى لندن يتابع روايات ديكنز وثاكيراي ودزرائيلي مسلسلةً في المجلات الأدبية ثم يقرأها ثانية مجلدةً في كتاب بعد أشهر معدودة حين تشتريها آنت هلن وتضعها على رفٍ من الرفوف في حجرة المكتبة). حظّه أخذ يتبدل. ها هو قد عثر على عمل يحبّه. ها هو قد انتهى من الأكاديمية البائسة. وفي جولات الاستراحة يمضي مع زملائه إلى إحدى الحانات عند طرف الشارع (الستراند حيث تتركز المطابع ودور النشر ومكاتب الصحف والمجلات)، إلى حانة عميقة قرب محطة تشارنغ كروس لعربات الأجرة. يتجمعون في الداخل، يتبادلون الأنخاب مع عمال المطابع الأخرى، وهو ـ من النافذة الكبيرة المقسمة، بقضبان خشبية مجدولة، إلى مربعات ـ ينظر إلى العربات في المحطة المقابلة، بعضها يجرّه حصان، بعضها الآخر يجرّه حصانان أو أربعة أحصنة، يراقبها تتحرك عابرة من مربع في النافذة إلى مربع آخر، يشرب البيرة، يفتح كيس تبغ ماركةً بيك ويك*، ويملأ

---

* Pick Wick. هو الشخصية الرئيسية في مغامرات بدأ شارلز ديكنز بنشرها في

غليونه. يتفرج على الشمس تظهر لحظة، نورها أصفر مشع يسقط على حائط الفندق، أو على تمثال الحصان بالملك القديم فوقه وسط الساحة، أو على عربة من العربات الكبيرة مرسوم على بابها حصان ذهبي صغير ومكتوب تحته Cook Omnibuses، أو على شرفات VERNONS حيث تظهر الآنسات ساعة العصر. ذلك النور المتنقل حسب حركة الغيوم كدائرة ـ أو كمستطيل ـ ليضيء تلك المناظر، كان يثير في أعماقه شجناً رقيقاً، كذلك الشجن الذي تثيره في النفس نسمةٌ عليلة في صيفٍ قائظ. وكان يبتسم إذ يفكر أن المستر كوك صاحب شركة عربات الأجرة هو نفسه توماس كوك صاحب وكالة السفر البحرية التي تحمل الحجاج إلى القدس، توماس كوك الذي عثر سليم دحداح البيروتي ـ بعد عاصفة ـ على لافتة تخص فندقه الجديد في القدس، فأخذها إلى قبو بيت أهله، وظلّ ينظر إليها في ضوء الشموع، ليلةً بعد ليلةٍ، حتى أوحت له بأن يفتح مقهى!

فكرة كهذه (سفينة تغرق ولوحة خشبية من لندن تستقر على شاطىء بيروت ثم تُعلَّق فوق بوابة مقهى مضغوط بدخان الأراجيل) تبعث عضلات وجهه على التمدد والتقلص، ترسم ابتسامة على شفتيه، وتجعله يأخذ نفساً عميقاً من غليونه، يحبس الدخان في صدره، يتخيله يتحرك كالغيم في رئتيه، يغمض عينيه لحظة، يستمتع حتى نخاعه بطعم البيرة المحلية الطازج البارد، ذلك الطعم الذي يبقى تحت اللسان، ويتذكر أشياء قديمة قديمة: دخوله إلى الجامع العمري بإذنٍ من الحاج المغربي (قد نسي اسمه)، رؤيته الكلمات القديمة فوق

Old Monthly Magazine سنة 1833 ثم جمعها في مجلد سنة 1837. عرف هذا المجلد شهرةً أدّت إلى تحويل اسم بيك ويك إلى ماركة تجارية لسجائر ومناديل وورق جدران ودفاتر وأكياس تبغ.

جرن الماء في الزاوية (كلمات لاتينية مغطاة بالطين معناها «روح الله يرفّ على وجه المياه»، أخبره الدكتور طمسون أنها كانت مطلية بلون أزرق في زمن الحروب الصليبية أيام كان هذا الجامع كنيسة مشهورة)، صعوده إلى أعلى المئذنة، رؤيته العصافير في الجميزة، منظر مئذنة جامع المنذر، كلّما نظر إلى المونيومنت يتذكر تلك المئذنة. . . هكذا، محاطاً بأصوات الرفاق، بأحاديث متقاطعة، بطنين خفيف يأتي مخنوقاً من وراء الزجاج، كان نهر الذكريات يسحبه، كقارب مكسور تسحبه دوامة بحرية إلى أسفل. بدل أن يسقط كان يجد نفسه مقذوفاً في لحظة من الجزر البريطانية إلى شرقي المتوسط. يرى نفسه في بيروت، أصغر بسنوات، لكن شعره الأبيض يثير الهمسات ذاتها. همسات بالكاد تدخل إلى رأسه مع سمعه الضعيف. يدور في أزقة ضيقة ضيقة. (شوارع لندن الفسيحة جعلت تلك الأزقة أضيق من خرم إبرة). يمشي مع الأخوة شافرد تتقدمهم راشيل كما تتقدم البطّة فراخها، خارجين من بوابة يعقوب في طريقهم المعتاد ـ كل صباح ـ إلى المدرسة. يرى بيت الصوصة، بالدرابزين الحديد المشغول، بالسروات تميل مع الهواء حتى تلامس برؤوسها الدرابزين فتقع أوراقها الرفيعة على الشرفة. يرى بساتين التوت وكروم العنب والتين. يجلس على الأرض. يحسّ بيدٍ على كتفه. يفتح عينيه. ما زال على كرسي، وقبالته طاولة وأكواب وصحون فيها فتافيت وبقايا خضار. الاستراحة انتهت. ينهض. يعتمر قبعته السوداء بقبتها العالية. يتناول معطفه الجوخ عن العلاّقة. يخرج مع زملائه، إلى ما بعد ظهيرة غائمة، مطلقين ضحكات متقطعة تخفت تدريجياً مع اقترابهم من المطبعة، ثم تعلو للحظة واحدة عند المدخل، تلك اللحظة قبل خلع المعاطف من جديد والانحناء على الطاولات والأزاميل، في حركات بطيئة لا تلبث أن تتسارع بزوال تأثير الطعام والشراب والدخان.

ـ 60 ـ

. . . وفي عطلة الميلاد كانت تنتظره مفاجأة. كعادتها كل سنة كانت آنت هلن قد أمرت الخدم بإخراج الكراسي من غرفة الاستقبال، وبإعداد الزاوية قرب بوابة الحديقة لنصب الشجرة. هذه السنة انتقت شجرة سرو كاد رأسها أن يلمس السقف العالي. زيّنت الشجرة وبعثرت علب الهدايا تحتها. (أهدته في السنة الفائتة الطبعة الثامنة من الانسيكلوبيديا بريتانيكا الصادرة سنة 1842 في 21 مجلداً. احتار أين يضع المجلدات. الرفوف في غرفته قصيرة. أخرجت آنت هلن من جيبها مفتاح حجرة المكتبة. أعطته له قائلةً: «انك تجلس فيها أكثر مني، خذ»!).

تلك كانت مفاجأة جميلة. أن تتحول حجرة المكتبة إلى امتداد لغرفته. لكن مفاجأة هذه السنة كانت. . . .

(حجرة المكتبة)

حفظ أغراضها غرضاً غرضاً. الكنبات، الرسوم على الكراسي، تصميم السجادة، المجلدات على الرفوف، لمعة الخشب، سياج المدفأة الفضي ـ المسودّ، والأدوات المبعثرة على المكتب الضخم، خشبه من السنديان المصقول، مليء بالخدوش. (كان المرحوم آشبورن يقطع ـ بالسكين ـ الورق المقوّى على هذا المكتب. الورق المقوّى للوحات فراشاته). هذه الحجرة باتت صومعته الثانية بعد

الغرفة على الطابق الفوقاني. على المكتب أدوات كتابة، قوارير حبر، علب خشبية منقوشة، فتّاحات ظروف رسائل، مصباح صغير بكلوب بيضاوي الشكل عاجي اللون قاعدته ذهبية ـ بنيّة تمثل جذع بونساي قزمة، إناء فخاري ملوّن برمز الـ Messrs Doulton أصحاب معامل وأفران لامبث مطبوعاً على قاعدته، ميكروسكوب أطول من المصباح بنصف انش، عدساته بيضاء ـ صفراء، معدنه أسود لامع، تنظفه الخادمة كل يوم بالقطن والكحول... حتى الرسوم على ظهر الكرسي العالي المكبوس بالأزرار الفضية عند الحواف، حتى تلك الرسوم (الحديقة اليابانية، الكوخ الغريب، المرأة والبركة والبطّات الثلاث) يحفظها، ويقدر أن يرسمها في لحظات من الذاكرة.

أن يُعطى المفتاح لهذا المكان. لهذه المساحة من الرفاهية الساكنة المحفوظة بين حيطان مبطنة بألواح الصنوبر، بنوافذ عالية ذات ستائر مخملية خضراء. وأن يُعطى هذا دون أن يطلبه، حتى ولو حلم به طويلاً! هذا أيضاً دليل أن حظّه أخذ يتبدل.

(مفاجأة هذه السنة)

قالت آنت هلن:

ـ هل تذكر ماري؟

سكت الكناري الذي يغرد في القفص فوقهما.

قال يوسف:

ـ ماري؟

قالت آنت هلن:

ـ ابنة أليزابت الطبّاخة.

قال يوسف:

ـ ماري، ماري، طبعاً. تعمل خيّاطة في معمل خالتها في ليفربول، أذكرها!

قالت آنت هلن:

ـ لقد عادت بالأمس. خالتها ماتت.

تابع الكناري تغريده.

(نظرة)

حين وقعت نظرته عليها لم يعرفها. ليس لأنها تبدلت، كما يمكن للقارىء أن يفكر للوهلة الأولى. لا، بل لعكس ذلك تماماً. لم تكن قد تبدلت أبداً. خمس سنوات مرّت وهي ما تزال تلك الفتاة ذاتها، ابنة الثانية عشرة. نحيلة، عيناها كبيرتان، وضحكتها ضحكة طفلة. لم يعرفها يوسف: ربما كان قد نسي وجهها تماماً. (خلال خمس سنوات ينسى الواحد وجوهاً عديدة) أو ربما خيّل إليه للحظة أنه في حلم، وفي لحظة الحلم المضطربة تلك، فكر أنه لا يعرفها. لكن غموض اللحظة لم يستمر. بعد النظرة الأولى تذكر الوجه. تذكر يدها تقص ـ بمقصٍ فضي مزخرف القبضة ـ خصلةً من شعرها. تذكر أيضاً يومه الأولَ في لندن: استيقظ بطنينٍ في أذنيه، بثلج في قلبه، فرأى الباب يتحرك ووجهها يطلّ منه. آنذاكَ لم تكن قد بلغَت السابعة بعد. كانت في ثوب زهري وطارت نحوه.

واليوم أيضاً، بينما أجراس الميلاد تُقرع، يراها في ثوب فضفاض بلون الورود، كأنها سترتفع عن الأرض.

(خطط آنت هلن)

قالت آنت هلن:

ـ لماذا لا تطلب يدها من أمها؟ أنت شاب الآن، عملك ناجح، وتستطيع أن تنشىء عائلة صالحة.

قال يوسف:

ـ من؟ يد من؟

قالت آنت هلن:

ـ ماري طبعاً:

قال يوسف:

ـ إنها طفلة!

قالت آنت هلن:

ـ إنها تميل إليك. تبدو صغيرة لكنك تكبرها بخمسة أعوام على الأكثر. فارق سن مناسب جداً للزواج.

نظر يوسف إلى السجادة.

تابعت آنت هلن:

ـ المرحوم كان يكبرني بتسعة أعوام.

التفت يوسف نحو نيران المدفأة. رأى شرارات تتطاير فوق السياج ثم تحطّ على بلاطة الرخام*. قال:

ـ لا أقصد فارق السنّ. إنها تبدو في العاشرة.

ابتسمت آنت هلن:

---

* مساحة فارغة نصف دائرية أمام المدفأة. تُسمّى hearth. وفي قاموس: «المُصطلى».

ـ تكلم معها. رافقها هذه العطلة. ثم نرى.

(ماري)

في ليفربول، بين بنات خالتها الكثيرات، في معمل النسيج، عاشت كسندريلا. كانت الخالة تقسو عليها. أدق أعمال التطريز على القطنيات كانت تُترك لها. لم تمسح الأرض، لم تكنس العلية الخشبية، لا لرحمة في قلب الخالة، وإنها لكثرة الخادمات وضآلة أجورهن في بريطانيا منتصف القرن التاسع عشر. (كانت البيوت المتوسطة الحال تأوي ثلاث أو أربع خادمات). ورغم هذا أحبّت خالتها. لم تحبّها كما أحبّت أمّها طبعاً. لم تحبّها كما أحبّت ذلك الشاب القادم من وراء البحر، بشعرٍ أبيض، وبيدٍ عليها ثلاث شامات صغيرة، يد ترسم أجمل الطيور في لحظة. لم تحبّ الخالة هكذا، لكنها أحبّتها، وحين مرضت اعتنت بها. مسحت العرق عن جسمها بفوط القطن، وساعدتها على دخول الحمام، وعلى تناول الحساء الذي وصفه الطبيب. فعلت أشياء للمرأة لم تقبل بناتها أن يفعلنها. طوال ليالٍ سهرت قرب سريرها، والمطر يضرب النافذة.

قبيل موت الخالة أرسلت مع إمرأة عجوز رسالةً إلى أمّها الطبّاخة في لندن. الرسالة جعلت الأم تسافر فوراً إلى ليفربول. وصلت لحظة موت الخالة. أخذت ابنتها ورجعت بالقطار إلى فليت ستريت. (البنت ـ ماري ـ أدركت بينما الخالة تحتضر أنها قد تتحول إلى خادمة في بيت بنات الخالة الكثيرات).

أنقذتها أمها. أنقذتها الرسالة التي بعثتها إلى أمّها مع المرأة العجوز. المرأة العجوز، والرسالة، وأمها الطبّاخة أليزابت، حلّلن معاً في مكان الساحرة الطيبة في قصة سندريلا.

أُنقِذت ماري من ظلمات ليفربول. تحت نظرات يوسف (وحدها تناديه يوسف، الكلّ يناديه جوزف) أحسّت الروح تكبر من جديد داخل جسمها الصغير، وكل جراح السنوات الخمس الفائتة تلتئم وتُشفى.

ـ 61 ـ

(الخريف العاشر)

في خريف 1855، بينما أوراق الشجر تتساقط في حدائق لندن، بينما غابات هامبستيد تتلون بالأحمر والأصفر والبنّي، بينما إدموند إيفانز يطور ميدان الحفر على الخشب ليطبع رسوماً ملونة وينشر في محطات القطارات «كتباً صفراء» ستجلب له الشهرة إلى الأبد، بينما الـ London Pool تزدحم بالمراكب وبسفن «شركة لندن للملاحة»، بينما أعمال بناء بيت البارلمان وبرج ساعة بيغ بن تتواصل، في خريف 1855، بينما الضباب يزحف على وجه التيمز، والريح تدور هادئةً كل ليلة في الشوارع المضاءة بمصابيح الغاز، قوة كل مصباح 16 شمعة حسب قانون Gas Light & Coke Company، في خريف 1855 الرطب، خريف يوسف إبراهيم خاطر جابر ـ خريف جوزف ماندر ـ العاشر في لندن، في ذلك الخريف رأى يوسف بطن زوجته ماري ينتفخ!

(حياة زوجية)

تزوجا في كنيسة القديس دانستان في فليت ستريت (تلك الكنيسة ذات الساعة الظاهرة من نافذة مطبخ بيت آشبورن، الساعة التي طالما

رأى عقاربها تشير إلى الخامسة في طريق عودته كل عصر ـ قبل سنوات بعيدة ـ من وستمنستر كولدج إلى البيت!). انتقلا إلى بيتٍ صغير في شارع متفرع عن ستراند وقريب من مطبعة Punch. (كان اللورد آشبورن، نسيب وصديق المرحوم آشبورن زوج آنت هلن، قد استحصل ليوسف على جوازٍ إنجليزي باسم Joseph A. Mender).

ثبّت يوسف على حائط القرميد جنب الباب لوحة نحاسية صفراء نقش عليها اسمه الكامل.

Joseph Abraham Mender

طلى درابزين الدرجات الخمس باللون الأسود، ووضع أمام العتبة سجادة، حمراء ـ بنّية، بلون خشب الباب. قرب السجادة وضع فخارة زرع فيها شجرة برتقال هندي ابتاعها من ليدنهال ستريت*.

*

عند المساء يرجع من العمل. توصله عربة الأجرة (في الطقس الماطر) إلى أمام درجات البيت. ما أن يقرع الباب حتى يُفتح له. (تراه ماري قادماً عبر النافذة قبل أن تطرطق عجلات العربة ـ بينما تتوقف ـ على حافة الرصيف). يدخل ويغلق الباب خلفه. تتعلق به كطفلة. رائحة السجاد، والحساء على النار، والخشب، والكتب. (جَلَب الانسيكلوبيديا بريتانيكا من حجرة المكتبة في بيت آنت هلن، جلب خزانة غرفته بكل الكتب فيها، جلب أيضاً طاولته ـ آنت هلن أصرّت ـ ومن قبو البيت الصيفي في هامبستيد جلب سبعة صناديق مليئة بالكتب والخرائط والمجلات القديمة). رائحة الدفء والبيت الصغير والقطن والصوف. رائحة ماري الصغيرة.

---

* في ذلك الشارع كان المبنى الضخم لـ «شركة الهند الشرقية».

تأخذ الخادمة معطفه وقبعته من ماري. في حجرة المكتبة (يستخدمانها كغرفة قعود أيضاً) التي تُذكِّره ـ لا يدري لماذا ـ بالبهو في بيت آل هاميلتون في الأشرفية في بيروت، يجلسان على كنبة طرزت ماري مساندها برسوم وورود وأشجار وعصافير. يتخلص من حذائه ويترك رأسه يسقط على كتف ماري. يدها في شعره تدفع أصابعه إلى بطنها. ملمس القطن وسخونة البطن وذلك النبض الخفي. في الأحشاء المخفية ينمو جنين.

قال لها:

ـ إذا كان صبياً ندعوه كأبي، إذا كان بنتاً ندعوها ماري.

قالت:

ـ ندعوها سارة. والبنت الثانية ماري.

ضحك:

ـ لا، الأولى ماري، الثانية سارة.

قالت:

ـ لا أقبل. إلا إذا سمّينا أول صبي يوسف.

قال لها:

ـ الحقّ عليّ لأني أخبرتك عن أهلي.

قالت له:

ـ الحقّ عليك لأنك جئت إلى هذه البلاد.

حين يعانقها يتأكد مرة أخرى أنه وُلد من أجل هذا، من أجل هذه الحياة، هنا، في لندن، ليعمل في مطبعة أو في أي مكان آخر، ويعيش مع ماري، هذه المرأة الصغيرة، مُحاطَيْن بالأولاد.

(كوميديا المنامات)

تطلب منه ماري أحياناً أن يعلمها كلمات عربية، أو أن ينشد أمامها شعراً من بلاده. يتجنب ذلك عموماً. لكنه مرات يرضخ أمام إلحاحها. ذات ليلة، بعد أن أنشد لها قصيدة «وصف الحُمى» للمتنبي، رأى في المنام أنه يتجول في لندن متحدثاً مع الجميع بالعربية، والكلّ يفهم كلماته، ويجيب عليه بالعربية أيضاً. للحظة خاطفة، في قلب ذلك المنام، نسي أهل لندن لغتهم الإنجليزية كأنهم لم يعرفوها يوماً!

في منام آخر رأى نفسه يتحدث مع ماري بالعربية وهي تجيبه بلغة لا يفهمها. ماري لا تعرف غير الإنجليزية، تحفظ بعض عبارات فرنسية (عاملة إيرلندية في ليفربول كانت عشيقة رجل فرنسي)، وحفنة كلمات لاتينية وعربية علّمها إياها في سهراتهما قرب المدفأة، وهذا كل ما تتقنه. فما هذه اللغة التي تحدثه بها الآن؟ في المنام وجد نفسه يبحث بين قواميس المكتبة عن قاموسٍ يشرح له كلماتها.

منام ثالث، ونتوقف عن وصف المنامات: في حانة في البول مول*، شمس قوية تدخل من النوافذ، شمس صفراء ـ بيضاء قاسية. الضوء يلمع كالشفرات على الأكواب والمنضدة. المكان فارغ. وحده يجلس مع سجائره. لا يدخل أحد من البوابة الخشبية المواربة. لا يحدث شيء. عبر الزجاج يظهر الرصيف، صندوق بريد مطلي بالأبيض والأزرق، كلب أسود يعبر في ظلال شرفات المبنى المقابل، وورق بلوط يتطاير فوق حجارة الشارع. المنظر يدفعه إلى إنشاد

* The Pall Mall.

قصيدة قديمة يعرفها من أيام قصر باز في دير القمر. قصيدة من ثمانية أبيات لشاعر أميركي تُوفي سنة 1832. يعرف كلماتها كلمة كلمة. يفتح فمه، يحرك عضلة لسانه، لكنه لا يسمع صوته. يحسب أنه سمعه الضعيف يزداد ضعفاً. لا أحد في الحانة لذا لا حاجة للخجل، يقدر أن ينشد بأعلى صوته. فليفعل ذلك! يفتح فمه سعيداً، وينشد. لكن أين الصوت! الصوت لا يخرج من فمه! قد صار أخرس!

تهزّه ماري من كتفه، تضع يدها على رأسه، تسأله:

ـ ما بك! كنت تصرخ في منامك! هل رأيت كابوساً؟

يسألها ـ وهو يغمض عينيه ويفتحهما ـ ماذا كان يقول.

تمسح العرق عن جبهته. تقول:

ـ لا أعرف. كلمات إنجليزية وعربية. لم أفهمها. لا أدري. ربما لم تكن كذلك. أعتقد أنك كنت تنادي أحدهم. لا أعرف. هل أصنع لك شاياً؟ هل رأيت كابوساً؟

*

يضع رأسه على كتفها. يشمّ رائحتها. ينام في لحظة. في الخارج يتواصل طنين لندن الليلي الخافت. عند الصباح تتناهى إليه دقّات ساعة الكنيسة المجاورة، فيكتشف أنه نام ورأسه على كتف ماري طوال الليل.

ـ 62 ـ

كان يعيش أجمل أيام حياته. كأنه في حكاية خُرافية، كأنه في منام. قال لأحد أصحابه ـ بينما ينقلان إحدى الطاولات من زاوية المطبعة إلى تحت الكوّة المكسورة الزجاج ـ إنه يستيقظ في كل صباح ممتلئاً بالطاقة رغم أنه ـ وزوجته طبعاً ـ لا ينامان الليل من بكاء إبراهام الصغير. الطفل يموت شوقاً لحليب أمه، كل ساعة يستيقظ صارخاً ويوقظهما.

أليزابت الجدّة تأتي كل ظهيرة محملةً بالطعام. تقول لابنتها ماري بين الجد والعبث إنها لم تطعمها طوال خمس سنوات (تقصد سنوات ليفربول) وإنها لهذا السبب بقيت صغيرة القدّ هكذا.

ـ شهر ويصير طفلك أكبر منك. كُلي! كلي كي تكبري يا ابنتي!

وُلد إبراهام ضخماً رغم ضآلة أمه. كيف خرج منها أمرٌ عجب. (وُلد طوله 55 سنتيمتراً، ووزنه يتجاوز أربعة كيلوغرامات.) عيناه زرقاوان كعينيها، تلك الزرقة الرمادية الواهنة، تشبه بحراً تحت الغيوم. أنفه يشبه أنف جدته أليزابت. فمه يشبه فم أبيه يوسف. وأذناه معقوفتان إلى خلف بعض الشيء.

كانت رائحته مزيجاً من الحليب والبرتقال الهندي. يوسف كان

يضحك قائلاً لماري:

ـ هذا من وحامك.

ذلك أنها قضت أشهر الحمل تطلب برتقالاً هندياً من الشجرة أمام الباب. كانت شجرة صغيرة، تحمل سبع ثمرات فحسب. أكلتها في يومين، وقضى يوسف الأيام الباقية متجولاً في أسواق لندن باحثاً عن الثمرة النادرة!

*

بلغ إبراهام شهره الخامس. ذات ليلة رجع يوسف إلى البيت حاملاً المجلة الصادرة في ذلك اليوم (مجلة بانش، يوم الأربعاء). كانت تحمل على غلافها الداخلي رسماً بقلمه: (التيمز قرب سومرست هاوس). تأملتها ماري في ضوء الشموع وحملت الطفل كي يراها.

في الليلة التالية، عندما دخل الغرفة، رأى يوسف الرسم مقطوعاً من المجلة ومبروزاً في إطار خشبي أحمر ـ بنّي، فوق رفّ المدفأة. سأل ماري كيف خرجت في هذا الجو الرطب المزعج. ابتسمت. سألها هل بكى الطفل في غيابها. حين قالت إنها لم تتركه في البيت مع المربية بل أخذته معها، غضب وقال إنها تتصرف كالأطفال أحياناً.

على العشاء ابتسم:

ـ لا تحزني.

بعد العشاء أشعل الغليون وجلس أمام المدفأة في انتظارها. جاءت وجلست قربه على الكنبة ـ السرير ذات المسند المدوّر الواحد في طرفها. وضع الغليون على الطاولة قربه، ولفّ ذراعه حولها.

قالت إن صدرها يؤلمها، صدرها ورأسها.

قال:

ـ تعرفين كيف يقودون العربات! والأحصنة مجنونة في هذا الطقس!

قالت:

ـ لست غاضبة منك بل مني. معك حق. لم يكن عليّ الخروج وهو معي.

في السرير، بينما ساعة الكنيسة القريبة تدقّ دقتها الحادية عشرة، سألها هل نامت في النهار. قالت إنها نامت ساعة واحدة ظهراً. سألها هل نام إبراهام عصراً. قالت إنه في الغالب لن يستيقظ قبل ساعتين.

عانقها من خلف. ناما في اللحظة ذاتها. مع دقّة نصف الليل أيقظهما بكاء إبراهام. قاما ضاحكين.

(رسوم)

بعد الرسم الأول أنجز للمجلات (بعد بانش ـ المجلة الذائعة الصيت ـ باتت معظم المجلات تطلب رسومه) رسوماً عديدة أخرى. كلّها بالرصاص والفحم والحبر الهندي. رسم التيمز قرب ساينت بول، رسم التيمز عن جسر وستمنستر بالورشة الضخمة القائمة إلى اليمين، رسم التيمز في تشلسي حيث اعتاد أن يصيد السمك مع رفاقه صغيراً. كان يحبّ النهر. بعد النهر أنجز سلسلة من رسوم العمارات رافقت مجموعة مقالات كتبها توماس كارلايل الشهير (قريب المستر برتراند كارلايل) صاحب «تاريخ الثورة الفرنسية». رسم مبنى مجلس العموم القديم، رسم كنيسة القديس جايمس، رسم قصر دوق مارلبورو، رسم برج لندن، رسم مركز البريد الرئيسي في ساينت

مارتن، ورسم المبنى الجديد لمصرف لندن. أُعجب توماس كارلايل برسومه، فدعاه ـ وهو المتوحد في بيته العتيق في 5 Cheyne Row, Chelsea، حيث يقضي معظم وقته في غرفة مبطنةٍ بالفلين العازل للصوت ـ للحضور ذات عصرٍ وتناول الشاي بصحبته.

كانت هذه انتصارات صغيرة مبهجة تبدو حين يتأملها ـ وهو ينظر إلى ماري تلقم إبراهام ثديها الآخر ـ كأنها جزءٌ جديدٌ يضاف إلى لوحة حياته التي ـ منذ فترة ـ باتت لوحة جميلة.

ذات أحد، لدى خروجهما من القُداس، وفي طريق العودة إلى البيت، اقترحت ماري أن يُعرّجا على ستديو الأخوة دالتون ويتصورا معاً.

قال:

ـ قد نتأخر.

قالت:

ـ لحظة فقط.

حين وصلا إلى البيت كانت المربية تنتظرهما حاملةً الطفل. حملته ماري إلى غرفة داخلية لترضعه. خرج يوسف إلى الحديقة.

أشعل غليونه. نظر إلى أرنبٍ يختفي خلف شجرة ماغنوليا، وفكر في حياته: كان يستطيع أن يرى نفسه بعد عشرين سنة من تلك اللحظة، في سنة 1877، في الصيف أو الخريف أو الربيع، واقفاً في النقطة ذاتها ينظر إلى الأشجار والحشائش، ينفخ الدخان ممسكاً بغليون كهذا الغليون (ربما هذا الغليون ذاته)، ويتمتع بنهار الأحد، بينما الغيوم تعبر سماء الجزيرة، والريح الخفيفة تتحرك في الأوراق.

كان هذا الحلم، هذه الرؤيا، شيئاً من هذه اللحظة أيضاً. لم يكن حلماً، كان امتداداً لهذه الوقفة، لنظرته إلى الأرنب يختفي ببياضه الفاتن خلف جذع الماغنوليا. كانت هذه حياته. الحياة التي صارت حياته. وبدا له الأمر غير ممكن: أن يكون قد حصل على هذه الحياة! وأن يكون قد حصل عليها بفضل سلسلة من الصدف الغريبة!

وابتسم: عبر النافذة المرفوعة فوقه كان يُسمع صوت ماري تغني للطفل كي ينام.

ـ 63 ـ

في شهره العاشر تمكن إبراهام الصغير من الوقوف على ساقيه مستعيناً بالكراسي والكنبات.

في شهره الحادي عشر مشى بخطى متدافعة قافزاً من مكتب أبيه حتى سياج المدفأة. زلقت قدمه على بلاطات المصطلى الرخامية فسقط بين يدي أمه الضاحكة.

قبل سبعة أيام من عيد ميلاده الأول تلفظ بكلمة لم تفهمها ماري ولم يفهمها يوسف، لكن الجدة أليزابت فهمتها. قالت الجدّة إن إبراهام الصغير يلفظ اسمها. وافقها يوسف في حضورها. بعد رحيلها قال لماري إن الطفل كان يدمدم فحسب. ضحكت ماري:

ـ هذه الدمدمة هي اسم أمي.

في منتصف الشهر الثالث بعد عيد ميلاده الأول، أصابته حمّى. طال المرض ليلتين. في الثالثة مات.

- 64 -

- ثمة لحظات في الحياة يُشكك فيها أعمق الناس إيماناً بأن الربّ عنده خطة لهذا العالم. هذه لحظة من تلك اللحظات.

كان الكاهن يتحدث واقفاً عند رأس التابوت الصغير. قرب يوسف جلست ماري والجدّة أليزابت وآنت هلن. في الصف خلفه رفاق في المطبعة، والمعلم بالدي، ومحررون في بانش. المقاعد الأخيرة في الكنيسة امتلأت بالخدم وبأقارب ومعارف من ستراند وفليت ستريت.

كلمات الكاهن كانت حزينة مرتجفة. تهدج صوته وهو يذكر اسم الطفل. (كان الكاهن صديقاً لآل آشبورن، سبق له أن لاعب الطفل في الحديقة الكبيرة في بيت مسز هيلانة). يوسف أحسّ بأظافر ماري مغروزة في ظاهر كفّه، وشمّ رائحة بخور يحترق، ورائحة أخرى غريبة لم يتميزها. رائحة باردة تشبه رائحة سمكة في الجليد. رائحة باردة لا يعرف ما هي. رائحة دخلت دماغه ومنعت الدموع من تبليل عينيه المشتعلتين بالنار.

حين أرادوا الخروج بالتابوت إلى المقبرة أصيبت ماري بنوبة من الهيستيريا.

وسط الصرخات سمعوها تقول إنها لن تدع طفلها وحيداً في مقبرة بين الشواهد.

كانت تتضاءل كأنها تتلاشى في الفضاء البارد. ولحظة تصرخ يتمدد جسمها فجأة، تطول ذراعها ملتفةً على التابوت، وتتحول بكل خلاياها إلى عاصفة من الطاقة: لا أحد استطاع أن يمسك بها. بدت كأنها إمرأة أخرى. مسنّة عجوز، وفتيّة معاً.

عجزوا عن معارضتها. دفنوا الطفل، إبراهام الصغير، في حديقة البيت، تحت شجرة الماغنوليا.

ـ 65 ـ

تلك كانت النهاية. انفتحت بينهما هوّة بلا قرار. كان يقترب منها فتصدّه. وحين تقترب هي منه يصدّها. بعد سعالٍ استمر للياليِ قالت إنها لا تريد إيقاظه في الليل ـ «كل ليلة هكذا» ـ وأعدّت لنفسها فراشاً في غرفة أخرى.

كان ينهض في الظلام، ويمشي في ضوء شمعة تظل مشتعلة طوال الليل، إلى غرفتها. يجدها نائمة مع ثياب الطفل الصوفية على وجهها. (ثياب خاطتها بيديها الاثنتين، على مدى أيام وأسابيع، في النهار مع طفلها والمربية والأغاني والشعاع النازل من النوافذ، وفي الليل مع طفلها وزوجها، جالسةً في ضوء المصباح ونيران المدفأة، ترفع نظراتها بين حين وآخر عن الصنارة، إلى إبراهام الصغير نائماً في المهد المبطن بالقطن الأحمر والأخضر، أو إلى يوسف غارقاً في القراءة والدخان يتصاعد من غليونه).

كان يُبعد الثياب الصوفية الصغيرة عن وجهها. يمتنع عن شمّ الرائحة الأليفة (رائحة الطفل) ويعانقها. تحسّ بلمسته. تحاول استعادة الثياب، لكن البكاء الذي أنهك جسمها لا يلبث أن يجذبها ككومة ثقيلة من الحجارة إلى أعماق نومٍ رطب.

المطر يصفع النوافذ، يسوط الأشجار، يهزّ المزراب على الحائط الخارجي، ويوسف يتنشق رائحة شعرها ويحاول ألا يبكي. (قبل أيام، في المطبعة، كاد يكسر الكليشيه بيديه العاريتين. عند استراحة الظهر تجنب الخروج مع رفاقه. وحيداً، في الفسحة المضاءة بنور الظهيرة، أحسّ الطاولات حوله ترتجف. بدت الطاولات حيوانات شرسة. بدت الجدران ممتلئة بطاقة عدائية، بروح شريرة تحدق إليه بآلاف العيون الحمراء المحتقنة. لدى عودة رفاقه خرج. ضاع في الشوارع حتى بلغ ضفاف ساوثورك الموحلة. جلس وسط أزيز الحشرات ناظراً إلى النهر الموحل. بكى حتى غابت الأشياء عن نظره. في العتمة وقف. كانت المصابيح تشتعل. مشى في النور الغازي بلا قلب في صدره. كان يتجوف).

نام معانقاً ماري. بعد فترة ـ هل عبرت ساعة، هل عبرت ساعتان؟ ـ استيقظ وحيداً في الفراش. خرج فلم يجد الشمعة. تلمس طريقه حتى المطبخ مستعيناً بنور أحمر ـ أصفر واهن يتسرب من النوافذ العالية المحجّرة. من مدفأة المطبخ أشعل شموع شمعدان فضي كبير.

لم يجدها في غرف البيت. عبر نافذة حجرة المكتبة رأى ظلاً يتحرك في الحديقة. المطر كان يملأ النافذة في خيوط كالحبال.

وجدها تحت الماغنوليا، راكعةً، متكومة على نفسها، وجذعها يصعد ويهبط، في حركةٍ منتظمةٍ كبندول ساعة، تحت الوابل المنهمر.

ـ 66 ـ

مزّق الألم أحشاءها. وصف لها الطبيب ملعقة لُودونم* صغيرة كل سبع ساعات. لم تكن جرعة كافية لروحها المكسورة**. سكنت حركة جسمها لكنها ظلت تذوب متلاشية بمياه مالحة تفور من عينيها وأنفها.

استمر هذا خمسة أشهر. ذات مساء، بينما يوسف جالس قربها على السرير، ابتسمت له. قالت إن ألم بطنها يتضاءل. تلك الليلة، بعد أرق استمر ساعات كالعادة، نام ويده تلفّها. كان يحسّ ـ ولأول مرة منذ فترة طويلة ـ أنها قد تنجو، أنهما قد ينجوان.

استيقظ عند الفجر مذعوراً لا يدري لماذا. في نومه سمع صراخاً. نظر حوله: لم تكن في الغرفة. فكّر أنها في الحمام. ثم سمع صرخة أخرى. قفز إلى النافذة. رأى الخدم في ثياب النوم. كانوا يتجمعون قرب شجرة الماغنوليا الكبيرة.

أسرع يهبط الدرج قفزاً. في الباب رأى إحدى الخادمات منطرحة على الأرض. تجاوزها متعثراً بقميصه الطويل.

---

* صبغة الأفيون.

** الجسم المريض تحمله الروح لكن الروح المكسورة من يحملها؟ (أمثال 18).

رأى أحد الخدم في الشجرة يحاول أن يفكّ الحبل. كانت تتدلى كالفزاعة، كدمية من قش، في ثوب زهري فضفاض، وعلى وجهها ابتسامة مشوهة.

ماري.

- 67 -

أخذ من البيت ثيابه وأحذيته وكتبه ومجلاته ورسومه، وبعض صحف التايمز التي اعتاد الاحتفاظ بها لسببٍ أو لآخر. أخذ أيضاً صورته مع ماري، وصورة أخرى لإبراهام الصغير في شهره الثامن محمولاً بين ذراعي جدته أليزابت.

ترك الأثاث والشمعدانات وثياب ماري والطفل وكتباً كثيرة لن يستطيع أن يجد لها مطرحاً في غرفة النزل التي استأجرها عند تقاطع تشارنغ*.

بعد أسابيع معدودة في البيت الفارغ اكتشف أنه قد يشنق نفسه هو أيضاً إذا ظلّ هنا. تلك الليلة ذهب ونام عند آنت هلن في غرفته القديمة. صباح اليوم التالي مضى إلى النزل في تشارنغ كروس وحجز لنفسه غرفة.

*

عند الظهيرة لا يذهب إلى الحانة. يمضي إلى مطعم فرنسي في كيزينغتون. يشرب نبيذاً ويأكل تونة مكبوسة بالزيت، متبلة بالحامض والمايونيز، ومزينة بالخس والبندورة وشرائح البيض والبطاطا المسلوقة. يفعل ذلك دون تفكير. ذات نهار أوصله حذاؤه إلى هذا

---

* Charing Cross.

المكان. دخلٍ فوجده هادئاً وستائر النوافذ تملأه بعتمة راكدة. جلس فجاء إليه نادلٌ. طلب نبيذاً فنصحه النادل أن يجرب سلطة المطعم الخاصة. سلطة من مدينة نيس الشهيرة.

منذ تلك الظهيرة يكرر الفعل ذاته. يمشي من ستراند حتى تشارنغ كروس. يلقي نظرة على نافذة غرفته على الطابق الثالث، ثم يركب عربة أجرة إلى كيزينغتون. يشرب نبيذاً ويأكل. في الطقس الحار يطلب نبيذاً أبيض بارداً. لما يبرد الجو يطلب نبيذاً أحمر، «كلاريت» من بوردو، لونه أرجواني داكن.

يتأخر في الرجوع إلى المطبعة. لا أحد يقول له شيئاً. المعلم بالدي ترك المطبعة وعاد إلى بلاده، إلى سكوتلندا، في الشهر الفائت. يوسف (جوزف ماندر) وَرِث مركزه.

(النزل)

عند المساء يجلس إلى النافذة. لا يشعل نوراً. يتفرج على مصابيح تشارنغ كروس، على العربات، على زحمة ناس الليل. الساعات التي تتلاشى فيها زحمة هذا التصالب قصيرة، قصيرة جداً. في ساعات الفجر الصغيرة (بين الثانية والرابعة) تظهر الكلاب من حيث لا يعلم. يراها تحت شرفات VERNONS، وحول العربات الكبيرة المغطاة بالشوادر الملونة، وفي مداخل الشوارع شبه المظلمة. يبقى هكذا، ناظراً إلى الساحة، إلى عصافير تحط على التمثال ثم تطير، حتى تدمع عيناه من السهر.

ينعس. ينام على الكرسي ورأسه على الطاولة. طاولة مهتزة القوائم، السوس أكل خشبها. يستيقظ من شعاع الشمس على عنقه،

أو من ضجة المدينة التي تستيقظ للتو.

يلتقط معطفه ويخرج. تحت، يغسل وجهه، يشرب قهوة سوداء، ويأكل فطيرة محلاة. كلّما دخل زبون إلى مطعم النزل دخل خلفه ضجيج وهواء عاصف بارد كالجليد، يقصّ عظمه قصّاً.

الوجوه حوله تؤنسه بعض الشيء. يركب عربة إلى ستراند. يتجنب النظر إلى فتحة الزقاق المفضي إلى بيته. في المطبعة لا يكتفي بتوزيع الأعمال (هذا بات حقّه الآن) بل يقوم بالحفر ونقش الكليشيهات بنشاطه القديم السابق ـ لا، بنشاط محموم أكثر. ينهي كليشيه يحتاج إلى إحدى عشرة ساعة عمل، في تسع ساعات أو أقل. أحياناً ينسى حتى استراحة الظهر.

كفّ ـ حين غطى الجليد لندن ـ عن الذهاب إلى مطعم كيزينغتون الفرنسي. رجع إلى عادته القديمة. مع أصحابه ينطلقون محاذرين الانزلاق إلى تلك الحانة العميقة ذات النوافذ المقسمة إلى مربعات بقضبان خشب مجدولة كالحبال.

يشرب البيرة، يضحك للنكات، ويدخن.

لم يستمر هذا طويلاً. أحسّ بمسافة بينه وبين رفاقه القدامى. لم يفهم السبب. أهو حزنه وشروده! أم المركز الذي تسلّمه بعد رحيل المعلم بالدي!

توقف عن الخروج من المطبعة عند استراحة الظهر. بات يجلب معه من النزل سندويشاً أو فطائر. يعدّ الشاي على المنقل قرب طاولة الحفر، ويقعد على كرسيه. يشرب شايه ويأكل. بينما ينهي غليونه الثاني بعد الطعام يسمع ضجة العائدين.

تساقط مطر غزير بعد الثلج الذي حوّل الأرض حقلاً من الجليد. في الربيع عُهد إليه بحفر كليشيهات لكتاب أساطير وقصص. رسوم الكتاب أعدّها بقلم الرصاص وحسب، سير جون تانيال*، والكتاب نفسه مترجم عن اللغة الفرنسية.

قسّم يوسف وقته بحيث ينتهي مع مساعديه من العمل في فترة شهرين. كانت الرسوم كبيرة، ومليئة بالتفاصيل. كذلك فإن يوسف كان يعلم أن السيد تانيال صاحب مِزاج وأطوار غريبة وقد يطلب تبديل كليشيه واحد وتصليحه أكثر من مرة. (كم يزعج هذا يوسف! أن يقطع ويزيل جزءاً من الكليشيه ثم يُثبّت في التجويف قطعةً أخرى من البَقْس ـ بمسمارين ـ ويبدأ بالنقش من جديد. لا يزعجه هذا العمل لأنه مُنهِك للأعصاب فقط، بل يزعجه أيضاً لأنه يذكره بتلك الأيام الأولى التي قضاها في المطبعة، أيام كان يلقنه المعلم بالدي أسرار الحرفة. كانت تلك من الأيام السعيدة. ولهذا السبب بالذات فهو يكرهها. يكرهها لأنها تُذكّره بالسعادة التي فقدها، بالسعادة التي كالرمل تسربت من بين أصابعه!).

مضى الشهر الأول والعمل يجري على ما يرام. في مطلع الشهر الثاني حضر أحد المحررين في بانش وتكلم مع يوسف حول مهمة جديدة. يريده أن يرسم للمجلة بعض المباني القديمة في مانشستر.

سأله:

ـ هل تستطيع السفر إلى هناك خلال يومين؟

---

* Sir John Tenniel. كان يُعرف بهذا الاسم رغم أنه لم يكن قد حظي باللقب رسمياً بعد. سوف تذيع شهرته سنة 1865 حين يرسم صور أليس والحيوانات رفاقها في كتاب لويس كارول الشهير.

قال يوسف:

- والعمل هنا؟

قال المحرر:

- مستر ماندر، إننا نمنحك فرصة هنا، العمل مع السفر قد يُفيدك.

(القطار)

تتابعت المناظر. أشجار وحشائش. وسهول خضراء ثم صفراء. أكواخ حجرية وطينية. نساء في ثياب ملونة مع مظلاّت بيضاء. سكة حديد مهجورة بنى عليها الوقوق عشاً. منحدر صخري، حجارته حادة ناتئة. قطيع من الماعز. أشجار صفصاف تنعكس في مستنقع. وبعد غابة كثيفة الظلال مرعى مستطيل، وخراف صفراء - رمادية. أبقار سوداء، وثور يرفع رأسه بحزمة عشب أخضر يلوكها ببطء. أغمض عينيه. ظلّ المشهد في رأسه. حركة الفكين البليدة. حزمة العشب المرتجفة. عود أخضر هش يسقط كفراشة في الهواء الخفيف. ونظرة الثور الناعسة نحو القطار الهادر، ينفخ - بلى، القطار - التراب عن جانبي السكة وأوراق البلوط تتطاير مع حبّات التراب.

ذلك الثور المليء بالنوم، بالخمود. ذلك الثور الضخم! فجأة تذكر الفيل ينزل متدلياً بالحبال من تلك السفينة الكبيرة في مرفأ برايتون.

لدى عودته من مانشستر رأى الثور ذاته (في النقطة ذاتها، مع حزمة العشب ذاتها في فمه). ضحك لذلك. أهو الثور ذاته؟ قرر أنه سيرسمه فور وصوله إلى لندن.

بعد ثلاثة أيام رأى مناماً غريباً.

(المنام)

كان جالساً على الدرج قرب سومرست هاوس يتفرج على النهر. القمر أصفر ـ رمادي في السماء، تحيطه غيوم بيضاء رقيقة. الضوء ينعكس في خطوط متموجة صفراء تحت صفحة النهر. قرب الضفة يتهادى قاربان في المياه القاتمة. المشهد برمته يشبه لوحة لأنطونيو جولي رآها قبل زمن بعيد. على جسر من الجسور ظهر ظلّ إحدى الغيوم داكناً كالتراب.

كان أحدهم يُحدِّثه، شخص يجلس على الدرجات العريضة، إلى يساره أو إلى يمينه، لا يدري.

ـ أحبُّ أن ترى شارعها. طويل ومرصوف بحصى دقيق أبيض. عن جانبيه تتوزع بيوت سوداء ـ رمادية من حجر بورتلاند. بلى، كحجارة ساينت بول، لمعتها فضية كالحة بعد المطر. وفي آخر الشارع الكنيسة. البيوت عن جانبي الشارع متطابقة في الشكل، في الحديقة المربعة، في البعد عن خط الغابات الخلفية. كأنها تتعاكس في مرآة. حتى أنك إذا عبرت الشارع ورأيت دجاجة أو بطّة أمام بوابة بيت إلى يمينك وجدت نفسك تلتفت فوراً إلى اليسار لترى الدجاجة أو البطة الأخرى! هل تصدق؟

كان يريد أن يعرف صاحب الصوت. هل هو المعلم بالدي؟ هل يحكي عن قريته السكوتلندية؟

تذكر في المنام ما قرأه في طبعة البريتانيكا الجديدة عن الدروز Druzes. اسمهم يشبه Dreux، القبيلة السكوتلندية التي ذهبت مع

الملك روبرت في القرن الثاني عشر للميلاد، كي تشارك في الحروب الصليبية. التشابه بين الاسمين، Druzes و Dreux، إضافة إلى إقامة الدروز في جبال خضراء وعرة تشبه في طبيعتها الخلاّبة جبال سكوتلندا، دفع بعض المؤرخين خطأً إلى اعتبار الدروز أبناء المحاربين الصليبيين الذين ظلّوا في الشرق بعد نهاية الحروب فتزوجوا هناك وتحولوا إلى شرقيين.

كان يتذكر المقال الطويل، ويتساءل في الوقت ذاته عن الصوت الذي يُحدِّثه: من صاحب هذا الصوت المألوف؟

استيقظ وقد نسي المنام تماماً. بعد يومين تذكره بالصدفة حين روى حفّارٌ في المطبعة نكتةً أحد أبطالها المعلم بالدي.

*

في الصيف دعته آنت هلن إلى هامبستيد. كانت مريضة، وقد فقدت تسعة كيلوغرامات من وزنها، فبدا وجهها كأنه قد تجعد وهَرِم بين ليلة وضحاها.

لم يصمد في هامبستيد أكثر من ليلتين. نزل إلى لندن.

كان ينتظره، في غرفته في النزل، منامٌ غريب آخر.

*

(العجوز والعندليب)

رأى هذا المنام بعد عصر قضاه في تصفح أعداد قديمة من التايمز. أعداد من أيام الأكاديمية. وأعداد أحدث بقليل. في عددٍ من سنة 1853 قرأ داخل مربع ـ رسم حوله علامات ـ خبراً يتعلق بحرب القُرم. (الحرب الروسيةَ ـ العثمانية التي استمرت حتى عام 1856،

والتي شاركت فيها بريطانيا ـ إلى جانب الأتراك ـ بدءاً من سنة 1854). كان الخبر عن فرقةٍ درزية من الجبل اللبناني، قوامها ثلاثة آلاف رجل، بقيادة القائمقام أمين أرسلان. فرقة يُتوقع أن تُغادر الجبل خلال أيام للمشاركة تحت راية السلطان في الحرب ضد القيصر الروسي.

في عددٍ جديد نسبياً، عدد من أول 1857، قرأ مقالاً آخر عن اضطرابات في جبل لبنان، وأحداث مقلقة في مقاطعة كسروان. أحسّ بالنعاس وهو يقرأ في الضوء المتلاشي.

تمدد على السرير الخشبي. رائحة البطانية عفونة. أغمض عينيه. تقلب ربع ساعة ثم نام. في نومه ظلّ يسمع ضجة الغرف المجاورة. دعسات في الممر. أبواب تفتح وتوصد. نوافذ تطرطق. هتافات. ثم ساد الصمت. كان يهبط إلى نوم أعمق فأعمق. ثم بدأ ذلك المنام.

كان على مصطبة خشبية، لا يعرف أين، مصطبة تشبه تلك المصاطب الأميركية التي وصفها له مرة صديقه القديم وليم شافرد. هل أخبره عنها في بيروت، أم كتب وصفها في رسالة من كونكتيكت؟ ما كان يعلم. هو أصلاً لا يعرف أين صارت أرض وليم. قبل سنوات انقطعت المراسلة بينهما. في آخر رسالة حكى له وليم عن تكساس. قال إن الأرض عذراء هناك، لم يلمسها أحد. أرض تنتظر من يفتضها وينمو معها. هل كتب وليم ذلك؟ لا يدري. كان في مكان مجهول، على مصطبة خشبية، ينظر إلى صحارٍ تمتد حتى الأفق. ثم رأى أعواد القطن تنبت أمام عينيه. ورأى كواكب القطن بيضاء تكاد تطير في الهواء. ورأى فتاتين كأنهما في لوحة، بالثياب الصفراء ذاتها، بالطرحة الكتّان السمراء على الرأس، تقطفان الموسم، تجمعان الكواكب الصغيرة في أكياس من الخيش البنيّ. فوقهما سماء زرقاء ساطعة،

وفي الأفق البعيد حائط من الشجر.

كان على مصطبة، في كرسي هزاز، وعلى ساقيه بطانية صوف بمربعات خضراء وحمراء. لم يعرف في البدء لماذا تقلقه البطانية. ثم تذكر أنه قبل زمن بعيد ـ قبل ستين سنة تقريباً ـ كان يعيش في لندن، وكان متزوجاً وعنده صبي صغير، طفل يُدعى إبراهام كما أبيه، وذلك الطفل كان ينام في مهد من الخشب الأميركي الأبيض، مهد مفروش القعر بغطاء قطن مربعاته حمراء وخضراء. أراد أن يبعد البطانية عن نظره إذ أزعجته مربعاتها الملونة بما أثارت فيه من ذكريات. لكنه رفع رأسه ـ لسعة الهواء البارد قد تؤذيه ـ وتلهى بالنظر إلى القاطفات في الحقول. كنّ داكنات اللون، عبدات، ملامح وجوههن ضخمة نافرة، لكنها ليست عدائية. وحين ينظرن إليه يبتسمن. أغمض عينيه وأخذ يتذكر زمناً قديماً قديماً. قبل أن يأتي إلى هذه القارة (هل هي أميركا؟ هل هي أستراليا؟)، قبل أن يصل حتى إلى لندن.

وتذكر الزمن القديم. كان يستيقظ في الحر والنار تلهب الجلد والخلايا تحت إبطيه. يترك البيت ساعياً إلى جرن المصطبة الحجري. ينحني والرطوبة الباردة الناعمة تلفح وجهه لذيذة من قبل أن يلمس الماء. تنزل أصابعه في الصفحة، يسمع الخبطة، ثم صفعة المياه المثلجة تحت إبطه، ثم الإبط الآخر، ثم على العنق والوجه والرأس.

يتذكر كل ذلك. يذكر لحظة راحة بعد جولة سقاية طالت ساعات. ينطرح في ظلال سنديانة قرب خيمة الوزال، شرواله ملتصق بجسمه، العرق يقطر من أنفه، وقطرات تنزل ناقطة كحبّات اللؤلؤ على رموشه، وفي عينيه. يمسح العرق بطرف كمّه الملطخ بالوحل. الشعر على يديه مبلل بالماء، متخشب قليلاً، لونه أخضر ـ رمادي من

ورق البندورة الكثيف.

ينطرح هكذا وجسمه كله يوجعه. مفاصله تتمزق وهواء العصر يأتي ويروح مجففاً عرقه، وفي لحظة خاطفة لا تتكرر يعرف أروع إحساس في الكون: إحساس شديد البساطة، إحساس بالرضى والاكتفاء (ها هو قد أنهى ريّ الجلول وأنجز عمل اليوم كاملاً) لكنه أيضاً ذلك الإحساس الذي يحتوي غموض الحياة كلّه، كلّ أسرار المجرة: ينظر إلى شتلات البندورة فرفحت وارتفعت عن الأرض، خرير الماء ـ بين جبوب الفرفحين التي تشبه السجادة ـ ينساب طرياً في تجاويف أذنيه، وهو كأنه يرى القطرات البيضاء تصعد لامعة مليئة بالضوء في عروق النبت فتنعش الورق الذي كاد يذبل من حرّ آب. يلتفت ويرى جبوب «قرص عني» تغطي أول الثلم ترتعش كأنها تفرخ ورقاً جديداً أمام عينيه. الأرض شبعانة ماءً كأنها تتنفس. يسمع صوتها ورأسه يستند إلى كفّه وكوعه يحفر جورة بين حبّات التراب الجافة في أرض خيمته. ينظر إلى أعلى الجلول، هناك حيث مساكب البقدونس والفجل، حيث اللوبياء تعربش على القصب، حيث أثلام الكوسى تفضي إلى أثلام قرع وباذنجان وخيار. كل شيء يرقص في فرح الماء. وغناء عندليب يخترق الفضاء. عند طرف الجلول شجيرات سماق بلغتها رائحة الماء طريةً فمالت ولمست بأطرافها ورق القطلب والبطم القريب. صار العندليب يصدح كأن للماء فقط. وتذكر ـ وهو عجوز على مصطبة غريبة ـ ذلك النغم الحيّ يرتفع كأنه يخترق الكون كصرخة لطيفة من أقصاه إلى أقصاه، يربط كل شيء بكل شيء، يتعرج في الأرض والسماء، متردداً كالصدى في دماء شرايينه، وفي النبض المدوي داخل رأسه (عضلاته منهكة من الضرب بالمجرفة طوال العصر)، وفي مسام جلده. يذكر النغم، ونسيم أول المساء. متى كان ذلك؟ في أي زمنٍ سحري مندثرٍ؟

فتح عينيه. كان يتوقع رؤية حقول القطن والقاطفات العبدات. رأى مربع نافذته المطلّة على تشارنغ كروس. ضوء أبيض ـ رمادي، ورذاذ خفيف يهمي دون صوت.

دون أن يعرف سبباً، سالت الدموع من عينيه.

الجزء الأخير

العالم

- 68 -

بعد ثلاثة عشر عاماً من التغرب وراء البحر، رجع يوسف إبراهيم خاطر جابر إلى بلادنا.

واقفاً على متن السفينة تمبست*، التابعة لوكالة طوماس كوك، نظر إلى بيروت تظهر في ضباب الصباح كلعبة من البيوت الصغيرة. خلفها بانت سلسلة الجبال، قممها مكللة بالثلوج. (كبرت المدينة في غيابه. السور تهدّم ثم باد. والبيوت تباعدت متكاثرةً في البريّة وعلى المدرّجات الخضراء). كان الربيع قد انتصف. والطيور تُحلق فوق سقوف قرميد جديدة، وعمارات كبيرة، بدت كالأشباح، محددةً بالأبيض، في نور الشمس الباهر.

رأى في موضع حارة الحاج عبد الله القوتلي عمارة فخمة من ثلاثة طوابق سيعرف فيما بعد أنها خان أنطون بك. (يُلقَب بالمصري، وهو تاجر أرمني جمع ثروة في أسطنبول قبل سنوات). قرب الخان، تحته تماماً، كانت أرصفة المرفأ الجديدة، وقد ازدحمت أمامها مراكب طويلة، ما لبثت أن تحركت نحو السفينة المقتربة.

---

* Tempest.

ضجة وزحمة وهتافات. (بحّارة المراكب كانوا سماسرة قادمين من قِبل فنادق المدينة لجذب السواح). أحسّ يوسف، وهو يرفع قبعته الإنجليزية لحظة، ويجفف قطرات عرق عن جبهته، أنه يصل إلى بلادٍ غريبة، بلاد لم يرَها من قبل، بلاد يكتشفها للتو.

*

خلال الرحلة من ليفربول إلى هنا، الرحلة التي دامت تسعة عشر يوماً، اعتاد لعب البريدج ـ مع بعض المسافرين ـ عند المساء. بينهم مصرفيّ بريطاني قادمٌ إلى بيروت لعملٍ يتعلق بالبنك العثماني. (بنك تأسس سنة 1856 بإدارة بريطانية). بدا هذا غريباً، رغم أن يوسف كان يتابع أخبار البلاد (في «التايمز» كما في «الستاندرد» وفي «الدايلي نيوز»)، وسمع بالطريق الفرنسية التي ستُشق لعربات الخيل بين بيروت ودمشق، وقرأ عن ازدهار مرفأ «هذه المدينة الصغيرة على الساحل اللبناني»، لكن أن يسمع ويقرأ هذه الأشياء أمر، وأن يعرف بوجود مصارف وفنادق أوروبية* في بيروت، فذلك أمر آخر!

*

بعصا أبنوس سوداء في يده، قبضتها منحوتة بشكل رأس الملكة نفرتيتي، مشى يدق خشب الرصيف خلف المكاري الذي حمل صناديقه على بغلة بيضاء. لم تكن الأرصفة جديدة كما بدت من السفينة. بعد مينا البطيخ ظهرت الصخور البحرية ناتئةً من بين ألواح الخشب، ولونها أخضر من الخزّ.

---

* أشهرها آنذاك فندق باتيستا المعروف بفندق أوروبا، تأسس سنة 1849. وأوتيل بل فو ـ المنظر الجميل ـ أنشأه أنطونيو ترمستي في السنة ذاتها، ثم باعه إلى الترجمان اللبناني نقولا بسول سنة 1855. وفي مينا الحصن بنى حبيب رزق الله، ابن الشويفات، «لوكندة الأرز».

اكتشف أن البساتين خارج باب إدريس قد اختفت تماماً. كانت البيوت تتلاصق حيث تشابكت قبل سنوات أشجار توت وتين وكروم عنب. تساءل هل سقطت بوابة يعقوب مع السور. حين تجاوز القشلة المربعة المكتملة، ظهرت البوابة بالبيت القديم فوقها. لم يتبدل فيها شيء، فقط دهنوا بعض النوافذ بالأصفر. تحت النوافذ رأى الحياكين والمُبيّضين. حين استدار ونظر إلى المقبرة التي خلّفها وراءه رأى نساءً في ثياب بيضاء، طويلة، وناصعة كالثلج، يتحركن كالأطياف بين شواهد القبور. كانت الديكة تصيح. وضجة بيروت تتصاعد رويداً رويداً. رفع قبعته مرة، ثم مرة أخرى. أخرج منديلاً أبيض مطرزاً بحرفين إنجليزيين عند الزاوية: .J.M، مسح وجهه، وأحسّ بانزعاج عابرٍ. لم يعرف السبب. ربما هي التفاتات المكاري: بين لحظة وأخرى كان الرجل المحروق الوجه يدور نحوه بعنقٍ كعنق الزرافة ويرمقه بنظرة غامضة من عينين غائرتين في محجريهما. ربما كانت هذه النظرات ما أزعجه. أو ربما كان السبب ثيابه الجوخ، البذلة الثقيلة في الحرّ. هذا الحرّ القاسي الغريب.

في مبنى المرسلين سأل عن الدكتور فانڤدايك بينما المكاري يفك الحبال التي ربط بها الصناديق. كانت ثلاثة صناديق خشبية كبيرة بزوايا مصفحة لامعة، وبسيورٍ جلدية عريضة، وبكلات نحاسية بلون الذهب.

*

قبل أن يمضي عائداً إلى المرفأ، مال المكاري على الدكتور فانڤدايك، سأله ماذا يحمل الخواجه الأميركاني في صناديقه. ضحك الدكتور قائلاً: «ثياب!».

حدّثه الدكتور فاندايك بالعربية. كانا يجلسان على شرفة بحرية تطلّ على فنادق وعمارات مينا الحصن والزيتونة. يشربان التوت المبرّد بثلج الجبال، ويدخنان أرجيلة أعدّها الدكتور خلال لحظات.

بين حين وآخر يتحدث يوسف (بالإنجليزية) فيبتسم الدكتور. أخبره يوسف عن عمله في Punch وقال إنه أخيراً قرر العودة إلى بلاده، إلى قريته*.

سأله الدكتور ماذا سيفعل في القرية؟

أشعل يوسف غليونه. لمس قبضة عصاه لحظة، ونظر إلى النوارس فوق البحر. من بيت قريب فاحت رائحة بصل وثوم يُقلى في زيت الزيتون. رائحة عتيقة كالطفولة.

قال يوسف إنه سيفعل ما كان عليه أن يفعله منذ البداية.

أخبره فاندايك عندئذٍ أنهم ـ يقصد المرسلين ـ قد يحتاجون إليه في أعمال المطبعة. كما وأنه قد يفيدهم في المدرسة، إذا أحبّ يوماً التدريس عندهم.

ظلّ يوسف صامتاً. تابع الدكتور:

* My country! My village!

ـ منذ سنة، منذ وفاة الدكتور عالي سميت*، أعمل على ترجمة العهد الجديد. لهذا السبب فقط تراني اليوم هنا، فكل القواميس في هذا المبنى.

لم يكن يوسف يستمع إلى كلمات أستاذه القديم. كان ينظر إلى العباءة العربية التي يرتديها، إلى الطاقية الكشمير على رأسه، وإلى لحيته التي طالت وملأت وجهه. حين لمس الدكتور شاربه بينما يلتقط إبزيم الأرجيلة بشفتيه أحسّ يوسف ـ لبُرهة خاطفة ـ بأنه قد عاش هذه اللحظة من قبل.

*

سأل الدكتور عن آل هاميلتون. أخبره أنهما رجعا إلى أميركا قبل سنوات. سأله عن آل طمسون. أخبره أنهما في قبرص، رحلة قصيرة، ويرجعان بعد أيام. سأله عن الياس فواز. قال إنه في صيدا، عندهم مركز جديد هناك. سأله عن الشيخ محمد العود، هل يذكره، الرجل صاحب المتجر في سوق الدباغة؟

ابتسم الدكتور فانديك:

ـ ما يزال في متجره، تقدر أن تذهب وتراه بعد الظهر. لا أعتقد أنك ستضيع. رغم هذه الثياب!

*

في قلب المدينة أحسّ أن الأشياء لم تتبدل كثيراً. الأزقة على حالها. البيوت ـ الرملية الحجر** ـ أيضاً. أوساخ في القنوات، وبعر ماعز على التراب. لم يكن ذلك يزعجه. لم تكن هذه وساخة. إنها

---

* تُوفي في 11 كانون الثاني 1857.

** من مقالع المصيطبة.

الحياة هنا. أكل ودباغة وصلاة وشرب في زقاق. وهذه المدينة الصغيرة التي أحبّها دوماً لم تتبدل كثيراً. لا، لم تتبدل، لكنه هو تبدل.

اقترب من رجلٍ يبيع أرغفة خبزٍ وبيضاً مسلوقاً. تكلم ببطء. بدت الأصوات الخارجة من فمه عادية. كأنه يحكي مثل أهل البلد. لكن وجه الرجل كان مبتسماً وهو يمدّ إليه الرغيف بالبيضة المقشرة. (كان يوسف يتأمله وهو يقشر البيضة بظفرٍ ماهر، وحركة اصبع سريعة، ويتساءل هل يذكره؟ هو يعرف هذا الرجل. قبل زمن بعيد كان. . .).

فكر في رفع قبعته. ربما إذا رأى شعره الأبيض يتذكر. لم يرفع قبعته. دفع للرجل قرشاً ومضى في طريقه. الرجل لم يعرفه. حتّى الدكتور فاندايك لم يعرفه في البداية!

*

توقف في ظلال الجميزة قرب السراي. كانت الساحة مزدحمة بالباعة والعابرين. رفع رأسه وانطلق عبر السهلات نحو الهضبة القريبة. يريد أن يتفرج على البيت في الأشرفية.

لم يجد البيت القديم. كان متأكداً من موقعه. سبيل الماء قبله بعشرين متراً ما يزال حيث هو، بالقنطرة الحجرية المكسورة التي يعرفها. هنا، في هذه البقعة، قبل سنوات بعيدة، بين صفّين من الصبير الشائك اضمحلا بامتداد العمران إلى هذه النقطة، هنا، في هذه. . . كانت حبال الأفكار تتقطع داخل رأسه: كان يتذكر ذلك المساء، تلك الليلة، لمّا عاد من حفلة عشاء مع المسز هاميلتون، تلك الرائحة التي أرّقته آنذاك، رائحة مفقودة الآن ولو استعادها لما عنت شيئاً!

أحسّ بالتعب. جلس على صخرة محاذراً تمزيق بنطلونه. تفرج

على القصر الجديد بالحجارة الصفراء والقرميد الأحمر المثلث. هنا كان بيت هاميلتون. هنا ـ حيث نبت هذا القصر لا يعلم متى ـ عاش قبل ثلاث عشرة سنة! أكانت ثلاث عشرة سنة فقط؟ أما يزال حقاً في السادسة والعشرين من عمره! وكل الذي حصل له، حصل في حفنة سنوات! لكنها نصف عمره!

كان منهكاً حتى الموت. فكر أنه عجوز، عجوز، عجوز أكثر من أبيه الشيخ إبراهيم، عجوز أكثر من جدّه خاطر.

استعان بالعصا كي ينهض. في زلعومه تحرك شيء يشبه حجراً، صعوداً ثم نزولاً. رفع يده اليمنى، وضعها على صدره.

فجر اليوم التالي صعد إلى الجبل.

- 70 -

(عودة)

كانت الساعة العاشرة وعشر دقائق بتوقيت الساعة الذهبية في جيب صديريته.

ترجل يوسف عن الحمار، طلب من المكاري الشاب صاحب الحمير الثلاثة أن ينتظره لحظة، ونزع قبعته. بخطى قصيرة صعد الطلعة الترابية. في يدِ القبعة، وفي الأخرى عصاه. صباطه الأسود والأبيض جرحته الحجارة ولطّخه الغبار. نظرته الأولى وقعت على الشواهد البيضاء في ظلال أشجار التوت إلى يمينه. حول الشواهد رأى زهور «تم السمكة»، صفراء وبنفسجية وزرقاء، ترتعش في هواء أيار. في زاوية إحدى الجلول رأى بقايا ثلج ملطخة بالوحل.

نظرته الثانية عانقت المشهد بأسره: القبو بالدجاجات في مدخله وبقفص قصب ازدحمت فيه حجال بريّة. بيت العقد بالعرائش المرفوعة فوقه، عرائش لم يرَها من قبل. والمصطبة الحجرية في زاويتها الجرن القديم ذاته وفي الزاوية المقابلة حوض نبتت فيه شجرة خوخ عمرها أربع أو خمس سنوات.

كان المكان غارقاً في السكون، وشعاع الشمس يقع أبيض ـ أصفر على حصى الدار. (لكن يا له من سكون عميق معتق لا يُوصف! كأن

هذا الجبل المسحور لم يعرف صخباً وعنفاً منذ أن خلق الربّ العالم!). من القبو المظلم (لاحظ فجأة أن القبو منزوع الباب، أن القبو بلا باب!) خرج ديك حبش تتبعه بطّتان. في اللحظة نفسها سمع نعيق طائر في السماء. كان نعيقاً حاداً لم يقطع الصمت بقدر ما زاده عمقاً ورسوخاً إذ تلاشى في اللحظة التالية.

تقدم نحو المصطبة. الدجاجات نظرت صوبه. في الجل القريب، وراء شجرة الشربين والحائط القصير، تحركت بقرة سوداء ضخمة. أين أهل البيت؟

كان الباب مفتوحاً. الظلّ تقدمه قصيراً حتى العتبة. رأى مداساً جلدياً، قربه قبقاب خشب. وقف في الباب. كان عليه أن يلقي التحية، أن يسعل أو يهمهم. لكن الصمت الكبير منعه. انتبه عندئذ أن البيت لا يغرق في عتمته القديمة. العتمة التي يعرفها يوسف جيداً. عتمة قِبب العقد الطويل. في لحظة واحدة أدرك سبب ذلك وأبصر جسماً صغيراً مكوماً على الأرض. البيت لم يكن غارقاً في الظلام، لأنه قد تبدل، إذ فُتحت بوابة في جداره العميق. البوابة كانت مواربة. وفي الضوء ـ ما أسهل أن تعتاد عيناه على هذا الضوء الرقيق ـ القادم من خلفه، والمتسرب من البوابة البعيدة المواربة، رأى يوسف أن الجسد الذي رآه مكوماً على الأرض هو جسدان: رأى فتاة ـ في السادسة أو السابعة ـ تحتضن طفلاً وتُطعمه خبزاً تبلّله في قصعة مليئة باللبن. شكّه المنظر كإبرة في قلبه. (على السفينة أيضاً، حين رأى أمّاً ترفع طفلها وتلفّه بشالٍ قطني، أحسّ بألم حادٍ تحت أضلاعه). فكر أنها ـ والطفل ـ من عائلة أخته نسب وزوجها معز الدين. قبل أن يتكلم سألته من هو.

ـ من أنت؟

تقدم خطوة، بات في بيت الطفولة، قال:
ـ أنا خالك، أمك نسب أختي.
عبست الفتاة ثم ابتسمت. مدّت ساقها اليمنى وتململت فوق الحصيرة.
ـ نسب ليست أمي. نسب عمتي.
للوهلة الأولى لم يفهم.
ـ نور الدين أبي.

أبوها! كم عمره الآن؟ آخر مرة رآه كان ولداً، في السابعة أو الثامنة؟ بلى، ذلك ممكن. لكنه لا يدري لماذا لم يفكر في هذا. ابتسم: هو لم يفكر في أي شيء. في اللحظة التالية تلاشت ابتسامته. عاد إليه تعب روحه. ثم جرب أن يبتسم للفتاة. (لماذا تمدّ ساقها هكذا، ولماذا تتقلص عضلات وجهها كلّما حرّكتها؟).

ـ أنا عمّك يوسف، أبوك نور الدين هو أخي الصغير.
ـ أنتَ عمي يوسف؟

*

اكتشف منها أن أخته وزوجها والأولاد انتقلوا إلى حاصبيا قبل سنوات. حين انتبهت الفتاة أنّه يحدّق إلى ساقها (كانت حمراء ـ بنّية، متجعدة ومشوهة من فوق الركبة حتى الكاحل) قالت إنها أحرقتها بالماء. قبل أن يسألها عن اسمها قالت إن أهلها في الجلّ وراء البيت يشتلون بندورة. وضع قبعته وعصاه على الفرشة المطوية لصق الجدار، ألقى نظرة على المداس، ثم تراجع خارجاً.
قالت:
ـ اذهبْ من هنا! أقصر!
كانت تشير بإصبعها إلى البوابة في عمق البيت. مشى الأمتار

القليلة والرائحة القديمة القديمة تعبق في رأسه. رأى الكوّة في الجدار بستارتها المربعة الصغيرة البيضاء. (أهي الستارة القديمة ذاتها؟). تذكر حكاية الثعبان وجده خاطر. عندما بلغ البوابة انتبه إلى سرير الحديد بالفرشة السمراء فوقه: كان ذلك كالمنام! أن يرى هذا السرير بعد كل هذه السنوات!

من البوابة خرج إلى مصطبة طويلة بأحواض نعناع عن الجانبين، وبئرٍ مطوقة بحائط دائري قصير، وثلاث شجرات كرز بحبٍّ زهري ضارب إلى الحمرة وسط خضرة الورق الداكنة. تساءل هل سيعرفه أخوه. فكر أنه لن يعرفه. (أخر مرة رآني كان طفلاً).

في طرف جلٍّ عريضٍ، تحت شجرات دراق وتفاح، رأى رجلاً، في شروال أسود وقميص أبيض ومنديل حول عنقه، ينحني بسطل حديد على ثلم غير مزروع. تحت يديه، على جانب الثلم، رأى شتلات صغيرةً، جذورها ملفوفة في قماشة رطبة. من خلف شجرة الجوز - التي كبرت وانتشرت ظلالها في غيابه - ظهرت إمرأة مكتنزة في تنورة كحلية طويلة، وقميص أبيض ملطخ الكمين بالوحل، وجديلة سوداء لامعة تتدلى حتى أسفل ظهرها. كانت حافية مثل الرجل، وبلا منديل على شعرها ووجهها. توقف يوسف عند حافة المصطبة. نادى على أخيه من بعيد:

- نور الدين!

رفع الرجل رأسه. رأى يوسف الوجه، أسمر يلتمع بالعرق. كانت ذقنه خفيفة، لونها مائل إلى الشُقرة. تبادلا النظرات عبر الحقل المغمور بالشمس. كان الضوء يلمع على الثمر. من بعيد تناهى خرير ساقية.

لم ينظر يوسف نحو المرأة. لكنه سمعها تسأل أخاه شيئاً. وفي

اللحظة التالية علا صوت نور الدين:

ـ هذا أخي! أخي! أخي يوسف!

*

رمى نور الدين السطل من يده. (اندلقت المياه على التراب وعلى الشتلات الخضراء الصغيرة). قفز فوق الأثلام المزروعة راكضاً نحو أخيه يوسف. عانقه، قبّل كتفيه ورأسه، ثم بكى.

ـ 71 ـ

في الأيام التالية احتفل نور الدين برجوع يوسف. ذبح خروفين سمينين، وسبع دجاجات، وخمس بطّات. بينما تصاعدت رائحة صنوبر يُقلى في السمن الحموي، بدأ أهل القرية بالتوافد للتسليم على العائد. في اليوم الأول باغتوا يوسف لابساً ثيابه الإفرنجية. بعد ذلك استعار ثياباً من أخيه: الشروال الأسود، القميص الأبيض، الصديرية السوداء بلا أزرار، الطاقية البيضاء، والمداس السختيان.

(البنون والطرش والرزقات)

مثل يوسف، كسر نور الدين تقليد آل جابر المتوارث في الزواج المتأخر: يوسف تزوج ابن ثلاثة وعشرين، ونور الدين تزوج وهو لم يبلغ الخامسة عشرة بعد. كانت زوجته تصغره بسنة، من آل بركات في وادي التيم، اختارها له الشيخ معز الدين الطويل، زوج أخته نسب. خلال سبع سنوات رُزِق نور الدين خمسة أولاد: توأمين (صبي وبنت لا يتشابهان أبداً) سمّتهما نسب: إبراهيم وسارة. (قال لها نور الدين: أنتِ سمّي!). ثم فتاة سمّاها نور الدين نسب، ثم صبياً طلب معز الدين أن يسمياه خاطر فأُسمي خاطر، وبعده صبياً آخر أرادت أمه أن تسميه محمد على اسم أبيها لكن نور الدين قال «نسميه يوسف، والصبي بعده محمد».

سارة هي البنت التي رآها يوسف، بطل قصتنا، لدى عودته إلى بيت الطفولة في ذلك الصباح. كانت قد حرقت ساقها بينما تساعد أمها على غلي الغسيل.

يوسف الصغير، يوسف الرابع، هو الطفل الذي كان في حضنها، يتناول ـ وهو نصف نائم ـ لقماتها المغمسة في اللبن الفوّاح الرائحة.

إبراهيم، الأخ التوأم لسارة، والذي يشبه نور الدين كأنه هو، يقضي معظم النهارات في الوادي، يصحبه أخوه خاطر الذي يبكي كلّما شكّت شوكة في اصبعه.

أما نسب، الطفلة التي ولدت بعد التوأمين بسنة، فقد ماتت قبل أن تُكمل عامها الأول على هذه الأرض.

*

قبل سنوات بادت نصف قطعان القرية والجوار بالطاعون. الطرش الذي نجا من الوباء نجا لأنهم أخرجوه من الجبل. معز الدين قاد الطرش بمعونة نور الدين إلى وادي التيم. عندما انحسر الطاعون رجعوا بما تبقى من خراف وماعزٍ وأبقار.

تلك الرحلة جعلت معز الدين يفكر في العودة إلى أرض أبيه وأجداده والاستقرار هناك.

حين وُلد خاطر قال لنور الدين:

ـ صارت عائلتك كبيرة، لا تستطيع أن تبقى في القبو مهما كان دافئاً أو نظيفاً. ثم أن البيت بيتك. وأنا أرضي ليست هنا.

أجابه نور الدين:

ـ أنت أبي بعد المرحوم، ماذا تقول؟

قال معز الدين:

ـ أنت أغلى على قلبي من أولادي. لكن آن الآوان.

أخذ نصف القطعان. كانت حقّه: هو رَعَاها وكَثَّرها وَحَفَظَها. لم تأخذ نسب من البيت شيئاً. فقط طلبت من نور الدين أن يُعطيها صندوق أبيها الدمشقي الكبير: كان الصندوق عزيزاً عليها.

بكى نور الدين وهو يُقبّل العائلة مودّعاً: معز الدين ونسب والأولاد. (بينهم صبي يحمل اسم ابنه وأبيه). زوجته أيضاً بكت لكنها أسرعت إلى نقل الفراش من القبو إلى البيت ما إن غابوا وراء سروات المقبرة.

*

أخذ نور الدين أخاه يوسف في جولة على الرزقات. سأله يوسف عن الزريبة، الزريبة التي كانت وراء البيت، متى هدموها؟

قال نور الدين:

ـ لم نهدمها. تهدمت في إحدى العواصف. معز الدين أكمل عليها، وبنى بحجارتها الجلول تحت بلاطة البيدر.

في الوادي، ذات صباح، بينما يتفرجان على إبراهيم يُخرج الخراف من الزريبة، وخاطر ـ الذي لم يبلغ الرابعة بعد ـ يقفز حوله كحمل أضاع أمه، سأل يوسف نور الدين عن الخالة حبوس.

ـ ماتت. من زمان.

سأله عن بنات أخته سعاد، الصغيرة دنيا ماذا حدث لها، هل تزوجت؟

ـ وعندها سبعة أولاد.

ابتسم يوسف ثم ضحك. سأله نور الدين:

ـ وأنت؟ لم تتزوج أبداً؟

كذب يوسف قائلاً:

ـ لم أتزوج.

سأله نور الدين:

ـ كل تلك السنوات، وحدك في بلاد غريبة، ولم تفكر في الرجوع إلى بيتك وأهلك؟

قال يوسف:

ـ لكني هنا.

لفّ نور الدين ذراعه حول كتفه:

ـ كنا نخاف أن يكون حدث لك شيء.

نظر يوسف إلى الأرض، ثم إلى إبراهيم بين الخراف. أضاع خاطر الصغير في أمواج الصوف الأصفر ـ الرمادي. قال:

ـ أين خاطر، أين الولد؟

ضحك نور الدين، أشار إلى شجرة تفاح لصق حائط الزريبة الذي نبتت الأعشاب بين حجارته.

رأى يوسف الولد خاطر في الشجرة، يقضم تفاحة حامضة، ويعبس، ثم يضحك.

*

ذلك العصر، بينما يشربان القهوة على المصطبة، قال:

ـ اسمع يا أخي يا نور الدين، أريد منك خدمة.

قال نور الدين:

ـ اطلبْ! أمر!

قال يوسف:

ـ أنا لا أعرف الناس هنا. وأريد منك مساعدتي. أريد قطعة أرض. في هذا الجوار. لأبني عليها بيتاً. وأريد شراء حقل، على مقربة من البيت الذي سأبنيه. لست غنياً. في إنجلترة لم أجمع ثروة. لكني أستطيع أن أشتري أرضاً وأبني بيتاً وأعيش من الزرع وتربية القزّ. هذا ما أريد.

ضحك نور الدين:

ـ أنت تمزح.

قال يوسف:

ـ لا، هذا ما أريد.

هتف نور الدين:

ـ تشتري أرضاً وكل هذه الرزقات لك؟

قال يوسف:

ـ هذه رزقاتك.

قال نور الدين:

ـ أنت أخي الكبير يا يوسف. حين كنتُ طفلاً أدبّ على أربعٍ وأسقط فوق بحص الدار كنت تركض وتحملني، وعلى جروحي تكبس الطيّون. هل أنا بلا أصل كي أنكر أخي؟

فكر يوسف أنه لا يعرف شيئاً عن هذا الرجل الجالس على الحصيرة قبالته. كاد نور الدين ـ من إرتجافه جسمه ـ أن يسقط الركوة والفناجين بينهما.

قال يوسف:

ـ اهدأ! لا تغضب هكذا! من اعتنى بالأرض كل هذا الوقت؟ لولاك كانت يباساً وبوراً! لم أقصد غير هذا.

قال نور الدين:

ـ تبني بيتك حيث تريد. هنا، جنب القبو إذا أردت.

تذكر يوسف غرفة يوسف الأول. بدا أن نور الدين يفكر في الأمر نفسه، إذ قال في اللحظة التالية:

ـ أو حيثما أردت. عند بلاطة البيدر؟

قال يوسف:

ـ عند بلاطة البيدر.

انفرجت أسارير نور الدين:

ـ موسم الحرير نقطفه في شهر، ثم نبدأ العمار! قلْ إن شاء الله!

ـ 72 ـ

ساعدهم على تقطيع التوت (الورق والأغصان) للقزّ الخارج من صيامه الثالث ـ الصيام ما قبل الأخير. بعد أيام، وقف جنب الأولاد، وتفرج على القزّ يعربش على الوزال ويبدأ بلفّ شرانقه. كان القبو يفوح برائحة التراب، والتوت، والقاذورات التي «صفّتها» الدودة من جوفها قبل أن «تُشيِّح» على الوزال.

في النصف الثاني من حزيران ابتاع الشرانق أحد التجار القادمين من صيدا. في أول تموز أحرقا الشوك عند المنحدر، بين بلاطة البيدر العالية وجلول الفواكه الواطئة، وباشرا بتقصيب حجارة البيت. كان يعاونهما أولاد أختهما سكينة يأتون من الباروك كل فجر ويغادرون قبل المغيب بساعة. في أواخر آب ذهب يوسف إلى دير القمر وأوصى على قرميد للسقف.

لم ينتهِ أيلول إلا وكان قد نقل صناديقه من البيت العقد إلى بيته الحجري الجديد. كان ذلك ثالث بيت يُسقف قرميداً في القرية والجوار، بعد بيت الشيخ خطار بك العماد (سيد العرقوب)، وبيت الشيخ قاسم أبو سلمان العماد (صاحب نصف أراضي كفرنبرخ).

- 73 -

مطلع تشرين الأول تساقطت زخّة بَرَد قضت على بقايا الشتلات الخضراء. كان الشتاء يبدأ مبكراً. جعلوا ينزلون إلى الوادي كل صباح للتحطيب. هو ونور الدين وإبراهيم. خاطر كان مريضاً. خرج ذات ليلة كي يقضي حاجته أمام القبو فأصابته نزلة برد. طال مرضه أسبوعاً ثم شُفي. في هذه الأثناء أخذت الأمطار تنهمر كل يومين أو ثلاثة.

ليلة الجمعة يبقى يوسف وحيداً. يمضي نور الدين مع بِكره إبراهيم إلى الخلوة، وتصعد زوجته مع باقي الأولاد (سارة وخاطر ويوسف) إلى المجلس في «دار المير». هذه ليلة القراءة في «الحكمة»، والصلاة. يحتار يوسف ماذا يفعل في هذه الساعات. في بيته ينظر إلى الكتب حوله. البريتانيكا في جانبٍ (مجلداتها مرصوفة حسب أرقامها، حروف غلافها مذهبة تلمع في الظلام). ومؤلفات شكسبير، وغوته في ترجمة توماس كارلايل، وهوميروس، في الجانب الآخر. يشعل شمعة أو قنديلاً، يلتقط الإنجيل عن الطاولة التي نَجَّرها بنفسه من جذع سنديانة، ويفتحه على سفر أيوب. يضجر في لحظة. لا، ليس ضجراً. لا يعرف ماذا يحسّ. ينظر إلى غلاف الكتاب.

هذه النسخة ابتاعها من أوكسفورد ستريت سنة 1855. كان يريد أن يهديها إلى آنت هلن. أحبّها (أحبّ الطبعة الفاخرة الثمينة) بحيث لم

يتمكن من التخلي عنها. أهدى آنت هلن بدلاً منها مجموعة أشعار لكولريدج.

انحنى قليلاً (هذا الكرسي الهزّاز ابتاعه من سوق الإفرنج - سوق حديث قرب بوابة السنطية القديمة - مع خزانة صغيرة بثلاثة جوارير) بحيث يقع الكتاب في دائرة الضوء الأصفر، وأخذ يقرأ - على صوت عالٍ - العنوان الطويل على الصفحة الأولى:

The Holy Bible, conteyning the Old Testament, and the New: Newly Translated out of the Originall tongues & with the Former Translations diligently compared and reuised, by his Maiesties speciall comandement. Appointed to be read in Churche. Imprinted at London by Robert Barker, Printer to the Kings most Excellent Maistie. Anno Dom.1611.

وتحت العنوان:

The King James's Bible

New Edition-Clarendon

وفي الأسفل:

Clarendon Press

OXFORD 1783

*

ينتعل مداسه ويخرج. يمشي محاذراً الانزلاق على العشب أو الوحل. يقطع الجلّ، يتسلق الحائط الصغير، ويقف تحت الشربينة. دار البحص بيضاء كالثلج الأغبر في ظلام هذا الخريف. لا أحد في البيت. لن يرجعوا قبل ساعة أو ساعتين.

بالبطانية على كتفيه، يجلس تحت أشجار التوت، بين الشواهد. ينظر إلى القناديل في القاطع المقابل، توج عبر الضباب المتصاعد من الوادي.

نقيق ضفادع، غناء جنادب، وعواء واويّة. الهواء بارد على وجهه وعلى رأسه العاري من طاقية أو قبعة. يتلمس قدميه. تشققتا بسرعة. جلده رقّ، من الاعتياد على الجوارب، جوارب القطن، وجوارب الصوف. هنا لا أحد يلبس هذه الأشياء. خلّص قدميه من المداس. لمس جروحه المتربة.

أخذ يتلهى بعدّ القناديل البعيدة. غيوم هذه الليلة غطّت نجوم السماء. قبل فترة ـ في الصيف ـ كان يتمدد ليلاً على سطح بيت العقد ويضيع بين الأنوار البيضاء ـ الزرقاء التى يستحيل عدّها. لكن الخريف أتى، ومعه الشتاء المبكر، والنجوم تبددت من القبّة السوداء.

أخذ يغني مترنماً. في نصف الأغنية انتبه إلى الأشباح على الطريق الترابية. للوهلة الأولى حسب أنه نور الدين عاد مع ابنه باكراً. بعد لحظة تأكد أنهم أربعة. كانوا يحملون بواريد وألقوا تحية المساء عليه.

ـ أنت يوسف الانجليزي؟

لفظ كلماته ببطء كي يأتي جوابه صحيح اللهجة:

ـ اسمي يوسف جابر. بلى، عشت فترة في إنجلترا.

سمع همسات، ثم قال الصوت نفسه:

ـ سمعناك فعرفناك، ماذا كنت تقول؟

اقتربوا خارجين من العتمة. كان قد وقف باحثاً بقدمه عن المداس

الذي خلعه. فكر أنهم أخوة.

ـ كنت تقول قصيدة، أليس كذلك؟
هزّ رأسه.

ـ أين أهل الدار؟ هذا بيت الشيخ نور الدين.

قال يشدّ البطانية حول نفسه:
ـ صحيح، هذا بيت أخي.

نظروا نحو البيت الغارق في الظلام.
سألهم:
ـ تعرفونه؟ أنتم من كفربُرك؟

قال الصوت (هو ذاته، لا أحد غيره يتكلم، لا بد أنه أكبرهم، وقد يكون أصغرهم، كيف له أن يعلم؟):
ـ هذه قريتنا.

بدا الصوت مهدّداً. قال يوسف:
ـ تشربون زهورات؟ تشربون قهوة؟
ردّ الصوت:
ـ عندنا دور حراسة الليلة.

كانوا ما يزالون ينظرون إلى البيت الموصد. نظر حيث ينظرون. بدا البيت كأنه يتحرك، كأنه فيل ضخم يستيقظ من النوم. ربما أحسّ

هكذا بسبب من حركة العرائش بورقها الأخضر المصفر يتساقط على السطح.

كان قد سمع بنشوب معارك في كسروان وامتدادها إلى المتن بين حين وآخر. لكن هنا، حراسة ليلية هنا، لماذا؟

قال الصوت:

ـ اقعدْ. لماذا تقف؟ اقعد ونحن نقعد أيضاً. تفضل!

جلس على التراب. أسند ظهره إلى التوتة. الهواء البارد أنعسه. لم يكن خائفاً منهم. كان قد نسي تلك الحدّة في عبارة «هذه قريتنا». فكر أنه توهم نبرة تهديد فيها. فكر أنّه أحسّ هكذا لأنه ببساطة وحده في الدار، وكل أهل الدار في...

حين فتح عينيه انتبه إلى ضحكات ـ وأصوات أولاد ـ تقترب. تذكر فجأة الرجال الأربعة! هل رآهم حقاً، أم أنهم أتوا إليه في المنام؟ ميّز في الظلمة الأشباح الهابطة من «دار المير». المنديل حول الرأس، أبيض كبيضة. ثم سمع ضحكة سارة، تلتها ضحكة خاطر.

*

تلك الليلة رأى أنه يمشي في لندن ليلاً وكل المصابيح مطفأة. تعثر بغطاءٍ مجرورٍ وسقط على وجهه. طوال الوقت، طوال الفترة التي استغرقها المنام، كان يسمع صوت إبراهام الصغير ينادي عليه من العتمة في كلماتٍ متقطعة مبحوحة تشبه تلاثغ الأمواج.

استيقظ وأظافره مغروزة في باطن يديه.

ـ 74 ـ

كان يسنّ الموس ليحلق ذقنه عندما سمع إبراهيم يناديه.

خرج ونظر إلى الجلّ فرآه واقفاً رافعاً ذراعه اليمنى وعلى رأسه القبعة الإنجليزية القديمة*.

هتف إبراهيم من تحت:

ـ أبي يقول: انزلْ وتروق كشكاً معنا.

(نور الدين يضحك)

بينما يأكلون الكشك والبصل الأبيض قال يوسف:

ـ بالأمس زارني رجال يحملون بواريد.

قال نور الدين:

ـ في بيتك؟

ابتسم يوسف:

ـ في المقبرة، تحت التوتات.

ضحك نور الدين:

---

* أعطاها له في منتصف الصيف، بينما يقطفون تفاحاً، لتحميه من الشمس. اعتمرها إبراهيم ساعةً ثم قال: «تحرق جلدة الراس كالطربوش». نزعها وتابع: «ألبِسها في الشتاء».

ـ كم رجل؟

قال يوسف إنهم كانوا أربعة، يتشابهون كأنهم أخوة، واحد يتكلم وثلاثة خرس.

ضحك نور الدين:

ـ عرفت نصف الحقيقة. ثلاثة أخوة، والرابع أبوهم.

قال يوسف:

ـ تعرفهم؟

قطع نور الدين «رغيف مرقوق»، دفع نصفه إلى يوسف، نفخ على البخار المتصاعد من القصعة، وقال:

ـ هؤلاء رجال الشيخ خطار. يحرسون الخلوات منذ حادثة المناصف. الأب أصله من حوران. كان يعرف المرحوم أبي. يسمّونه ملحم القصبة.

قال يوسف:

ـ بدا كأنه من عمرهم.

قال نور الدين:

ـ عمره ستون سنة وأكثر! ويحمل المحدلة بيد!

قال يوسف مبتسماً:

ـ وحدّثني بالإنجليزية كالإنجليز.

انفجر نور الدين ضاحكاً.

ـ 75 ـ

(الشتاء)

غطّت الثلوج المنحدر، غطّت الجلّ، غطّت الأشجار والتلال البعيدة. كان يسمع صوت انزلاقها، في كتلٍ ضخمة رطبة، عن السطح. تنزلق على القرميد، تهوي، وتخبط الأرض تحت النافذة. في الليل يوقظه الصوت من النوم، وفي النهار يؤنسه برتابته.

حين تتباعد الغيوم يشعل ناراً خارج الباب. ينتظر الحطب حتى يتحول جمراً. يجمع الجمرات وينقلها في كانونٍ صغيرٍ إلى الداخل. يجلس على الكرسي الهزاز. ينظر إلى الضوء الأحمر المرتجف. يشم رائحة صمغ صنوبر يشتعل.

معطفه الإنجليزي الثقيل يذكره بالبيت في ستراند. يخلعه ويلتف بعباءة. ليس الطقس بارداً. الشمس دخلت من النافذة.

ينتعل جزمة ويعبر صفحة الجلّ البيضاء إلى المصطبة وراء بيت العقد. البوابة موصدة. يدور حول البيت. تتساقط عليه كتل ثلج من الشربينة بينما يقفز فوق الحائط القصير. الباب الأمامي موصد أيضاً. التعريشة ناخت تحت الثلوج. إحدى التوتات تحطمت أغصانها،

تكسرت فوق الشواهد، ثم تغطت بطبقة من الثلوج. البرد يلفّ قدميه. البخار يخرج من أنفه وفمه مكوّناً غيمة أمام عينيه، الدرفات الخشبية كلّها مقفلة، قاتمة.

اقترب من الباب. سمع صوت سارة ثم صوت أمها. وبكاء يوسف الرابع. ثم نور الدين يلاعب خاطر. رفع يده كي يقرع الباب. كانت سارة تحكي لأمها شيئاً، وسمع ضحكات. لم يقرع الباب.

تراجع عبر دار البحص المغطى بالثلج حتى بلغ التوتات، وقف لحظة هناك ثم قفل عائداً إلى بيته. رأسه يغرق بين كتفيه.

في البيت فتح كتاب «دليلك إلى فن التصوير». أخرج منه صورته مع ماري، بخاتم ستديو الأخوة دالتون مطبوعاً في الزاوية.

فكر أنه ليس في الصورة. فكر أنه لم يعد هو. وتذكر سفر أيوب: «عيناك عليّ ولستُ أنا. السحاب يضمحل ويزول. هكذا الذي ينزل إلى الهاوية لا يصعد».

*

أخرج غليونه وكيس تبغه. من أشهر لم يدخن. استخدم القداحة والفتيل. حين اشتعل التبغ، تنهد. نظر إلى الصورة مرة أخرى ثم أعادها إلى الكتاب. بحث في الكتب الأخرى (قلب نصف الرفوف على الأرض) حتى عثر على صورة إبراهام الصغير بين ذراعيّ جدته أليزابت.

استرخى في الكرسي. وقع نظره على كومة الحطب في الزاوية. تذكر ـ لا يدري لماذا ـ ذلك اليوم في المطبعة: وحده والطاولات ترتجف كحيوانات ضارية حوله.

أغمض عينيه. داخل رأسه عبرت سنوات، وجوه، مدن، أشجار، سفن، لوحات، كلمات، كتب، قطارات، أصوات، عيون، مجلات، أنهار، كليشيهات نصف منقوشة، سمكة تسبح في الزيت، ضباب ينفثه التيمز فجراً، ممر طويل وراء وستمنستر كولدج أرضه مغطاة بأوراق البلوط اليابسة، ظلال وصور. فتح عينيه: النافذة المربعة بلوحها الزجاجي، وأبعد منها: شجرة عارية من الأوراق، أغصانها حمراء ـ بنيّة مبقعة بالثلج. كان المطر قد أخذ يهطل. سمع الثلج يذوب. خلال لحظات ضجّ الكون بالهدير.

تمدّد تحت البطانية. الجزمة مقلوبة على الأرض. حين انتبه إليها ـ بدت ميتة ـ كاد يبكي.

ـ 76 ـ

في أول شباط وصلت أخبار من كسروان: طانيوس شاهين ورجاله طردوا مشايخ آل الخازن من بيوتهم.

بعد أسبوعين علت فرقعة بواريد. انطلق يوسف نحو بيت العقد. وجد نور الدين وإبراهيم وأم إبراهيم واقفين على المصطبة في سحابة من دخان البارود. وسط الدار، منطرحاً على الثلج، رأى خنزيراً برّيًّا يسبح في دمٍ أحمر ـ أسود.

قال يوسف:

ـ فكرت أن. . .

قاطعه نور الدين:

ـ إنه الجليد اللعين! يخرجها من جبال الباروك! البارحة بقر خنزيرٌ بطن صبي في بريح فقتله. ادخلْ! ادخلْ من هذا الصقيع!

*

في الداخل، بينما يأكل مربى تين وينظر إلى خاطر نائماً في الزاوية، تذكر شتاءً قديماً وأحسّ أنّه يعيش في منام.

ـ 77 ـ

بينما يتفرج على البساتين تنفجر بلون الزهر الأبيض (ليس أبيض واحداً، أبيض يتبدل من شجرة إلى شجرة، من حقلٍ إلى آخر، في تدرجات لا نهائية)، والثلوج قد ذابت تماماً من أراضي الجلول وبقاياها انسحبت إلى ظلال حيطان الدكّ والزوايا العميقة، بينما هواء آذار الدافىء يهبّ على الجبل، بدا له أن الحرب لن تحدث، بدا له أن كل شيء سيجري على ما يرام. (عندئذٍ نسي ما قاله له ابن أخته سكينة أواخر الربيع الفائت، وهما يتفرجان على هذا المنحدر قبل أن يعمروا البيت، قال له ـ وهو الرجل الثلاثيني صاحب العائلة ـ بصوتٍ حزين محذر: «أسوأ الأوقات يا خالي! أسوأ الأوقات! اخترت أسوأ الأوقات للرجوع!» كان الرجل يكبره بسنوات، وكان يناديه «يا خالي»، فأحس أنه ـ فعلاً ـ قد بات أكبر من سنواته).

وصلت علب بزر القزّ بعد أسبوع. ساعده نور الدين على تركيب الأخصاص في علية القرميد الخشبية. فوق، في الظلمة الخفيفة، بينما يتنفسان بصوت مسموع، سأله:

ـ ألا تفكر في الزواج يا يوسف؟ بنات الحلال كثيرات!

التفت يوسف. بعد قليل ابتسم وسأل نور الدين لماذا يريده أن يتزوج.

أجاب نور الدين:

ـ ولماذا لا تتزوج؟ في جبلنا إثنان لا يتزوجان، راهب أو صاحب خلوة! أنت حتّى لا تذهب للقراءة ليلة الجمعة!

الضوء القادم من الكوّة كان يقع على جذع نور الدين. بدا ضخماً في ظلمات العلية، بين جسور الخشب المتشابكة المتقاطعة كأنّها نسج العنكبوت.

قال يوسف:

ـ أنت على حق. لكن أولاً يجب أن أتعود على...

قاطعه نور الدين:

ـ تتعود على ما تريد لكن تزوج قبل ذلك. لا أحد يتعود وهو وحده. بيتك كبير وكل أغراضك لن تملأ زواياه: الولد يا أخي بهجة!

هزّ يوسف رأسه. لم يقل شيئاً. نزل على السلم الخشبي إلى البيت، ثم خرج إلى البرّية.

مشى ومشى ومشى. حين بلغ تلال عين وزين دار حول نفسه وتابع المشي. عند المغيب دخل بيته. كان يعلم أن نور الدين قد خرج: السلم كان قرب التينة.

ـ 78 ـ

منذ سنوات، أخبره نور الدين، يُفقس الجميع بزرهم في مدخنٍ في طرف القرية. منذ بُني المدخن ما عاد أحد يُفقس بزره تحت الوسادات أو فوق سطول الماء الساخنة*.

ذهب يوسف إلى المدخن. دخل الغرفة الدافئة. رأى نار الحطب الصغيرة. تفرج على الدود يخرج من البزر فيغطي ورق التوت الأخضر حتى يسوَد الورق تماماً. من النافذة المفتوحة دخل هواء رائحته زهور وعسل.

بعد خمسين يوماً كانت علية القرميد في بيته وزّالاً مغطى بثلج الشرانق. شرانق بيضاء في معظمها، وبعضها أبيض ـ ذهبي، أصفر أكثر منه أبيض، صلب، ولمعته تخطف البصر. (الشرانق الناصعة البياض من بزر إيطالي. الذهبية من بزر فرنسي). الموسم في كل كفربُرك، في كل الجبل، جاء ممتازاً. كان قد اشترى كمية بزر صغيرة ليجرّب بها: السنة القادمة، عندما تكبر أشجار التوت التي زرعها في الوادي، سيشتري ثلاث أو أربع علب، ويُعمر بيتاً للقزّ قرب التينة.

---

* ذكر العلامة القزويني (القرن الثالث عشر للميلاد) أن النساء كنّ يملأن أكياس شاش بالبزر ثم يضعنها في صدورهن فيفقس دود القزّ.

زرع في الوادي بندورة ولوبياء. جيرانه في الحقل من آل عَزْبي، يملكون جيوشاً من قطعان ماعز نهمة تتسبب بخلافات لا تُحصى مع المزارعين: فلان قضت الماعز على شجرات تفاح طرية صغيرة زرعها قبل شهرين، وفلان هدمت الماعز حيطان جلوله بتكرار عبورها من هناك في الرواح وفي الإياب، وفلان اجتاحت الماعز - كالجراد - بورةً يزرعها كوسى وخياراً فمزقت النبات وداسته وتركته للشمس واليباس.

قال نور الدين ليوسف:

- حظك عظيم. حقلك جنب حقولهم وهم لا يسرحون بماعزهم إلا أبعد ما يكون عن زرعهم. أنت محمي.

*

كانوا يأتون ويجالسونه في خيمة الوزال تحت الجوزة. (رمى وزالاً من الجلّ التحتاني إلى فوق، وأسند بعض القصبات إلى أغصان الجوزة المتدلية، ثم وزع الوزال على القصبات صانعاً حاجزاً مائلاً يمنع شمس ما بعد الظهيرة من افساد الظلال تحت الشجرة الوارفة).

يتشاركون كسرة الخبز وحبّة الزيتون، يسألونه عن البلاد وراء البحار، ويشربون الزهورات، أو النعناع المغلي، مع عسل. يلفون السجائر ويقدمون له سيجارة. يساعدونه في «ترديد» الشتلات:

يحركون العروق الطرية إلى هذه الجهة أو تلك بحيث تتغطى حبّات البندورة المكشوفة لشعاع الشمس، يرتبون الشتلة جيداً، وحين يكون ورقها ضئيلاً يقتلعون عشباً من الأرض لتغطية العروق الخضراء ذات الوبر الأبيض، ولحجب الثمر الأزرق عن شعاع الشمس الحارق. (إذا ضربته الشمس بقّعته بالبنّي).

تعلم «الترديد» بسرعة. كان لا يتعلم شيئاً جديداً بقدر ما يتذكر أشياء قديمة لقنه إياها أخوته في زمن الطفولة ثم نسيها بتعاقب السنوات وغياب الممارسة.

عند العصر يحين دوره في السقاية. أحدهم يصعد إلى «قناة المير» لـ «تفليت الهارب».

يهتف ليوسف من الأعالي بصوت ضاحك:

- القنا للإنجليز! اركضوا!

يراه منحدراً مع المياه، بالمجرفة تكاد تطير فوقه. يساعدونه في الريّ، ويساعدهم. في ضوء الغروب يرى رقع العشب قد يبست، فصارت صفراء فوق الشتلات الخضراء اليانعة. يا له من لون أخضر! تلك القتامة التي تضيء، كأن النور يسري مع الماء في عروق النبت!

ينطرح جنب الثلم منتظراً وصول المياه إلى آخره. العشب النابت في الأرض، و التيّل البري، وجبوب الفرفحين، تبطىء من جريان الماء. يركع، وبيديه، يقتلع جبوب الفرفحين، ثم يرميها خلفه. التيّل كارثة، جذره عميق متعرج في الأرض، يسحب ويسحب ويسحب، جذراً طوله يقارب المتر ونصف المتر.

يضع الفرفحين في السلة. أم إبراهيم تصنع منه فطائر. تفرم

الأوراق مع بصل، وتمزجها بالسماق والملح. لا يحبّ هذه الحشوة كثيراً. لكن سارة تفرح كلّما ظهر في الدار بسلّة فرفحين في يده.

منتصف الصيف شحّت المياه وبدأت المشاكل: فلان فتح «الهارب» عند الفجر ودوره ينتهي ظهراً، لكنه يقول أنه فتح «الهارب» بعد الصباح بساعتين ودوره لا ينتهي قبل العصر! فلان آخر يقول محتداً إن الحقّ ليس عليه، الدور دور، وكل واحد يمشي على النظام أو تضيع الطاسة! هل تعطش شتلاته لأن الشيخ غرق في النوم وتأخر في فتح «الهارب»؟ وثالث يصرخ من القاطع المقابل يسأل أين صارت المياه؟

رغم هذه العراقيل استمر حقل يوسف الإنجليزي (هكذا سمّاه جيرانه) يخضر ويعلو حتى بدا ـ من جلول السفح ـ سهلاً من الخضرة الكثيفة: من فوق كانت خطوط التراب بين الأثلام غير ظاهرة. الشتلات تضخمت بحيث تشابكت الأثلام بعضها ببعض. أخضر فوق أخضر فوق أخضر.

قال له نور الدين:

ـ يدك خضراء. وحقلك لم يُزرع من سنوات وكل خيره فيه. سنة مباركة! قلْ يا ربّ!

ابتسم يوسف:

ـ من زمان لم يفرحني منظرٌ هكذا!

نادى عليهما نصّار عزبي من تحت السنديانات، عند السفح:

ـ القهوة على النار.

ثم اختفى في الظلال.

نهض نور الدين قائلاً:

ـ يحبونك. انتبه!

قال يوسف:

ـ انتبه؟

ضحك نور الدين:

ـ بيوتهم حارة بنات.

قال يوسف:

ـ يعني؟

خبطه نور الدين على كتفه:

ـ فعلاً صرت ابن إنجليز، ورأسك غليظ! يطلبون المصاهرة يا أخي. وأنت شعر أبيض ومسلك مستقيم وبيت قرميد وأرض خضراء! فهمت؟

قال يوسف:

ـ نقعد إذاً، ومن دون القهوة!

ضحك نور الدين:

ـ تعال يا جبان! لن يُغصبك أحد على زواجٍ لا تريده! تعال!

انتعل يوسف جزمته ونهض. كان يتلفت كل لحظة، ينظر إلى الأثلام، ويسرح بنظره حتى طرف الحقل حيث عربشت فروع اللوبياء على العيدان والقصب.

بينما رائحة القهوة تفوح أحسّ بانشراح لا يُضاهى. في اللحظة التالية هبط عليه الحزن، أقسى من صخرة.

ـ 80 ـ

أنضجت الشمس، من بعد رياح الخماسين الفظيعة، كل بندورة الساحل، ثم أحرقت الشتل.

بدأ المكاريون وتجار الخضار يتوافدون على كفربُرك كل مساء، لشراء البندورة الزرقاء القاسية المُلوَّحة*، ونقلها خلال الليل إلى بيروت. في الصباح، حين يعرضونها في السوق قرب المقابر القديمة، على بعد أمتار من بوابة الدباغة، تكون قد احمرت من دفء الجو.

كانوا يشترون بندورة يوسف بسعرٍ أغلى من بندورة الآخرين. الحبّات في حقله مدوّرة صلبة كبيرة كأنَّ نحاتاً قد نحتها بيديه. على السلال ـ فوق حبّات البندورة ـ يبسطون ورق قرعٍ أو تين.

في السوق يعرف التجار سلاله فوراً. بات يوسف الإنجليزي مزارعاً معروفاً في سوق الخضار.

في منتصف آب صعد الدكتور فاندايك لزيارته، وأخبره أن الياس فواز سمع عنه من تجار الخضار في صيدا!

---

* يختارونها مخطّطة باللون الوردي ـ الأحمر.

ـ 81 ـ

كان الدكتور قد سأل عنه في الدار (دار المرحوم الشيخ إبراهيم جابر) فعلم أنه يعيش في بيت منفردٍ قريب، ثم علم أنه ليس في البيت، وأنه في الوادي كل نهار، من الصبح حتى المساء.

دلّته سارة وهي تعرج ـ بعض الشيء ـ على الطريق. لو كانت تعرف أنه أميركاني لكانت قادته كل الدرب إلى قعر الوادي. لكنه ـ كعادته ـ كان في العباءة العربية والمداس السختيان.

يوسف، بسمعه الضعيف، لم يسمع الدكتور يصرخ له. (بعكس أهالي الجبال ينده الدكتور بصوت منخفض، فهو ابن مدن حيث الفضاء محصور). لكن نصّار عزبي سمع النداء فردّده على الفور بأعلى صوته.

رفع يوسف رأسه والسلة في يده. رأى رجلاً في عباءة طويلة ولحية بيضاء. للوهلة الأولى أصابه الذعر. أفزعه «الشبح» الذي ظهر فجأة من وراء الجوزات. للحظة ـ لحظة لن يفهمها أبداً ـ داخ يوسف وفقد كل إحساس بالمكان والزمان: كان يقف بين شتلات خضراء، وكان يرى أباه الشيخ إبراهيم منحدراً بصمت، عبر ضوءٍ كالضباب.

ـ 82 ـ

استمرت «هجمة البندورة»* حتى الأسبوع الثالث من آب. في هذه الآونة بدأت ظروف اللوبياء تمتلىء بالحبوب.

قال نور الدين:

ـ ما شاء الله! ما شاء الله! من أول سنة!

قال يوسف:

ـ الله رَزَق.

قال نور الدين:

ـ سنة خير على الجميع. وجهك نور على ضيعتنا.

ابتسم يوسف:

ـ نسيت الثلجة والخنازير!

(منام)

الخنزير الذي رآه سابحاً في الدم، على ثلوج «دار البحص»، كان يتسلل إلى مناماته من حين إلى آخر. يرى نفسه واقفاً إلى نافذة بيته يتفرج على شحرورٍ أسود فوق التينة. هل هو شحرور أم غراب؟ بينما يتساءل حول حقيقة الطائر تبدأ الثلوج بالتساقط. تسقط البراعم

* وفي تعبيرٍ عاميٍ «دبكة البندورة»، وهي فترة القطاف الكثيف الوفير.

الخضراء، تسقط الزهور البيضاء، تسقط الأوراق الصفراء ـ الحمراء. يختفي الطائر الأسود في سماء سوداء. يرى الثلج من نافذته يغطي التينة، يغطي المنحدر، يغطي الجلّ العريض: الأرض والجوزة الكبيرة وأشجار الفاكهة. ثم يظهر الخنزير. خنزير ضخم كفيل صغير، بقرنين نابتين عن جانبي فمه. حوافره تُشوّه الصفحة الملساء، الناصعة البياض، والدم يُنوفر من عنقه.

تتلطخ صفحة الثلج بالدم. يريد يوسف أن ينظر بعيداً، نحو التلال أو السماء. المهم أن ينظر بعيداً. لكنه يسمع الحيوان المجروح. يسمعه ويراه. المشهد لا يخيفه. المشهد يُجوّفه، يُفرغه من الأحاسيس، يُحوله إلى حطبة يابسة. لا يريد أن يكون حطبة يابسة، لكنه أيضاً لا يقدر على النظر بعيداً! إن عنقه جامدة، كأنه تمثال من رخام!

في لحظة رعب كامل يظهر إبراهام الصغير في كنزة صوفية حمراء طويلة يدبّ على الثلج، وأمه ماري ـ في ثوبها الزهري الفضفاض القديم ـ تركض خلفه ضاحكة. الاثنان، ماري وإبراهام، لا يريان الخنزير الآتي من خلفهما. يخبط يوسف الزجاج، يصرخ لهما، يقفز، يتجاوز أدغال شوك وحيطان دكّ مهدومة، يلتقط عصا عن الأرض، ويدور في الجلّ العريض باحثاً عن الخنزير. لا يجده. يبحث عن الطفل وماري. لا يجدهما. يقعد على الثلج. صفحة بيضاء نظيفة ليس عليها غير آثار قدميه.

*

بات الشغل قليلاً. ساعة ريّ أو ساعتان، والقطاف مرة كل ثلاثة أيام. الغيوم تملأ السماء ثم تتبدد. يأتي إبراهيم أحياناً ويجلس معه تحت شجرة الجوز. يسأله عن القطار، أو البواخر، أو تلك «الحيوانات الغريبة التي تعيش هناك».

في بعض الأيام لا ينزل إلى الوادي حتى العصر. يقطف ورق شاي أخضر* من الحوض، ويشعل ناراً لتسخين إبريق الماء. بينما يشرب الشاي تخطر في باله قصيدة لكيتس. يغني لعندليب في «كنت» البعيدة، يشرب الشاي، وينعس في ظل الجدار.

أواخر آب ينقلب الجبل: يتصادم مكاريٌ درزيٌ مع آخر مسيحي في بيت مري في المتن على دور حميرهما في شرب الماء من القناة، فتبدأ معركة لا تنتهي قبل سقوط ثلاثين قتيلاً!

* جلب له الشتلة الدكتور فانديك هديةً من حديقة المرسلين.

- 83 -

وقعت حادثة بيت مري في 30 ـ 31 آب. قُتل فيها تسعة عشر درزياً وأحد عشر مسيحياً. حين بلغ الخبر الشيخ يوسف بك عبد الملك (مقاطعجي الجرد) هاجم برجاله قرى المتن المجاورة. أحرق بيوت المسيحيين وقتل جماعة منهم.

عن سطح القشلة في بيروت، رأى وجيهي باشا عواميد الدخان ترتفع فوق الجبل. صعد بجيشٍ تركي مزودٍ بالمدافع. نصب معسكراً في سهل المديرج، قرب ظهر البيدر، وفرض السلام على الجبل*.

لم يكن سلاماً. كان تأجيلاً للحرب. خرجت البواريد من المغاور. امتلأت القرى بنظرات التهديد، وبالهمسات.

(لفحة الصيف)

كانوا ينتظرون «هجمة البندورة» الثانية في نصف أيلول عندما ظهرت تباشير المرض على النبات. بدأ ظهور النقاط الصفراء على

* أورد صاحب «الحركات في لبنان» أن وجيهي باشا فرض على الدروز دفع تعويضات للمسيحيين الذين حُرقت بيوتهم فتقدم الشيخ سعيد بك جنبلاط وقام بدفع «الثلاثة والثلاثين ألفاً من ماله الخاص وأعطى بها حوالة على أحد الصيارف في بيروت».

ورق الخيار أولاً. ثم على ورق الكوسى. لكن المرض سرعان ما انتقل إلى شتلات البندورة القريبة. كانت أطراف الورق تصفر وتذبل، ثم يبدأ الصفار بالانتشار من الأطراف نحو المركز، حتى تذبل الورقة كلّها وتموت. خلال أيام معدودة قضت «اللفحة» على حقول البندورة في كامل كفربُرك. كان المرض يحرق الشتل كنارٍ بطيئة خَفِّية، لكن ثابتة القوّة، ومركّزة، وقودها الشتل الأخضر ذاته. يبست الحقول.

كانوا يجتمعون تحت «سنديانات آل عزبي»، أو في خيمة نور الدين القريبة من «صنوبرات الشحار»، أو تحت «جوزة يوسف الإنجليزي». يشكرون الربّ لأن اللفحة لم تأتِ في أول الصيف، ثم يتراجعون ـ هكذا، بين لحظة وأخرى ـ عن حمد الربّ، ويتساءلون لماذا لم تتأخر اللفحة شهراً آخر أيضاً، لكانوا ربحوا موسماً ثانياً. يستمر التراجع لحظات: قبل أن تبرد الأكواب في أيديهم يعودون إلى حمد الله على نعمه وبركاته، فقد جنوا موسماً وفيراً في آب، وتُجار بيروت اشتروا بسعرٍ عالٍ هذه السنة، لأن الخماسين والرطوبة أنضجت كل بندورة الساحل دفعةً واحدة.

يشرد يوسف على وقع كلماتهم ـ على وقع العبارات المكرورة التي تُقال بصوت عالٍ يبدو راضياً مُسَلِماً لكنه يخفي في باطنه الحزن والخيبة ليباس الحقول ـ ويترك نظره يسرح في البحر الأصفر، الذي بالأمس فقط كان يموج بخضرته البديعة. القسوة في هذا المنظر لا توصف. يعرف أنه مثلهم، لا يحزن لضياع موسم آخر، بقدر ما يحزن لأن كل هذه الحياة قد اصفرّت هكذا في لحظة وماتت، اضمحل الروح منها وهي في عزّ العطاء. قد لا يعرفون هذا في أعماقهم، أما هو فيعرف. وحين تشرد نظراتهم، هم أيضاً، ويسكتون معاً في لحظة، بين رشفتي زهورات، بين كلمة وكلمة، يدرك أنهم يفكرون

مثله، يدرك أن الحزن يخرج من بحر الشتلات الصفراء ويتسرب مع الهواء الساخن إلى رئاتهم وقلوبهم. يتحولون من الداخل إلى حقول صفراء!

ويقول أحدهم:

ـ ابن الجبل محاصر من الجانبين: لفحة الصيف ودَبَلان الربيع*.

ويقول آخر:

ـ الله يعطي والله يأخذ. قلْ يا رب!

ويسكتون.

---

* «لفحة الصيف» ما يُصيب الخضار من صُفرة مبكرة سببها فطر سريع التكاثر. أما «دَبَلان الربيع» فالمرض الذي يصيب دود الحرير قبل أن يلف شرانقه بيوم أو يومين. يُسمى «الموت الأصفر». وهو عبارة عن مرضين إثنين هما: وباء الذبول (وسببه ميكروبات تنتشر في أمعاء الدود فتقضي على شهيته للطعام وتقتله خلال خمس عشرة ساعة) وداء التيبس (وسببه فطر مكروسكوبي في جسم الدودة يحوّل لونها إلى أحمر خمري ويقتلها بينما تشرنق أو خلال تحولها إلى زيزِ داخل الشرنقة). سنة 1855 قضى «الدَبَلان» على حرير لبنان.

ـ 84 ـ

في الخريف بات نور الدين يختفي لأيام، ثم يرجع ببغاله محملةً تبناً. داخل التبن أكياس جنفيص ملفوفة بالحبال، ثقيلة كالرصاص.

في عتمة بيت العقد يفرد كيساً على الأرض: من شرنقة الجنفيص المظلمة تظهر بواريد وبلطات منقوش على خشب قبضاتها علامات وتواريخ تشهد على مشاركتها في معاركٍ عديدة: السمقانية سنة 1825، بحرصاف سنة 1840، دير القمر سنة 1841، حمانا سنة 1845.

في المساء يظهر رجالٌ من بين السروات أعلى الطريق. في الليل قد يراهم يوسف يدورون حول بلاطة البيدر ثم يتسللون إلى الجلّ العريض. نور الدين ـ قبل أيام ـ نبّه عليه ألا يعترض دربهم: «هؤلاء منا»، قال له.

كان تشرين الأول ينتهي، وأحسّ يوسف أن الهواء الذي يتنفسه قد تغير.

(عرض فاندايك)

زاره الدكتور فاندايك ثانيةً. جلسا تحت التينة، يشربان الشاي الأخضر، والأرجيلة تقرقر في صمت البرايا. طيور الوروار تظهر من

فوق بيت العقد وتختفي في الشرق فوق الخلوات القديمة.

قال الدكتور:

ـ تأخرت في هجرتها أكثر من شهر.

قال يوسف:

ـ نسيت أن تهاجر في عيد الصليب*.

قال الدكتور:

ـ ربما أحبّت المناخ.

سكتا. أخرج الدكتور من تحت عباءته كتاباً غير مجلد. ابتسم يوسف. (في المرة السابقة أخرج من تحت العباءة شتلة شاي ملفوفة في قماش!). أخذ الكتاب. كان هذا ترجمة «العهد الجديد».

قال يوسف:

ـ انتهيت؟

ردّ الدكتور:

ـ قبل أسبوع.

سأله يوسف:

ـ وبدأتم طباعته؟

هزّ الدكتور رأسه أن لا.

بعيداً، بين الأشجار، ظهر خاطر يطارد حملاً. تعالى ثغاء الحمل في الفضاء.

* 14 ـ 15 أيلول: موعد سماء الجبل مع أسراب الوروار الكثيفة في هجرتها السنوية.

قال الدكتور:

ـ نحتاج إليك. الدكتور سميث رحمه الله صنع 1500 قالباً للحروف في اسطنبول. لكننا لا نستطيع استخدام أكثر من نصفها. وهذا النصف نصفه معطوب. كذلك الخطوط غير مناسبة. والأهم...

سكت الدكتور لحظة، ثم تابع:

ـ الأهم الحركات. نحتاج إلى صناعة قوالب للحركات: الضمة، الفتحة، الكسرة، الشدّة، السكون، الهمزة الممدودة، كل هذا لا نملك له القوالب الضرورية.

قال يوسف:

ـ هذا ليس عملاً لشخص واحد. الكليشيهات شغلٌ مضنٍ.

أجابه الدكتور:

ـ أعلم، أعلم. عندنا عمال مهرة، لكن من يصمم القوالب؟ أنت أخبرتني عن عملك في لندن، وأنا فكرت فيك.

قال يوسف:

ـ دعني أفكر في الأمر.

ضحك الدكتور فانديك. رشف شاياً من كوبه ثم نظر إلى جمرة الأرجيلة تكاد تنطفىء، وقال:

ـ خذْ كل الوقت الذي تحتاجه، من هذه اللحظة حتى تكف الجمرة عن الاحتراق!

*

ـ 85 ـ

كان نور الدين عائداً من وادي التيم. جاء إلى يوسف في الليل. قال له:

ـ أختك نسب تُقبل وجهك. وصهرك معز الدين يدعوك لزيارتهما وقضاء أسبوع أو أسبوعين. طقس حاصبيا حلو في الخريف، يقول لك.

قال يوسف:

ـ الأميركان يريدون أن أساعدهم في المطبعة.

قال نور الدين:

ـ في بيروت؟

ضحك يوسف:

ـ في بيروت طبعاً.

ضحك نور الدين أيضاً، ثم قال:

ـ ليس غريباً أن أسأل. ربما طلبوك من أميركا. أنت والبحر عُشْرة عُمر.

سمعا فرقعة بواريد في القاطع المقابل. أصاخا السمع. قال نور الدين:

ـ بدأ موسم السُمَن ودجاج الأرض.

قال يوسف:

ـ صيد؟

ابتسم نور الدين:

ـ كلّه صيد.

قال يوسف:

ـ سأنزل بعد يومين. إذا احتجت بيتي استخدمه.

ضحك نور الدين:

ـ حليفنا الإنجليزي!

(الليلة الأخيرة)

في الصباح الذي سبق نزوله دعاه نور الدين إلى زيارتهم في المساء في بيت العقد كي يراه الأولاد.

قال ليوسف:

ـ لأنهم إذا دخلوا بيتك خربوه كماعز آل عزبي؟

*

انتعل يوسف المداس وفتح الباب وخرج. كان يحسّ بدوخة خفيفة. (شرب ظهراً بعض النبيذ الأحمر، ابتاعه قبل أيام من بيت الدين). انحنى على بطنه: أمعاؤه تتحرك وقلبه ينبض سريعاً. تراجع إلى داخل بيته القرميدي. تراخى على الكرسي الهزاز. بعد لحظات سكب ما تبقى من نبيذ الظهيرة وأشعل غليونه. كان النبيذ جديداً قوياً، طعمه لاسع على اللسان وعلى الحنجرة. لكن طعم التبغ وازَنه ـ البارد ثم الساخن ـ وفي العتمة الشفافة سكن جسم يوسف فنسي أن عليه النهوض.

حين دفع نور الدين الباب رأى أخاه منطرحاً في الكرسي، وقربه شمعدان فضي كبير يضيء بشموعه الثلاث صوراً مبعثرة على الأرض.

كان يوسف يشخر ورأسه يميل على الكتف البعيد. اقترب نور الدين. ركع على ركبة واحدة. جمع الصور في يده، ثم ألقى اليد الأخرى على ركبة أخيه.

فتح يوسف عينيه، قال:

ـ نمت!

قال نور الدين:

ـ طبعاً نمت! إذا كنت أنا قد أيقظتك فأنت بالتأكيد قد نمت.

ضحك يوسف. بيديه على متكأي الكرسي رفع جسمه. انتبه إلى الصور في يد نور الدين.

سأله:

ـ الأولاد ناموا؟

قال نور الدين:

ـ لا. ينتظرونك.

قال يوسف:

ـ هيا.

قال نور الدين:

ـ لا. يودعونك فجراً. أنت متعب الآن.

قال يوسف:

ـ آه يا نور الدين!

وتراخى مرة أخرى.

(نور الدين)

حين كانوا يبنون هذا البيت ـ حيث يجلسان الآن تحت ضوء الشمعدان الإنجليزي في عتمة الجبل الخريفية ـ تفرج يوسف مع أبناء أخته سكينة على نور الدين يركع على ركبة واحدة ثم يرفع عتبة حجرية على ظهره. عتبة يعجز جمل عن حملها. كان الرجل يملك في أعضائه قوّة أجداده لأمه الخرافية. مع مرور الأيام اكتشف يوسف أن نور الدين كان يملك أيضاً طيبة هؤلاء الأسلاف غير المتناهية. تلك الليلة ـ نصف سكران ـ امتلأ قلبه بالحزن لأنهما سيفترقان. تلك الليلة ـ رغم كل الحزن الذي زاده قرباً من أخيه ـ لم يعترف أمامه بكل شيء. كان هو نفسه، ولكنه كان أيضاً ذلك الآخر، الإنجليزي الغريب، في آنٍ معاً.

*

جلب نور الدين الجرّة. رمى ما تبقى في الكوب من نبيذ، ثم ملأه بالماء.

قال ليوسف:

ـ خذْ، اشربْ! سأعمل لك يانسوناً.

شرب يوسف المياه. كانت باردة لذيذة. قال:

ـ لا تعمل يانسوناً. تعال! انظرْ!

كانت الصور على طاولة السجائر الصغيرة قربه الآن. التقطها.

قال لنور الدين:

ـ انظرْ! سألتني لماذا لا أتزوج! هذه زوجتي، اسمها ماري، في العربية مريم! انظرْ هذا ابني، اسمه إبراهام، مثل إبراهيم! وهذه جدته اليزابت، أم ماري، تعمل طبّاخة عند آنت هلن. هكذا كنت أسميها، آنت، معناها عمتي. انظرْ، في هذه الصورة: هذه آنت هلن، اسمها هيلانة آشبورن، كنت أسكن عندها خلال سنواتي الأولى في لندن. وهذا الذي قربها هو اللورد آشبورن، بفضله حصلت على جوازٍ انجليزي. وهذا قرب البوابة جوناثان البستاني، كان يعلمني كيف أشذب الشجر. وهذه ـ في الخلف ـ انظرْ إلى العربة ـ هذه العربة كانت تأخذني إلى...

سكب نور الدين كوب ماء آخر. أخذ الصور من يد يوسف. وضعها على الطاولة من جديد.

قال:

ـ خذْ! اشرب بعد! وجهك بركة عرق.

نظر حوله، رأى منديلاً على كرسي مبطن بالجلد، فخم كالكراسي في قصور الملوك. جذب المنديل وجفف جبهة يوسف.

في الخارج تعالى عواء الواوية.

قال يوسف:

ـ تركتهم هناك.

سأله نور الدين:

ـ لماذا؟

قال يوسف:

ـ تركتهم هناك.

سأله نور الدين:

ـ كنت تريد أن تجلبهم معك؟

هزّ يوسف رأسه.

ـ كنت تريد أن تبقى هناك، معهم؟

هزّ يوسف رأسه مرة أخرى.

ـ ماذا؟ ماذا تريد؟

أطلق يوسف ضحكة. تراجع نور الدين قليلاً. قال يوسف:

ـ هل تسافر معي إلى هناك؟

قال نور الدين:

ـ أنت سكران. يجب أن تنام. غداً نتحدث.

قال يوسف (صوته يتقطع، من النبيذ، من التعب، من البكاء الصامت):

ـ غداً بيروت. غداً أنزل إلى بيروت.

قال نور الدين:

ـ نتحدث حين تعود. أو أنزل وأزورك. أو تؤجل نزولك يومين.

قال يوسف:

ـ لا، وعدتُ الدكتور.

رسم بيده إشارةً غامضة في الفضاء. ثم صمت.

قال نور الدين:

ـ الصباح رباح. الآن تنام وغداً نرى.

قال يوسف:

ـ تنزل وتزورني؟

قال نور الدين:

ـ أنزل وأزورك. اتفقنا؟

قال يوسف:

ـ اتفقنا.

ابتسم نور الدين. انحنى ورفع يوسف عن الكرسي. قاده إلى السرير الخشبي في الجزء الأعمق من البيت الطويل المستطيل. مدّده على الفراش. خلّص قدميه من المداس، فكّ زنار شرواله، ثم غطّاه بالبطانية.

أطفأ الشموع وخرج.

ـ 85 ـ

كانوا قد أعدوا له غرفة على الطابق الثاني من مبنى المرسلين.

قال يوسف للدكتور فاندايك:

ـ وضعت صناديقي في فندق بسول.

قال الدكتور:

ـ نرسل من يجلبها.

قال يوسف:

ـ أُفضل السكن هناك. الأجرة زهيدة* والخدمة جيدة.

قال الدكتور:

ـ كما تريد.

*

(فندق بسول)

كانت نافذته تطلّ على خليج عين المريسة، بمراكب الصيادين والصخور المتباعدة. وعلى تلال رأس بيروت، بالكروم الصفراء

---

* أورد فارلي في كتابه «سنتان في سوريا» المنشور في لندن سنة 1859 أن أجرة الغرفة في أوتيل بسول آنذاك ما كانت تتعدى عشرة فرنكات تغطي أيضاً نفقة الخدمة ووجبات الطعام الثلاث.

وسقوف القرميد المثلثة. كل صباح يضع كرسيه هنا، يشرب شاياً، يأكل خبزاً ساخناً، لبنة ماعز مغمورة بالزيت، زيتوناً، ونعناعاً، ثم يدفع الصينية بعيداً، ويملأ غليونه بالتبغ. عند الثامنة والنصف يغادر الفندق إلى مطبعة الأميركان. عند التاسعة يبدأ العمل يساعده خمسة رجال يعرف أحدهم* من قبل سفره إلى لندن. ينقشون القوالب التي استوردها الدكتور من أوروبا. وعند الظهر يأخذون استراحة الغذاء. يتناول يوسف طعامه على طاولة المرسلين أحياناً، وفي معظم الأحيان يتمشى في هواء الخريف اللذيذ عائداً إلى مينا الحصن. يأكل في صالة الفندق، يتبادل أطراف الحديث مع حجاجٍ في الطريق إلى القدس، مع تجارٍ قادمين في عمل، مع سواحٍ تأخر رجوعهم إلى أوطانهم، مع موظفين في قناصل روسيا وفرنسا وبريطانيا، ويشرب قليلاً من النبيذ، ويدخن. في بعض الأحيان يشاركه طاولته في الزاوية رجلٌ فرنساوي مقيمٌ في بيروت يُدعى كامي روجييه. هو رسّام لكنه أيضاً مدير مكتب البريد العثماني** في المدينة. ونزلاء الفندق يحبّون الاستماع إلى نوادره الجنسية. حين يتناول الطعام إلى طاولته يحاول يوسف الانتهاء من الأكل بسرعة. لا يزعجه الفرنساوي (هو حتّى يجده ظريفاً!) بقدر ما تزعجه محاصرة النزلاء لطاولتهما فيما الرجل يروي نكاته.

بعد الطعام يمشي متمهلاً إلى المطبعة من جديد. ثمة طريق واسعة شُقت في هذه الناحية، وهناك عربة صغيرة بحصان واحد متوقفة تحت أشجار الأوكالبتوس (الكينا). في آخر الطريق، حيث تزدحم البيوت المليئة بثقوب الحجر الرملي، نبع ماء تزدحم حوله الحمير. بعد النبع صفٌ من أشجار الليلك الفارسي، يتلكأ في سيره

---

* طنوس الشويري.

** «البوسطة».

قربها، كي يملأ رأسه بالرائحة، كي يزول عن دماغه ثقل اللحم والنبيذ والدخان.

أحياناً يرافقه الفرنساوي حتى المطبعة قبل أن يتابع دربه عبر بوابة يعقوب وأزقة المدينة القديمة إلى الميناء في الشمال. في هذه النزهة يحلّ الصمت على الفرنساوي فيحسّ يوسف بألفة غريبة تنشأ بينهما. بعد أيام، حين يلتقيان صدفة في الفندق، تكون الألفة قد تبدّدت.

أواخر الخريف توقف الفرنساوي* عن الظهور في أوتيل بسول. التقاه يوسف مرة في ساحة البرج، بين البيوت الجديدة. دعاه الفرنساوي إلى تناول العشاء في حارته خارج بوابة أبي النصر. (هذه بوابة فُتحت في السور المتداعي، بين السراي والدركاه، بعد هجرة يوسف إلى لندن).

وعده يوسف أن يزوره. لكنه لم يفعل. كان يُشرف على اتخاذ قرارٍ جديد.

*

في عيد الميلاد زاره نور الدين.

* كتب الشهير غوستاف فلوبير في «رسائل من الشرق» أنه التقى كامي روجييه مدير مكتب البريد في بيروت فوجده «شخصاً فذًا». في أسطنبول حيث أقام سابقاً، اعتاد الأتراك زيارته، للتفرج على «عضوه الجنسي الكبير»!

ـ 86 ـ

(زيارة عيد الميلاد)

كان وحده في المطبعة* يحفر قالب حرف الجيم (كما يُكتب في آخر الكلمة: «ج»، لا في وسطها: «جـ»)، بحركة الضمة ـ الشبيهة بواوٍ صغيرة ـ فوق الحرف. أزعجته العدسة المكبرة فأبعدها. ضوء الشتاء كان ينحدر ساطعاً أبيض من النوافذ الكبيرة العالية الغارق ربعها في الأرض.

وسط قرع أجراس الميلاد فكر يوسف ـ وهو يرى وجهه منعكساً في زجاجة أحد القناديل ـ أنه قد بدأ يفقد لون الشمس والتراب من جديد. خلال الأشهر الفائتة أحرقته شمس الجبل ولوّحته بسمرة الطفولة البائدة. لكن ها هو تحت الأرض من جديد! في مطبعة! كأنه لم يشتهر في أسواق الخضار قبل فصلٍ بصفته صاحب البندورة الكاملة! كأنه لم يرجع من لندن! كأنه ما يزال في ستراند!

هذه لحظات تجيء وتروح، وفي المنامات تُحيّره أشد الحيرة: لا يعرف أين هو، لا يعرف أي لغة يستخدم (العربية أم الانجليزية؟)،

* أعطى فانديك، العمال، يومي 24 ـ 25 كانون الأول، عطلةً. استغل يوسف الفرصة كي يعمل في هدوء.

ولا يعرف ماذا سيحدث له: هكذا تأتي لحظة يضيع منه الوقت، تضيع منه الأمكنة، فيجد نفسه معلقاً كطيرٍ في الفضاء!

وضع الإزميل على الطاولة. نظر إلى شجرة أكي دنيا ظاهرة وراء إحدى النوافذ. سمع ضجة خلفه. استدار.

كان القادم نور الدين، وخلفه ثلاثة رجال، تبين يوسف بينهم الشيخ أحمد القاضي. (كان قد زاره في بيته القرميدي في كفربُرك في الربيع الفائت مباركاً بالبيت وبالعودة السالمة من بلاد الإنجليز: وجده يوسف متبدلاً كأنه تحوّل إلى شخص آخر. أيام كانوا يسمّونه أحمد التنبل كان يميل إلى البدانة ووجهه مليء بالمرح. أما الآن فهو نحيل كقضيب رمان وفي ملامحه قتامة تقبض القلب).

سلّم عليهم ثم خلع مئزره. علّقه قرب الباب وخرج أمامهم إلى الحديقة. كان رذاذٌ باردٌ خفيفٌ يتساقط.

قال يوسف:

ـ نمشي إلى الفندق؟

ردّ نور الدين:

ـ لا نملك الوقت. هذه زيارة سريعة. قلت أراك. لم نأتِ وحدنا. المشايخ الباكوات عندهم اجتماع مع خورشيد باشا. ويجب أن نرجع إلى القشلة بعد قليل. الأولاد اشتاقوا لك. كيف الشغل؟

قال يوسف:

ـ نكاد ننتهي.

سأله نور الدين:

ـ أسبوع؟ أكثر؟

قال يوسف:

ـ قبل الربيع.

قال نور الدين:

ـ من يوم رجعت لم أرَكَ في البنطلون الفرنجي.

ابتسم يوسف. نظر إلى بنطلونه، وإلى صباطه، وفكر أنه بالفعل يبدو مختلفاً الآن.

قال الشيخ أحمد:

ـ يجب أن نمشي.

صافح نور الدين أخاه وقبّله. كان الرذاذ يتحول إلى مطرٍ حقيقي. أخرج يوسف ساعته الذهبية من جيب الصديرية الجوخ الإنجليزية. قال لنور الدين:

ـ خذْ! هذه لإبراهيم! وعدته بها ونسيت!

لفّ نور الدين السلسلة الرفيعة على اصبعه. زان الساعة في يده، ثم ضحك:

ـ نشتري له بارودة؟

قال يوسف:

ـ لن تشتري لك بلطة.

صافح الشيخ أحمد ثم الرجلين الآخرين. تحت خيوط المطر الداكنة (فجأة تغطت السماء بطبقات كثيفة من الغيوم، وهبّ هواءٌ يقص العظم!)، وسط قرع الأجراس المستمر، راقب يوسف أخاه نور الدين يبتعد، بين الأشباح الثلاثة، كلّهم في الثياب السوداء، وعلى رؤوسهم طاقيّات بيضاء ناصعة.

كان واقفاً تحت شجرة، وحين سال الماء على خديه خيّل إليه أنه في حديقة البيت في لندن.

هناك.

ـ 87 ـ

بعد ثلاثة أسابيع، في يوم أحد، رست فرقاطة أميركية قبالة الكرنتينا. كان الشهر الأول من السنة الجديدة (سنة 1860 ميلادية) ينتصف.

ذهب يوسف إلى البنك العثماني صباح يوم الثلثاء. رجع ظهراً إلى غرفته في فندق بسول حاملاً كيساً جلدياً مليئاً بالجنيهات*.

يوم الأربعاء تناول طعام الغذاء مع فانديك. كان الدكتور متعباً، وعيناه حمراوان من السهر. (قد بدأ قبل أيام في ترجمة «العهد القديم» مباشرةً عن العبرانية، كما ترجم ـ من قبل ـ «العهد الجديد» مباشرةً عن اليونانية). تكلما في الوضع المضطرب، في لقاءات مشايخ الدروز مع الباشا التركي والقنصل البريطاني، في بدء حركة نزوح مسيحية من العرقوب (قرى كفرنبرخ وكفربُرك وبتلون. . . .) نحو زحلة ونحو دير القمر. كان الدكتور في عباءته العربية. يوسف كان في الطقم الإفرنجي.

يوم الخميس احتفلوا في المبنى حيث المطبعة بانتهاء حفر

* كانت قيمة الجنيه الانجليزي آنذاك تعادل 120 قرشاً عثمانياً.

الرواسم. أهدى المرسلون يوسف مِنقاشاً فضيًّا بطول الاصبع.

يوم الجمعة كتب رسالة طويلة إلى أخيه نور الدين ثم مزّقها ورماها من النافذة. تطايرت النتف البيضاء في رياح كانون الثاني. اختفت في مياه الخليج وبين صخور الشاطىء. أغلق يوسف النافذة. كان يصطك من البرد. رأى مركباً مربوطاً إلى وتدٍ بحبل. كان المركب يتهادى على الماء في حركة رتيبةٍ متواصلة لا معنى لها.

يوم السبت تناول طعام الغذاء مع أحد بحّارة الفرقاطة. كان قد التقاه يوم الاثنين بينما يشتري التذكرة.

يوم الأحد راقب النوارس فوق الماء. طلب إذناً من السيد نقولا بسول ثم صعد إلى السطح. تفرج من فوق على بيروت وعلى الجبال القريبة. كادت الريح أن ترفعه وترميه في البحر.

يوم الاثنين زاره فانדايك في الفندق حاملاً رسائل، منه، ومن المرسلين، إلى معارف وأقارب في جميع أنحاء أميركا.

يوم الثلثاء نقل صناديقه ـ على بغلة ثم على قارب ـ إلى الفرقاطة الراسية قبالة المحجر.

ليلة الثلثاء ـ الأربعاء سهر في صالة الفندق. كان أحدهم يعزف على آلة العود ويغني. ثم ظهر رجلٌ يحمل طبلة. ومن وراء ستارة ظهرت إمرأة في ثياب الرقص الشرقي. شرب عرقاً زحلاوياً، أكل كبدة عجل نيئة مع بصل أبيض، دخّن ثلاثة غلايين، ثم صعد إلى غرفته.

كانت الغرفة خالية من أغراضه. تمدّد على السرير. الرعد يهزّ النافذة. البرق يضيء الغرفة بالأزرق الساطع السريع. المطر ذكّره بقصيدة قديمة. أغمض عينيه.

في الصباح، أو عند الظهيرة، غداً. . . .

غداً، كان يردّد، بالإنجليزية*، حين نام. استيقظ في نصف الليل. أشعل قنديلاً، وجلس على حافة السرير حتى طلع الضوء.

* Tomorrow.

ـ 88 ـ

وقف على ظهر الفرقاطة. كانت تتحرك ببطء، تحت سماء رصاصية منخفضة، فوق بحرٍ كعكر الزيت.

الهواء ساكن. النوارس على الشاطىء. دخان يتصاعد فوق سطوح البيوت. قرب خان أنطون بك حام سربٌ من الحمام الناصع البياض.

لا أحد يُودِّعه هذه المرة. وحده، والبحر يحمله إلى الجانب الآخر، من جديد. المسز هاميلتون ليست هنا كي ترفع منديلها الأبيض فوق قبعتها الحمراء. آنت هلن ليست هنا كي تلمس كتفه بينما يتسلق درجات القطار.

لا حاجة كي يبتسم لأحد. لا أحد هناك على الشاطىء. وحدها النوارس ترتفع مع الهواء الخفيف، ثم تختفي في ظلال المراكب، كأنّها لم تكن.

*

ذات لحظة تختفي الفرقاطة وسط البحر. بعدئذٍ لا نعرف عنه شيئاً: يضيع في العالم الكبير!

ـ 89 ـ

(ما حدث لفانديك)

في 29 آذار 1860، بعد شهرين تقريباً من رحيل يوسف عن بلادنا، ظهرت ترجمة «العهد الجديد» العربية عن مطبعة الأميركان بيروت.

في أواخر أيار 1860، انفجرت حرب الجبل. دارت المعركة الكبرى الأولى في عين داره بين جيش قادم من زحلة، وآخر من العرقوب يقوده الشيخ خطار بك العماد. غطىً الدخان المتصاعد من حرائق البيوت ومخازن الشرانق سماء البلاد. في تموز عجّت بيروت بالجرحى وبالمسيحيين الهاربين من حاصبيا ودير القمر والشوف. كان الدكتور فانديك يعالجهم، يوزع عليهم الطعام، ويقدم لهم نسخاً من «العهد الجديد».

*

في 29 آذار 1865، صدرت ترجمة «الكتاب المقدس» كاملةً: العهد القديم، والعهد الجديد. بعد هذا تفرّغ الدكتور لممارسة الطبّ في بلادنا.

ساهم في تأسيس «الكلية»* في رأس بيروت، فأنشأ بين

* الكلية السورية الانجيلية. عُرفت لاحقاً بالجامعة الأميركية.

الأشجار، فوق هضبة مشرفة على عين المريسة، مرصداً فلكياً «ابتاع له آلات بقيمة سبعماية ليرة انجليزية من ماله الخاص»*. وجعل يُدرِّس الطلاب فيه علم الفلك.

في 1882 غادر الكلية، وعمل مع المستشفى البروسي. كان يترك بيروت في رحلات قصيرة ثم يعود إليها. يوم 13 تشرين الثاني 1895 مات بالسكتة. كان يقول ـ لمّا يمضي إلى وراء البحر ـ «إني تركت قلبي في سوريا».

دُفن في بيروت. الصور الفوتغرافية تُظهره جالساً في عباءة عربية، بلحية بيضاء، وطاقية سوداء. على الأرض قربه شتلة نبتت في فخارة، وكرسي من القش، وأرجيلة طويلة النربيش. ينظر إلينا. يد على متكأ الكنبة الخشبية البسيطة. ويد أخرى تمسك إبزيم الأرجيلة. ينظر ويريدنا أن ننظر إليه. خلفه نافذة مشرعة تطلّ على شجرٍ كثيف وضوءٍ صيفي حارق.

---

* عن «سر النجاح» ليعقوب صروف صاحب «المقتطف». وقد كان أحد تلامذة فانديك قبل هجرته مع فارس نمر إلى القاهرة.

ـ 90 ـ

(نور الدين)

في معركة عين داره أُصيب نور الدين إبراهيم خاطر جابر بطعنةٍ في عنقه. لم تقتله الطعنة. تدحرج مع رجل على أشواك منحدرٍ، ثم خنقه بيديه العاريتين. كان الدم ينوفر من رقبته. حاول إغلاق الثقب بيده، لم يقدر. مزّق قطعة من ثيابه ولفّ عنقه. كي يوقف النزيف كان عليه أن يخنق نفسه. في شمس أيار، وسط الضجيج والصراخ، استطاع أن يبلغ نبع ماء. انحنى على بركة راكدة كي يغسل جرحه. رأى وجهه مغطى بالدم، متقلص العضلات، يشبه وجهاً غريباً، وجهاً رآه ـ يراه ـ اليوم لأول مرة: وجه ذلك الرجل الذي خنقه للتو.

*

انتهت الحرب*. احترقت مواسم الحرير. احترقت البيوت. احترقت الأراضي. أخبار المذابح التي بلغت أوروبا حرّكت جيشين نحو الجبل اللبناني: الأول تركي وصل في تموز والآخر فرنسي بلغت بواخره الشاطىء اللبناني في منتصف آب.

فرّ الدروز بالمئات إلى حوران المنيعة. خلال الأيام التالية، تمّ

* قدّر مؤرخون، القتلى المسيحيين آنذاك، بأحد عشر ألفاً.

استدعاء من بقي منهم في الجبل، إلى ساحة المختارة مركز الزعامة الدرزية.

قال نور الدين لزوجته:

ـ يا أم إبراهيم انتبهي للأولاد.

ثم ركب البغلة وقال لابنه:

ـ يا إبراهيم انتبهْ لأمك.

(النفي بالقُرعة)

كتبوا الأسماء على أوراق ثم رموها مطويةً داخل فخارة. من 1200 ورقة سحبوا 450 فقط. كان فؤاد باشا التركي جالساً إلى جنب الجنرال بوفور الفرنساوي. كلّما سُحبت ورقة هزّ الجنرال رأسه أو حرّك الباشا قدمه.

المكتوب اسمهم على الـ 450 ورقة تمّ نفيهم إلى بلغراد عند تخوم الامبراطورية العثمانية، وإلى طرابلس الغرب في افريقيا. على ورقة من هذه الأوراق كان اسم نور الدين.

*

نَزِل مغلولاً مع الباقين في سلسلة واحدة، من الجبل إلى بيروت. ناموا في القشلة ليلةً. سمعوا أن الشيخ سعيد بك جنبلاط يحتضر مسلولاً في بيتٍ قريب.

في الليلة الثانية قادهم الحراس إلى الميناء عبر طريق بين البيوت خارج باب إدريس. عبروا قرب مقابر قديمة، داروا حول سور السنطية، ودخلوا منطقة الأرصفة من بابها الغربي.

تحت جنح الظلام فرّ بعض المغلولين. (كانوا يملكون المال فاشتروا غفلة حراسهم). قام الحراس الأتراك ـ للتمويه وخداع الضابط

الفرنسي - بجمع ثلاثين بيروتياً من الأزقة، ثم قيدوهم إلى السلسلة الحديد.

أقلعت السفينة الإنجليزية Levant عند الفجر. توقفت في ميناء* على الشاطىء السوري وأنزلت عن متنها ثلاثين بيروتياً بريئاً ليرجعوا برًا إلى مدينتهم. ثم أقلعت من جديد.

حركتها المضطربة فوق سطح الماء قلبت أمعاء نور الدين. تقيأ ما أكله من لحم العجول المقدد. تقيأ ما شربه من يانسون. ونام في عتمة الجوف الكبير.

(بلغراد)

في سجن «القلعة البيضاء» في بلغراد عاش كالكلب. يتنفس هواء ما تحت الأرض، ويأكل كسرة خبز في الصباح، وكسرة مثلها عند المغيب. المياه كانت تُجلب إليه في فخارة مغطاة بالخزّ من الخارج والداخل. كشط الخزّ عن خارجها. لكنه لم يستطع أن يُدخل يده لينظف باطنها. وحده في العتمة. نسيه الباقون. وضعوه وحده هكذا بالصدفة. امتلأت معظم الزنازين، وكانت هذه فارغة، فألقوه هنا. ثم نسيه الجميع.

تحت، في الظلام، تغطى بشعره ونام. حلم بأرضه، بكروم العنب، بشجرات التوت. ببيته، بزوجته، بأولاده. حلم بفصل الربيع، وصوت القزّ على الأطباق. حلم بقصر بيت الدين يراه في القاطع المقابل وهو ذاهب ذات صباح إلى سوق دير القمر. مضى الوقت. أيام. أسابيع. شهور. عتمة متصلة لا نهاية لها. أكل كما يفعل كل يوم ثم نام. ينتظر النوم ليحلم بالأخضر، وبالماء البارد

* أورد صاحب «الحركات في لبنان» أنه ميناء عكا.

يترقرق وسط الأخضر. بالأزرق العالي، وبالأبيض يعبره. كان ينتظر النوم لتأتي روائح الجبل إليه، ولتأتي تلك الأصوات: ضحكة ولد من أولاده، همسة المرأة في أذنه، خوار البقرة في الجلّ، حبّات البرد تقرقع فوق حجارة المصطبة وحصى الدار، زقزقة حسونٍ بين أشواك الجرد...

أكل ونام. لكنه لم يرَ غير الظلمة الحالكة. أين اختفت تلك المنامات المليئة بالألوان والروائح؟

انتظر يوماً ثم نام من جديد. الليلة سأحلم، قال لنفسه. لكنه لم يرَ إلا الليل. حَسِبَ أنه في هذه الليلة (هل يعرف أنها ليلة في هذا الظلام المتواصل؟) نَسي أن يحلم. قال لنفسه إن المنام قد لا يأتي كل ليلة. انتظرَ. مرت الساعات. أكل كسرة خبز ونام. لم يأتِ المنام. فقط ظلمة حالكة. تلمس وجهه بأصابعه. ضرب رأسه بالجدار. ثم قرر أن يصبر. انتظرَ. أكل ونام. رأى الظلمة الحالكة من جديد. لكنه هذه المرة أبصر، وسط المنام المظلم، كسرة خبزٍ أيضاً. استيقظ من منامه باكياً. اكتشف ـ حين رأى الكسرة اليابسة ـ أنه ما يزال يحلم. بلى، ما زال كلّما نام يحلم، لكنه الآن ما عاد يحلم بالجبل والأيام القديمة القديمة. صار يحلم بأيامه القديمة هنا، في الزنزانة، تحت الأرض.

بعد سنتين في السجن حدث زلزال. لم يكن زلزالاً. حامية «القلعة البيضاء» التركية كانت تقصف الجزء الصربي من بلغراد*. ارتجاج المدافع تسبّب بتصدع الحيطان تحتها. اندلع حريق أيضاً. (بعض الثوار رموا كرّات نار على اسطبلات القلعة). تحولت الزنازين

* عُرفت هذه الحادثة بـ «قصف بلغراد». وشكلت أحد الأسباب الأساسية لخروج العثمانيين من صربيا لاحقاً.

تحت الأرض إلى متاهة من الحيطان المتداعية والدخان القاتل.

خرج السجناء إلى النور. الحراس غضّوا الطرف عنهم. (كانوا، مثلهم، يحاربون المسيحيين!). هرب السجناء منحدرين نحو السهول. خاضوا في الدانوب. قطعوا الجبال. عبروا أوروبا. عبروا آسيا. ناموا في اليونان. ناموا في اسطنبول. ناموا في بغداد. ناموا في اللاذقية. عرفوا قرصة النوم في برد العراء، والدفء الساحر للنوم في اسطبل بين الماشية. كادوا يغرقون في الماء أكثر من مرة. تحطمت أرجلهم على صخور المنحدرات. لكنهم في الختام بلغوا بيوتهم في الجبل، في المتن والجرد والشحار والشوف والعرقوب. نور الدين جابر لم يرجع. أولاده وزوجته ذهبوا وسألوا عنه العائدين. لم يتذكره أحد. كأنه لم يُنفَ معهم ولم يشاركهم النوم عشرين يوماً في بطن السفينة «ليفانت» ولم يشرف على الغرق مثلهم حين هبّت عاصفة على السفينة في الأدرياتيكي. وحده الشيخ يوسف بك عبد الملك (صاحب الجرد)، الذي تحدث معه ليلة كاملة، أول أو ثاني ليلة في «القلعة البيضاء»، تذكره. وحين تذكره تذكر أيضاً أن الحراس أخذوه إلى زنزانة أخرى. من بعدها غاب ولم يُسمع عنه خبرٌ. قال الشيخ يوسف بك عبد الملك لأولاد نور الدين جابر إن والدهم صار في رحمة الله لا بد. قال إنه مات. مات هكذا وهو نائم. ولم يتعذب. قال لهم هذا كي لا ينتظروا رجلاً لن يرجع وكي لا يعيشوا في عذاب التفكير بأبٍ سجين تحت أرض قارة أخرى.

لكن نور الدين لم يمت. خرج من تحت الأرض بعد أشهر. كان طوال الأشهر الفائتة محجوزاً وسط حيطان تداعت فوقه كسقف خيمة. ينبش التراب ويأكل الديدان. حين خرجت له أفعى من ثقبٍ في الجدار المائل لم يرَها. لم يكن يرى إلا الظلام في الظلام. الهواء كيف كان يصل إليه؟ لا أحد يعلم. دخلت أفعى وهو نائم إلى خيمته الحجرية المتصدعة. لفّت نفسها حول عنقه، فوق الندبة. فتح فمه

وهو يختنق. أولجت الأفعى رأسها في فمه. كانت باردة كقطعة جليد. عضّ الرأس. قضم الحيّة. قطعها. وعاش على لحمها ذاهلاً عن نفسه، كالأخوت، طوال أسابيع. كانت المياه تنقط عبر الحيطان قادمة من بئرٍ قريبة. كان يسمع صوت خبطة سطل على صفحة الماء في قعر البئر ولا يعرف ما هو الصوت. وحين يعطش يضع تراباً رطباً في فمه. ولم يمت. ذات ليلة (أو ذات نهار) ارتج الحائط خلف ظهره. قفز مذعوراً. كانت الحيطان تتداعى ثم رأى الضوء. أعماه النور وأحرق عينيه. مشى على أربعٍ يدبّ على الأرض حتى بلغ زنزانة كاملة الحيطان. دخلها ودفن وجههَ في التراب. نارٌ في عينيه. وصراخٌ لا يخرج من فمه. نسي الكلام ولم يعد يبصر. انتظر الليل. الظلام الرحيم. هبط الهضبة، تدحرج في العتمة على صخور بيضاء. وجد نفسه داخل مدينة تطلّ عبر نهر مثلث الشكل على مدينة أخرى. سقط في الساحة. أخذه رجال إلى نزلٍ قريب. أكل وشرب ونام. سألوه من هو. لم يعرف. كان يهمهم كحيوان. سألوه من أين جاء. لم يعرف. نسي الكلام. همهم وسكت.

نسي الحكي ووجوه البشر. في النهار يختفي داخل الحيطان. في الليل يهدأ. يخرج كالواطواط محاذراً. صار يعمل حارساً في مقبرة، ثم حفّار قبور أيضاً. بعد فترة استعاد صحته. ظلّ الضوء يعميه لكنه بدأ يستعيد بعض ذكريات قديمة. هل تحسّن؟ ألم يكن أفضل له لو أنه لم يسترجع تلك الذكريات أبداً؟ وكيف نعرف؟

كان نائماً حيث تذكر. تلك الليلة حفر قبراً لإمرأة ماتت وهي تلد. أهلها من سملين* بعد النهر. ماتت لكن الطفل عاش. هو ـ حفّار القبور ـ حفر القبر وانتظر وصول التابوت. لكن ولداً أشقر جاء وقال إن المرأة استيقظت. وضعوها على الأرض وغسلوها. وبينما

* Semlin.

يسحبون خاتماً ذهبياً من اصبعها أمسكت بكل أصابعها اليد التي تسحب الخاتم وقامت صارخةً: «حرامي، حرامي». هو، الحفّار، الحارس الذي لا أحد يعرف اسمه، استمع إلى الصبي الأشقر يحكي وفكر أنه يعرف حكاية كهذه الحكاية، حكاية عن رجل في قريته، قبل زمن بعيد، حين كان. . . . هذا كل ما فكر فيه. حاول أن يتذكر أكثر. ما اسم القرية وأين موقعها؟ من هو الرجل وما قصته بالضبط؟ وقبل زمن بعيد لكن متى؟ لم يقدر أن يتذكر. حتى اسمه كان قد نسيه. كان حارس المقبرة. والحفّار. والبعض يسميه «الوطواط» لأن ضوء النهار يحرق شبكية عينه. أما اسمه فلم يكن يعرفه، لا هو ولا أهل بلغراد!

ذهب الصبي الأشقر. ووقف حارس المقبرة مع رفشه ليذهب إلى كوخه الحجري الأبيض في زاوية المقبرة. (كل البيوت هنا حجارتها بيضاء لهذا يسمونها المدينة البيضاء). تحرك خطوة لكنه فجأة أحسّ بالتعب. تعب لا يُحتمل. كأنه مشى من قارة إلى أخرى. كأنه نزل إلى مركز الأرض ثم صعد. نَبَضَتْ ندبة عنقه كقلب. جلس مُمدِداً الرفش قربه. نعس وكاد ينام. لكن الهواء البارد ـ هواء النهر ـ ظل يوقظه. أخيراً تدحرج إلى الحفرة القريبة، إلى القبر الذي حفره لامرأة ماتت ثم قامت. تحت، بين حيطان التراب الحمراء الداكنة، حيث لا يخبطه هواء، نام عميقاً. وفي نومه العميق تذكر.

تذكر كل شيء. سمع صوت أولاده. رأى امرأته تعجن بكمّين مرفوعين إلى فوق كوعيها. سمع دود القزّ والحسون والمياه في الساقية الشتوية أعلى الوادي وقرب بيت العقد الكبير. سمع أحدهم ينده له من القاطع المقابل ويسأله متى ينتهي دوره بالسقاية كي يحوّل الماء. كان الصوت قادماً من تلالٍ بعيدة، ورأى «قناة المير» بالقندول عن جانبيها، وسمع صوتاً ينده له بذلك الاسم القديم: «يا نور الدين!» تلك اللحظة، مع ذلك الصوت يدوي في أذنيه، تذكر حارس المقبرة اسمه. وفي تلك اللحظة لم يعد حارس المقبرة حارس

المقبرة. تحوّل إلى رجل آخر. قفز من نومه، خرج من القبر، ووقف. في العتمة، صار رجلاً جديداً، صار نور الدين جابر. بينه وبين حارس المقبرة الذي مات للتو صفة واحدة مشتركة: الندبة على العنق!.

صار رجلاً جديداً. لكنه في الوقت ذاته لم يكن قد رجع إلى نفسه. إلى نور الدين جابر القديم كما نعرفه. ذلك الرجل كان قد مات. وأما الرجل الجديد، الواقف قرب الحفرة، فلم يكن يعلم عن هذا شيئاً. كان يحسبُ، وهو يقف هكذا جنب القبر العميق الفارغ، أنه قد استعاد اسمه، وأنه بهذا رجع ذلك الرجل الذي كانه قبل أن يفقد اسمه وقبل أن ينسى من هو ومن أين جاء.

طلب نور الدين مقابلة الأمير ميخائيل صاحب بلغراد. قال للأمير إنه رجل مسيحي من بيروت قبض عليه الأتراك ظلماً قبل سنوات بعيدة وساقوه ـ بدل أسيرٍ درزي رشاهم بالمال ـ إلى سجن «القلعة البيضاء». كان نور الدين يتكلم والأهالي الذي يعرفونه ـ ألم يحفر القبور لأقاربهم طوال هذه السنوات دون أن يتذمر ولو مرة واحدة؟ ـ يصادقون على كلامه، لأن الرجل مسكين وتعذب كثيراً.

الأمير المشهور بعدله (والذي سيتعرض للاغتيال بعد سنوات في غابة قريبة من مقبرة المدينة) منح نور الدين بعض المال، وأعطاه رسالة إلى حكام المدن الصديقة على ضفاف الدانوب. بدأ نور الدين رحلة العودة. على الحدود التركية ـ النمساوية منعوه من العبور ليلاً. اضطر للعودة في الصباح التالي وقد عصّب عينيه بزنارٍ من جلد الماعز. كان لا يسافر إلا في الليل وفي النهارات الكثيفة الغيوم شبه المعتمة. أما حين تظهر الشمس فيلجأ إلى المغاور أو الأقبية، أو يأخذ غرفة في نزلٍ فقيرٍ ويغطي نوافذها بالبطانيات والفُرش.

على الطريق، رغم قوّته البدنية (لنتذكر كم تلاشت هذه القوّة خلال سنوات الجوع تحت التراب) تعرض للسرقة والضرب أكثر من مرة. في إحدى قرى الأناضول تلقى ركلة على عنقه شقّت الندبة القديمة. لكنه لم يمت. بعد عشر سنوات من حرب 1860 بلغ بلاد الشام. وبينما الثلوج تتساقط من سماء شباط وصل إلى قريته في الجبل.

(شتاء 1871)

الثلج يغطي الجبل اللبناني. في الليل تطرق قبضة مرتجفة باباً خشبياً لبيت عقد قديم. المكان غارق في الصمت. الرجل بالكاد يسمع أنفاسه. في البعيد البعيد تعوي الذئاب. في تلك اللحظة، بينما ينتظر حركة الباب، يرى، في رأسه، المنحدر تحت القلعة، الوحول على ضفة الدانوب، الدردار والزان والبتولا، الفريز البرّي وتوت العليق والعنبية، المارغريتا والثالوث وكعب الثلج، شفّة الثور والسورنجان واللخنيس، كل تلك الأشجار، كل هذه الزهور، كم أرضاً عرفت قدماه، الخوخ والبرقوق والسنط، الاجاص والكرز والبلوط، الثعالب والأرانب والايائل والخنازير، الذئب يقطع الدانوب المتجمد، الطواحين خلف التلال في القرى الواطئة عن جانبي النهر المرتفع، وتلك الطيور: بلبل الشعير والصقور والنسور، السماني ودجاج الأرض والطواويس، وتلك الأسماك: الشبوط والسلمون المرقط والليفياثون الدقيق، يا ربّ!

وقرع الباب من جديد.

يطرق ويطرق، والهواء يهبّ من الوادي ويدور فوق دار البحص ويهزّ كتل الثلج عن شجرات التوت ويصفر بين شواهد القبور. «يا ربّ!» ويقرع مرة أخرى.

هذه المرة يسمع صوتاً: «لحظة، لحظة» أو: «طيب، طيب». يسمع نور الدين الصوت القديم ويدرك أنها المرأة، المرأة الوحيدة التي نام بين ذراعيها، المرأة التي أنجبت كل أولاده. أم إبراهيم. يسمع صوتها ثم طرطقة الحديد على الحديد. يرى عبر شقوق الباب الضوء الذي يشتعل فجأة. ثم ينفتح الباب. ويرى! رغم ضوء القنديل المرفوع عالياً يرى المرأة بشعرها الذي تخلله البياض، بعرقها النافر عند الرسغ (القنديل ثقيل)، وبعينيها المتسعتين رعباً!

هل يرى أيضاً، في زجاج عينيها، الرجل بوجه الشمع وبالندبة على العنق؟

فوق الباب الخشبي حدوة حصان مطروقة بالمسامير. يُقال إنها تمنع الأشباح من دخول البيوت: يحاول الشبح الدخول فيعلق في دائرة الحدوة المقطوعة. المرأة ـ أم إبراهيم ـ وهي تنظر إلى الرجل تلك الليلة، والقنديل يرتجف في يدها، فكرت في تلك الحدوة الحديدية بالتأكيد!

(العودة)

يرجع الرجل إلى بيته. نصف حقوله صارت للأولاد. كبروا وتزوجوا وأنجبوا الأحفاد في غيابه. المرأة تبدو خائفة منه. الجميع لا يعرفون كيف يتعاملون معه. هو ليس مثلهم. لم يعد مثلهم. يشرد طويلاً جالساً في زاوية البيت العميقة طول النهار. يذهب إلى بيت ابنه القرميدي ـ هذا كان بيت أخيه ـ ويصعد إلى علية القرميد. يحبّ هذه العتمة. يحبّ رائحة الخشب. لكن زوجة الابن تخاف منه فيرجع إلى بيت العقد.

يضع ألواح خشب فوق درفات النوافذ. حين يشعل ناراً ليتدفأ مع

زوجته وابنته التي بقيت بلا زواج يعطي ظهره للنار كي لا يحرق الوهج عينيه. يخرج في الليل ويعتني بالخضار في حقله. لا يبتعد عن البيت كثيراً لئلا يطلع عليه ضوء الفجر وهو مكشوف وفي العراء. عندما يضع رأسه على المخدة قبل الصباح، ويغطي وجهه بالبطانية، يتذكر وجهين: الأول وجه أبيض متوج بشعرٍ أبيض (هذا أخوه يوسف)، والآخر وجه أسمر متوج بشعرٍ أسود (هذا الوجه الذي رآه في الغدير بينما الدم يُنوفر من عنقه).

استمر ذلك خمس سنوات. ثم اختفى.

(الظهور)

ظهر بعد سنة في قرية في الجانب الآخر من الجبل. يعيش وحده في غرفة غارق نصفها تحت الأرض. يصلّح أحذية. يصلّحها في الظلام، على ضوء شمعة وراء ظهره. يلصق نعلاً هنا، يطرق مسماراً هناك. يُعدّ اليانسون على كانون الفحم. يأكل زيتاً وزعتراً، أو لبنة وزيتوناً. يقطف بصلاً أخضر من حاكورة زرعها وراء البيت الصغير. ولا يقرب اللحم. إذا أكل لحماً أصيب بإمساك طوال أيام، أو انقلبت معدته وخرجت من فمه. في الليل يخرج ويتمشى حتى المرج حيث يعبر جدول صغير. يقعد على العشب المبلّل. يتفرج على الماء. يُخرج من جيبه ساعة ذهبية. يفتحها ويغلقها. يفتحها وينظر إلى الأرقام التي لا يجيد قراءتها. حين يبدأ الضوء بالظهور يرجع مسرعاً إلى قبوه.

أواخر 1877 (بينما الدكتور كرنيليوس فانديك يتابع تأثيث المرصد الفلكي الجديد في رأس بيروت) يأتي رجلٌ إليه. يرفع نور الدين رأسه عن الطاولة المدروزة بالمسامير. يقول الرجل أنا ابنك إبراهيم. يقوم نور الدين من وراء الطاولة، يده على عينيه لتمنع النور

القادم من الباب وراء إبراهيم، يتجاوز كومة أحذية ومداسات، ثم يعانق ابنه. يبعده الابن عنه ويقول إن أمه ـ «التي كانت زوجتك» ـ قد ماتت. ثم يستدير ويرحل.

لا يذهب نور الدين جابر إلى الجنازة. لأن الجنازة في النهار. سنة 1878 يذهب ليلاً ويزور القبر قرب «دار المير» في كفربُرك. لا يعرف أين هو القبر بالتحديد، قبر المرحومة أم إبراهيم، لذلك يزور القبور كلّها قبراً قبراً. سنة 1882 (بينما الدكتور كرنيليوس فانديك يستقيل من «الكلية السورية الانجيلية» لخلاف نشب مع الإدارة سببه نظرية داروين في «النشوء والارتقاء») يتزوج نور الدين جابر إمرأة من آل جَيدا من كفرنبرخ. ذلك في 1882*، كم يكون عمره؟ 45 سنة.

تُدعى سُهيلة. سوف تنجب له صبياً واحداً يُسميه عماد الدين. بعد خمس سنوات يصحبه إلى كفربُرك كي يرى نصيبه من الرزقات. (بات يخرج في النهار لكن مع منديل رقيق على عينيه). خلال رحلة العودة يتعب من الركوب. يقول لعماد الدين ساعدني، وينزل عن البغلة البيضاء.

يتمدد على جنبه في ظلّ تينة شبه يابسة. ينزع المنديل لحظة: لعله يرى مرة واحدة السماء الزرقاء، بياض الغيوم، والشجر الأخضر! لكن الضوء يعميه. يغمض عينيه، يقول «يا عـ...»، لا يتم العبارة، يشهق ويموت.

* سنة الثلجة الكبيرة. أشهر من مات فيها الفرنساوي فرتوني بورتاليس صاحب كرخانة بتاتر لحلّ الحرير.

ـ 91 ـ

ورث عماد الدين عن أبيه تلك الساعة الذهبية وحسب. لم يقاتل أخوته ولم يطلب أرضاً في كفربُرك. أراد أن يأكل لقمته بعرق جبينه. كان ساعده قوياً، وقلبه مليئاً بالعزم.

تزوج، في سنٍ مبكرة، إمرأة من آل جَيْدَا أيضاً. سنة 1899 وضعت زوجته توأمين من الذكور. محمد وعلي. خرج محمد قبل علي بربع ساعة.

الاثنان تعلّما من الأب الكفاح الصامت من أجل لقمة العيش. (ألم يعمل أجيراً في ورشة بناء سراي بعقلين؟ ألم يعمل أجيراً في أعمال مدّ سكة الحديد بين بيروت ودمشق؟). علي هاجر إلى الأرجنتين قُبيل الحرب العالمية الأولى ولم يعُدْ. محمد ظلّ في كفرنبرخ، نجا من المجاعة، زرع حقلاً ثم ابتاع حقلاً آخر، وحين ضجر من الزراعة التحق بالجيش الفرنساوي. بعد استقلال لبنان صار رقيباً في الجندرمة. كان قد تزوج قبل سنوات، ورُزق بسبعة صبيان وخمس بنات. أحد الصبيان أبي: بعد موت جدي سنة 1983 وَرِث ساعته الذهبية ـ ساعة يوسف الانجليزي.

تمت

روايات للمؤلف

1 ـ سيد العتمة، دار الريّس، لندن، 1992.

2 ـ شاي أسود، دار الآداب، 1995.

3 ـ البيت الأخير، دار الآداب، 1996.

4 ـ الفراشة الزرقاء (نور خاطر)، المركز الثقافي العربي، 1996.

5 ـ رالف رزق الله في المرآة، دار الآداب، 1997.

6 ـ كنتُ أميراً، المركز الثقافي العربي، 1997.

7 ـ نظرة أخيرة على كين ساي، المركز الثقافي العربي، 1998.

ربيع جابر (روائي يعيش في بيروت)

يوسف الانجليزي

في معركة عين داره أصيب نور الدين إبراهيم خاطر جابر بطعنةٍ في عنقه. لم تقتله الطعنة. تدحرج مع رجل على أشواك منحدرٍ، ثم خنقه بيديه العاريتين. كان الدم ينوفر من رقبته. حاول إغلاق الثقب بيده، لم يقدر. مزّق قطعة من ثيابه ولفّ عنقه. كي يوقف النزيف كان عليه أن يخنق نفسه. في شمس أيار، وسط الضجيج والصراخ، استطاع أن يبلغ نبع ماء. انحنى على بركة راكدة كي يغسل جرحه. رأى وجهه مغطى بالدم، متقلص العضلات، يشبه وجهاً غريباً، وجهاً رآه ـ يراه ـ اليوم لأول مرة: وجه ذلك الرجل الذي خنقه للتو.

روايات للمؤلف

1 ـ **سيد العتمة**، جائزة الناقد للرواية، 1992.

2 ـ **شاي أسود**، 1995.

3 ـ **البيت الأخير**، 1996.

4 ـ **الفراشة الزرقاء** (نور خاطر)، 1996.

5 ـ **رالف رزق الله في المرآة**، 1997.

6 ـ **كنتُ أميراً**، 1997.

7 ـ **نظرة أخيرة على كين ساي**، 1998.



المركز الثقافي العربي
ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت ـ لبنان
ص.ب 4006 ـ الدار البيضاء ـ المغرب